التَّأصِيلُ الشَّرْعِيُّ البَلِيغُ

لِلخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ

www.saida-islam.weebly.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف إلاَّ مَن أراد طباعته وتوزيعه احتساباً لوجه الله

الكريم فله الإذن وجزاه الله خيراً .

الأردن - عمان - سحاب

ت/ ٠٠٩٦٢٧٨٨٤٤٣٩٢٣

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

الطبعة الأولى

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٥/١٢/٦٠٤٨)

www.saida-islam.weebly.com

مَنْ أَرَادَ طِبَاعَةَ هَذَا الْكِتَابِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى لا يُرِيدُ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنيَا فَقَدْ أُذِنَ لَهُ، وجَزَاهُ اللهُ خَيراً .

التَّأصِيلُ الشَّرعِيُّ البَلِيغُ

لِلْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ

تأليف

سليمان العايدي

www.saida-islam.weebly.com

www.saida-islam.weebly.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَقَامَ فِي أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ مَنْ يَكُونُ بِبَيَانِ سُنَنِ الْمُرْسَلِيْنَ كَفِيْلاً، وَاخْتَصَّ هَذِهِ الأُمَّةَ بِأَنْ جَعَلَهَا خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، ولا تَزَالُ فِيْهَا طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُهُ، وَلَوِ اجْتَمَعَ الثَّقَلانِ عَلَى حَرْبِهِمْ قَبِيْلاً، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُم عَلَى الأَذَى، وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللهِ أَهْلَ الْعَمَى، وَيُحْيُونَ بِكِتَابِهِ الْمَوْتَى، فَهُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ هَدْياً، وَأَقْوَمُهُم قِيْلاً، فَكَمْ مِنْ قَتِيْلٍ لإِبْلِيْسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَمِنْ ضَالٍّ جَاهِلٍ لا يَعْلَمُ طَرِيْقَ رُشْدِهِ هَدَوْهُ، وَمِنْ مُبْتَدِعٍ فِيْ دِيْنِ اللهِ بِشُهُبِ الْحَقِّ قَدْ رَمَوْهُ، جِهَاداً فِيْ اللهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَبَيَاناً لِحُجَجِهِ عَلَى الْعَالَمِيْنَ وَبَيِّنَاتِهِ، وَطَلَباً لِلزُّلْفَى لَدَيْهِ وَنَيْلِ رِضْوَانِهِ وَجَنَّاتِهِ .

وصَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، وَأَمِينِهِ عَلَى وَحْيِهِ، وَخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَسَفِيرِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، الْمَبْعُوثِ بِالدِّينِ الْقَوِيمِ وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَإِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ، وقُدْوَةً لِلْعَامِلِينَ، ومَحَجَّةً لِلسَّالِكِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ. أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَهَدَى بِهِ إِلَى أَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ، فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وعَلَّمَ بِهِ مِنَ الجَهَالَةِ، وكَثَّرَ بِهِ بَعدَ الْقِلَّةِ، وَأَعَزَّ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وأَغْنَى بِهِ بَعْدَ العَيْلَةِ، وبَصَّرَ بِهِ مِنَ العَمَى، وأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ، وفَتَحَ بِرِسَالَتِهِ أَعْيُناً عُمْياً، وآذَاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلْفاً، فَبَلَّغ الرِّسَالَةَ، وأَدَّى الأَمَانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ؛ فأَشْرَقَتْ بِرِسَالَتِهِ الأَرْضُ بَعْدَ ظُلُمَاتِهَا، وتَأَلَّفَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ شَتَاتِهَا، وسَارَتْ دَعْوَتُهُ سَيرَ الشَّمْسِ فِي الأَقْطَارِ، وبَلَغَ دِينُهُ القَيِّمُ مَا بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهَارُ، وَاسْتَجَابَتْ لِدَعْوَتِهِ الحَقِّ القُلُوبُ طَوعاً وإِذْعَاناً، وَامْتَلَأَتْ بَعْدَ خَوفِهَا وكُفْرِهَا أَمْناً وإِيْمَاناً، فَجَزَاهُ اللهُ عَنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلَ الجَزَاءِ، وصَلَّى عَلَيهِ صَلَاةً تَمْلَأُ أَقْطَارَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً [(١)] .

---

(١) من مقدمة الإمام ابن القيم على كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/١١-١٢) .

www.saida-islam.weebly.com

أَمَّا بَعْدُ :

فَلَقَدْ كَانَ مَبْعَثُ هَذِهِ الأُمَّةِ لِغَرَضٍ سَامٍ جِدّاً، وَلِمُهِمَّةٍ عَظِيمَةٍ، طَالَ عَهْدُ الإِنْسَانِيَّةِ بِهَا، وَتَشَاغَلَتْ أُمَمُ الأَنْبِيَاءِ عَنْهَا حَتَّى نَسِيَتْهَا، وذَلِكَ مَا خَاطَبَ بِهِ اللهُ ﷻ هَذِهِ الأُمَّةَ، فَقَالَ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فَهِيَ أُمَّةٌ أُخْرِجَتْ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، أَلَا وهُوَ إِنْقَاذُ البَشَرِيَّةِ وإِخْرَاجُهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ الَّتِي غَشَّتْهَا وطَمَرَتْهَا، وجَعَلَتْهَا لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، والنَّافِعِ والضَّارِّ، والغَثِّ والسَّمِينِ، إِلَى النُّورِ الَّذِي أَرَادَ اللهُ لَهَا أَنْ تَعِيشَ فِيهِ؛ فَهَذِهِ الأُمَّةُ لَمْ تَظْهَرْ لِمَصْلَحَتِهَا فَحَسْبُ كَسَائِرِ الأُمَمِ، بَلْ إِنَّهَا أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وذَلِكَ مَا تَمْتَازُ بِهِ الأُمَّةُ فِي التَّارِيخِ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وهِيَ وَلِيدُ أَغْرَاضِهَا، ورَهِينُ بَطْنِهَا وشَهَوَاتِهَا، تَعِيشُ لِأَجْلِهَا، وتَمُوتُ فِي سَبِيلِهَا؛ أَمَّا الأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ فَهِيَ أُمَّةٌ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وتُؤْمِنُ بِاللهِ، وتَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الخَالِقِ، وتُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ بِأَمْوَالِهَا وأَنْفُسِهَا وَأَلْسِنَتِهَا.

فَعِمَادُ حَيَاةِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَالْقُطْبُ الأَعْظَمُ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ نَشَاطِهَا وَحَيَاتِهَا وَجِدِّهَا وَكِفَاحِهَا هُوَ الدَّعْوَةُ إِلى اللهِ وَتَبْلِيْغُ أَحْكَامِهِ وَرِسَالَاتِهِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ بَيْنَ أَعْمَالِ الأُمَّةِ وَأَخْلاقِهَا وَسِمَاتِهَا – وَهِيَ كَثِيْرَةٌ ومُهِمَّةٌ – هُوَ الْمَكَانَ الرَّئِيْسِيَّ وَالأَسَاسِيَّ، فَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَتْ لأَجْلِهَا وَبُعِثَتْ لِمَصْلَحَتِهَا، كَمَا سَبَقَ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ مُخَاطِباً أَصْحَابَهُ :" **إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِيْنَ** "[(١)]؛ وَقَالَ رِبْعِيُّ بنُ عَامِرٍ فِي مَجْلِسِ مَلِكِ الْفُرْسِ : **اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاسِ إِلى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ**[(٢)] . فَبِهَذِهِ الرِّسَالَةِ انْتَشَرُوا فِي الْعَالَمِ، وتَحَرَّكُوا بِهَا إِلى الْمُلُوكِ والأُمَمِ والشُّعُوبِ، وفِي سَبِيلِ ذَلِكَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا، ولِأَجْلِ ذَلِكَ حَارَبُوا وعَاهَدُوا،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٢٠) و(٦١٢٨) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٥١٨/٣) و«البداية والنهاية» لابن كثير (٣٩/٧) .

www.saida-islam.weebly.com

ولَمْ يَزَالُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ مِنَ اللهِ ﷻ إِلَى الْأُمَمِ، وأَنَّهُم رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ونُوَّابٌ عَنْهُ فِي تَبْلِيغِ آخِرِ الأَدْيَانِ وَخَاتِمَةِ الرِّسَالاتِ .

وَهَكَذَا فقد ارْتَبَطَ مَصِيْرُ الإِنْسَانِيَّةِ بِهَا، فَبَقَاءُ الإِنْسَانِيَّةِ بِبَقَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَبَقَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِبَقَاءِ هَذِهِ الصِّفَةِ الدَّعَوِيَّةِ وَالْمَرْكَزِ الإِبْلاغِيِّ، وَبِمُحَافَظَتِهَا عَلَى فَرِيْضَتِهَا الأَسَاسِيَّةِ وَنَشَاطِهَا فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالاتِهِ الَّتِي حَمَلَتْهَا عَنْ نَبِيِّهَا ﷺ . وَقَدِ اسْتَقَامَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ وَسَارَتْ سَيْرَهَا الطَّبِيْعِيَّ، وَاسْتَقَامَتِ الأُمُورُ، وَسَلِمَتِ الْبَشَرِيَّةُ مَا دَامَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ مُحَافِظَةً عَلَى غَايَتِهَا وَرِسَالَتِهَا، قَوِيَّةً نَشِيْطَةً فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، تَبْذُلُ فِي سَبِيْلِ ذَلِكَ أَمْوَالَهَا، وَتُضَحِّي بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيْسٍ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ.

وَلَقَدْ كَانَ إِخْلالُهَا بِهَذَا الْوَاجِبِ وَتَقْوِيْضُهَا لِهَذَا الرُّكْنِ الرَّكِيْنِ ثَوْرَةً عَلَى طَبِيْعَتِهَا، وَانْحِرَافاً عَنْ جَادَّتِهَا، وَجِنَايَةً عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، تَبِعَتْهَا أَمْرَاضٌ وَعِلَلٌ، وَاخْتِلالٌ وَاضْطِرَابَاتٌ، يُشَاهِدُهَا الإِنْسَانُ، يَذُوقُ سُمُومَهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالاتِ الْحَيَاةِ، وفِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَلا سَبِيْلَ إِلى إِعَادَةِ الأُمُورِ إِلى نِصَابِهَا وَدُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا، إِلَّا بِعَوْدَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلى أَدَاءِ وَاجِبِهَا، وَإِلى سِيْرَتِهَا الأُوْلَى مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، وَتَبْلِيْغِ رِسَالاتِ اللهِ، وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَالشَّهَادَةِ للهِ، والحِسْبَةِ عَلَى الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ .

وَقَدْ جَدَّدَ اللهُ أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ بِرِجَالٍ اخْتَارَهُم لِذَلِكَ، فَحُبِّبَتْ إِلى النُّفُوسِ، وَهَانَتْ عَلَيْهَا الرِّحْلاتُ فِي سَبِيْلِهَا، وَالإِنْفَاقُ فِي مَصْلَحَتِهَا، وَرُكُوبُ الْبِحَارِ وَالتَّحْلِيقُ فِي الأَجْوَاءِ وَتَجَشُّمُ الْمَصَاعِبِ، وَكَانَ لِلدَّعْوَةِ نَفَاقٌ وَرَوَاجٌ، وذُيُوعٌ وشُيُوعٌ، لَمْ يُشَاهَدْ مِنْ عَهدٍ بَعِيْدٍ [١].

ومِنَ الْمَعْلُومِ شَرْعاً، أَنَّ اللهَ ﷻ شَرَعَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الدِّينِ مَا شَرَعَهُ لِأُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسِلِ، وهُوَ إِقَامَةُ الدِّينِ فِي النَّاسِ، وإِقَامَةُ النَّاسِ عَلَى الدِّينِ، فَقَالَ ﷻ : ﴿شَرَعَ لَكُم

(١) مقدمة أبي الحسن الندوي لكتاب «فضائل الدعوة إلى الله» للشيخ محمد زكريا الكاندهلويّ .

www.saida-islam.weebly.com

﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]. وهَذَا الأَمْرُ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ بِعْثَةِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ مَقْصُودُ بِعْثَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ العَظِيمَةِ .

ولِلْوُصُولِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصُودِ العَظِيمِ لَا بُدَّ مِنْ قِيَامِ الأُمَّةِ بِمَجْمُوعِهَا بِتَحَمُّلِ هَذِهِ الْمَسْؤُولِيَّةِ، ودَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى هَذَا الخَيرِ العَظِيمِ، فَإِنَّ فِي هَذَا فَلَاحَهَا ونَجَاحَهَا فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤] (١).

وإِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الدِّينِ وَإِقَامَةُ النَّاسِ عَلَيهِ وَاجِبَةً عَلَى الأُمَّةِ، فَإِنَّ اتِّخَاذَ الوَسَائِلِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصُودِ العَظِيمِ تَكُونُ وَاجِبَةً أَيْضاً وُجُوبَ الوَسَائِلِ، لِأَنَّ الوَسِيلَةَ الَّتِي لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ الْمَقْصُودُ لِذَاتِهِ إِلَّا بِهَا تَكُونُ وَاجِبَةً، وإِنْ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ خَاصٌّ يَنُصُّ عَلَى وُجُوبِهَا أَوِ الأَمْرِ بِهَا بِعَيْنِهَا، فَإِنَّ «**الوَسَائِلَ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ**» .

فَإِذَا بَيَّنَ الشَّارِعُ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْفِعْلِ الْمُعَيَّنِ، وَكَانَ هَذَا الغرضُ كَالْعِلَّةِ لَهُ، فَإِنَّ الْوَسَائِلَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ تَأْخُذُ نَفْسَ حُكْمِ هَذَا الْفِعْلِ مِنَ الْوُجُوبِ أَوِ النَّدْبِ، وَلا يَتَوَقَّفُ هَذَا عَلَى وُجُودِ دَلِيْلٍ خَاصٍّ يَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ هَذَا الْفِعْلِ، لأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْوَسَائِلِ، وَهُوَ بَابٌ وَاسِعٌ، يُتَّبَعُ فِيهِ الْمَصَالِحُ الَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ .

ومِنْ أَعْظَمِ الوَسَائِلِ الَّتِي لَا غِنَى عَنْهَا لِإِقَامَةِ الدِّينِ ودَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيهِ : «**الخُرُوجُ في سَبِيلِ اللهِ**»، لِتَكْوِينِ البِيْئَاتِ الإِيْمَانِيَّةِ الصَّالِحَةِ، الَّتِي تُعِينُ عَلَى تَعَلُّمِ الحَقِّ والعَمَلِ بِهِ، والاِسْتِقَامَةِ عَلَيهِ وإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَيهِ؛ ثُمَّ الذَّهَابِ إِلَى النَّاسِ فِي بِيئَاتِهِمُ الْمُظْلِمَةِ، ودَعْوَتِهِم إِلَى الحَقِّ والنُّورِ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ؛ وهَذِهِ هِيَ الوَسِيلَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٢/٩١) : وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ** ".

www.saida-islam.weebly.com

أَقْوَامَهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، حَيثُ كَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَيهِمْ فِي بِيْئَاتِهِم وأَمَاكِنِ تَجَمُّعِهِم، يَدْعُونَهُم إِلَى اللهِ ﷻ، وَيُذَكِّرُونَهُم بِأَيَّامِ اللهِ؛ فَلَمْ يَكُونُوا يَنْتَظِرُونَ النَّاسَ حَتَّى يَأْتُوهُم، بَلْ كَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَيهِم بِأَنفُسِهِم، يَدْعُونَهُم إِلَى اللهِ وإِلَى دِينِ الحَقِّ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الوَسِيلَةُ مِنْ بَينِ الوَسَائِلِ الأُخْرَى هِيَ الأَصِيلَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ؛ وبِمَثَابَةِ الأُمِّ والأَصْلِ لَهَا، بِحَيثُ لَا تُغْنِي عَنْهَا جَمِيعُ الوَسَائِلِ الأُخْرَى، كَمَا أَنَّ جَمِيعَ سُوَرِ القُرْآنِ لَا تَكْفِي عَنْ أُمِّ القُرْآنِ وَفَاتِحَتِهِ [١] .

ولَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الوَسِيلَةُ كَغَيرِهَا مِنَ الوَسَائِلِ، لَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَرْتِيبَاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الأَوْقَاتِ والأَعْمَالِ وغَيرِ ذَلِكَ، حَتَّى يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، ويُرْتَقَى بِهَا إِلَى الْمَنْهَجِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ويُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى أَفْضَلِ النَّتَائِجِ لِحِفْظِ الدِّينِ وإِقَامَتِهِ فِي حَيَاةِ الأُمَّةِ، كَانَ مِنَ الْمُهِمِّ بَيَانُ التَّأْصِيلِ الشَّرْعِيِّ لِهَذَا «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ»، حَتَّى نَأْخُذَهُ بِقُوَّةٍ، ونَقُومَ بِهِ عَلَى الوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ؛ ولِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هَذَا «الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِإِقَامَةِ الدِّينِ مِنَ الأُمُورِ الْمُحْدَثَةِ فِي الدِّينِ **مِمَّا لَيسَ مِنْهُ**، فَيُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى تَقْبِيحِ مَا حَسَّنَ الشَّارِعُ نَظَائِرَهُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ الْمَعْصُومَةُ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ نَظَائِرِهِ مِنَ الوَسَائِلِ، الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، وَهُوَ : إِقَامَةُ وَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى الخَيرِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ صَدّاً عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَجِنَايَةً عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَهْلِهَا؛ لِذَلِكَ أَحْبَبْتُ أَنْ أُبَيِّنَ التَّأْصِيلَ الشَّرْعِيَّ لِهَذَا العَمَلِ العَظِيمِ، الَّذِيْ أَعَادَ اللهُ بِهِ لِلدِّينِ هَيْبَتَهُ وقُدْسِيَّتَهُ فِي حَيَاةِ الأُمَّةِ، وعَادَتْ لِلْمُسْلِمِ فِي العَالَمِ شَخْصِيَّتُهُ وهَوِيَّتُهُ .

وقَدْ قَسَّمْتُ هَذَا البَحْثَ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَخَمْسَةِ فُصُولٍ وَخَاتِمَةٍ :

الفَصْلُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وَأَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلَامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ؛ وَضَرُورَةِ الاجْتِهَادِ فِي الأَحْكَامِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ والْمَكَانِ وَالأَحْوَالِ؛ وَفِيهِ خَمْسَةُ مَبَاحِثَ :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الْمَعَاشِ والْمَعَادِ .

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك وصَحَّحَهُ (٨٦٧) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ : " **أُمُّ الْقُرْآنِ عِوَضٌ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَيْسَ غَيْرُهَا مِنْهَا عِوَضٌ** ".

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلَامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : تَقْسِيمُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ إِلَى قِسْمَينِ : **أَحْكَامٍ تَعَبُّدِيَّةٍ تَوْقِيفِيَّةٍ**، لَا يُلْتَفَتُ فِيهَا إِلَى الْمَعَانِي، ولَا تَتَغَيَّرُ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ **وأَحْكَامٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ**، وهَذِهِ تَتَغَيَّرُ بِحَسْبِ اقْتِضَاءِ الْمَصْلَحَةِ لَهَا : زَمَاناً ومَكَاناً وحَالاً .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ ضَرُورَةِ الِاجْتِهَادِ فِي «الحَوَادِثِ الَّتِي لَا نَصَّ عَلَيهَا»، وأَنَّ هَذَا الِاجْتِهَادَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ كَمَالِ الدِّينِ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى كَمَالِهِ وشُمُولِيَّتِهِ وصَلَاحِيَّتِهِ لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وحَالٍ؛ وبَيَانُ اعْتِمَادِ هَذَا الِاجْتِهَادِ عَلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ونُصُوصِهَا العَامَّةِ الكُلِّيَّةِ؛ وأَنَّ كُلَّ حَادِثَةٍ لَيسَ فِيهَا نَصٌّ يَشْمَلُهَا حُكْمُهُ الخَاصُّ، فَحُكْمُهَا إِلَى القِيَاسِ والْمِيزَانِ الْمَصْلَحِيَّيْنِ .

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : بَيَانُ أَنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، ويَسْعَونَ لِتَحْقِيقِهَا بِالوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ، دُونَ تَقَيُّدٍ بِالوَسَائِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَيهَا، لِأَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مِنَ الوَسَائِلِ مَا يُنَاسِبُهُ دُونَ غَيرِهِ .

الفَصْلُ الثَّانِي : بَيَانُ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَأَقْسَامِهَا، وَالتَّفْرِيقُ بَينَ الْمَذْمُومِ مِنْهَا وَبَينَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ؛ وَفِيهِ مَبْحَثَانِ :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : كَلَامُ الأَئِمَّةِ فِي بَيَانِ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَانْقِسَامِهَا إِلَى لُغَوِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ، وَبَيَانُ الْمَذْمُومِ مِنْهَا .

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : بَيَانُ الفَرْقِ بَينَ البِدْعَةِ الْمَذْمُومَةِ والْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ فِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ أَعْظَمُ وَسِيلَةٍ تُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ الْمَنْشُودَةَ مِنْ هَذَا النِّظَامِ؛ وَفِيهِ أَرْبَعَةُ مَبَاحِثَ :

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ نَشْأَةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ، وحُكْمِ اسْتِحْدَاثِهِ، ودَوْرِهِ في إِقَامَةِ وَاجِبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ومَاذَا عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَفْعَلَ في ظِلِّ غِيَابِهِ .

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : بَيَانُ أَنَّ تَرْتِيبَ الأَوْقَاتِ لِلْخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، والتَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ، هُوَ أَفْضَلُ الوَسَائِلِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ بِعَيْنِهِ في السَّابِقِ، لِكَونِهِ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، وأَنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَ مَقَاصِدِهِ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : سُنَّتُهُ ﷺ وَسَبِيلُهُ في تَجَوَالُهُ لِدَعوَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، وَتَذكِيرِ الْمُؤمِنِينَ في الْمَدِينَةِ، وَاتِّخَاذُهُ دَلِيلاً في جَولاتِهِ عِندَ الحَاجَةِ .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ أَنَّ أَفْضَلَ الأَوْقَاتِ الَّتِي تُرَتَّبُ لِلْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ هِيَ مَا كَانَ لَهُ اعْتِبَارٌ في الشَّرْعِ، وإِنْ كَانَ غَيْرُهُ جَائِزاً .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : بَيَانُ الْمَقْصُودِ الأَعْلَى مِنْ تَشْرِيعِ «الخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ» لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَدَى مَسْؤُولِيَّةِ الأُمَّةِ عَنهُ، وَحُكْمِ هَذَا الخُرُوجِ؛ وَفِيهِ مَبْحَثَانِ :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الخُرُوجَ في سَبِيلِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَالبُغَاةِ وَنَحْوِهِم، كَذَلِكَ يَكُونُ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : كَلَامُ الإِمَامَينِ الرَّازِيِّ والغَزَالِيِّ في وُجُوبِ الخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ، خَاصَّةً عِنْدَ انْتِشَارِ الجَهْلِ، وإِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ تَعَلُّماً وعَمَلاً، وأَنَّهُ لَا يَسْقُطُ الحَرَجُ عَنِ الأُمَّةِ مَا دَامَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ جَاهِلٌ بِفَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ دِينِهِ .

الفَصْلُ الخَامِسُ : بَيَانُ سُنَّةِ اللهِ ﷻ في تَجْدِيدِ مَا انْدَرَسَ مِنَ الدِّينِ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ جَدَّدَ القُطْبَ الأَعْظَمَ في الدِّينِ، بِعَمَلِ «الخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ»، عَلَى يَدِ الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ؛ وَبَيَانُ شَيْءٍ مِنْ مَعَالِمِ هَذَا التَّجْدِيدِ وَآثَارِهِ؛ وَفِيهِ خَمْسَةُ مَبَاحِثَ :

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : فَضْلُ اللهِ ﷻ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِحِفْظِ دِينِهَا مِنَ الضَّيَاعِ، وبَعْثُهُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا .

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : الوَسِيلَةُ الَّتِي فَتَحَ اللهُ بِهَا عَلَى الشَّيخِ مُحَمَّدَ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ فِي إِحْيَاءِ جُهْدِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَتَجْدِيدِهِ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : الصِّفَاتُ السِّتُّ الَّتِي قَرَّرَهَا الشَّيخُ إِلْيَاسُ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَنهَجِ الجَمَاعَاتِ الخَارِجَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِلتَّمَرُّنِ عَلَيهَا، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيهَا، وَمَوْقِعُهَا مِنَ الدِّينِ .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : أَمْثِلَةٌ وَاقِعِيَّةٌ تُبَيِّنُ أَثَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي إِعَادَةِ الرُّوحِ الإِيْمَانِيَّةِ وصِفَاتِهَا إِلَى حَيَاةِ الأُمَّةِ، وإِعَادَةِ الأُمَّةِ إِلَى إِيْمَانِهَا وَوَظِيفَتِهَا الدَّعَوِيَّةِ .

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : رِسَالَةٌ إِلَى عُمُومِ الأُمَّةِ : شُعُوبِهَا وَحُكُومَاتِهَا، وَعُلَمَاءِهَا وَعَوَامِّهَا، لِلْعَوْدَةِ إِلَى الْمُهِمَّةِ الأَسَاسِيَّةِ، مِنْ خِدْمَةِ الدِّينِ، وَالقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَيهِ حَقَّ القِيَامِ، وَتَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ الجُهْدِ لإِقَامَةِ الدِّينِ .

وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُوْزِعَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لأَدَاءِ حَقِّهِ، وَالخُرُوجِ فِي سَبِيلِهِ، إِلَى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، دُعَاةً إِلَيهِ وَإِلَى دِينِهِ؛ وَأَنْ يُعِيْنَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَإِلى دِيْنِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ مَا قَصَدْنَاهُ فِيْ هَذَا الْكِتَابِ وَفِيْ غَيْرِهِ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ، وَنَصِيحَةً لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يُعِيْذَنَا مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ؛ وَعَلَى اللهِ اعْتِمَادِيْ، وَإِلَيْهِ تَفْوِيْضِيْ وَاسْتِنَادِيْ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ، وَبِهِ التَّوْفِيْقُ وَالْعِصْمَةُ .

كَتَبَهُ الفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ

سليمان زهدي العايدي

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الأَوَّلُ :

بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وَأَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ؛ وَضَرُورَةِ الاجْتِهَادِ فِي الأَحْكَامِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ والْمَكَانِ وَالأَحْوَالِ :

إِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ جُزْئِيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَأَدِلَّتَهَا التَّفْصِيلِيَّةَ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّ الشَّرِيعَةَ مَا وُضِعَتْ إِلَّا لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْمُكَلَّفِينَ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ؛ وَأَنَّهَا وُضِعَتْ لِمَقَاصِدَ وَغَايَاتٍ كُلِّيَّةٍ وَجُزْئِيَّةٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ مُعْتَبَرَةٌ عِندَ اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ مِنَ الأَدِلَّةِ؛ وَأَنَّ هَذَا الأَمْرَ ثَابِتٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَعَلَيهِ دَرَجَ سَلَفُ الأُمَّةِ، مِنَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينِ .

فَلِهَذَا كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ جِدًّا لِلْمُجْتَهِدِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ عِندَ النَّظَرِ فِي الأَدِلَّةِ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، لِاسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ مِنهَا، وَبِخَاصَّةٍ عِندَ الِاجْتِهَادِ فِي مُعَالَجَةِ القَضَايَا وَالْمَسَائِلِ وَالحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ الْمُسْتَجِدَّةِ؛ وَفِي هَذَا تَأْكِيدٌ لِخَاصِّيَّةِ الْمُرُونَةِ وَالشُّمُولِيَّةِ لِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الغَرَّاءِ، وَصَلَاحِيَّتِهَا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَقَبلَ الدُّخُولِ فِي مَوضُوعِ البَحْثِ، وَبَيَانِ التَّأْصِيلِ الشَّرْعِيِّ لِلخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ، بِوَصْفِهِ مَسْأَلَةً حَادِثَةً، وَقَضِيَّةً مُسْتَجِدَّةً، لَيس لَهَا نَظِيرٌ فِيمَا سَبَقَ، بِحَسَبِ الوَصْفِ وَالتَّرْتِيبِ الْمَوْجُودِ عَلَيهِ هَذَا العَمَلُ؛ – أَمَّا أَصْلُ الخُرُوجِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيهِ، فَثَابِتٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَعَلَيهِ إِجْمَاعُ الأُمَّةِ، كَمَا سَيَأْتِيْ؛– قَبْلَ ذَلِكَ أَرَدْتُ أَنْ أُقَدِّمَ بَينَ يَدَيِ البَحْثِ بَعْضَ الْمَبَاحِثِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ هَذَا العَمَلَ الدَّعَوِيَّ العَظِيمَ بِالفِقْهِ الْمَقَاصِدِيِّ، وَبَيَانَ أَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فِي فَهْمِ ضَرُورَةِ هَذَا العَمَلِ وَأَهَمِّيَّتِهِ، وَبَيَانَ حُكْمِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ الخَالِدَةِ، بِاعْتِبَارِهِ وَسِيلَةً مُهِمَّةً، تُؤَدِّيْ إِلَى تَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَصَالِحِ الَّتِي جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ لِتَحْصِيلِهَا وَتَكْمِيلِهَا، وَهِيَ حِفْظُ الدِّينِ وَنَشْرُهُ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي خَمْسَةِ مَبَاحِثَ؛ وَإِلَيكَ التَّفْصِيلَ :

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ :

بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَت لِتَحقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الْمَعَاشِ والْمَعَادِ :

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : الشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وأَنَّهَا تُرَجِّحُ خَيرَ الخَيرَيْنِ وشَرَّ الشَّرَّيْنِ، وتُحَصِّلُ أَعْظَمَ الْمَصْلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا، وتَدْفَعُ أَعْظَمَ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا [(١)]. فَهِيَ تَأْمُرُ بِمَا تَتَرَجَّحُ مَصْلَحَتُهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَفْسَدَةٌ مَرْجُوحَةٌ كَالْجِهَادِ، وَتَنْهَى عَمَّا تَرَجَّحَتْ مَفْسَدَتُهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ مَرْجُوحَةٌ، كَتَنَاوُلِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِ .

وَقَالَ الإِمَامُ العِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَمَنْ تَتَبَّعَ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ، حَصَلَ لَهُ مِنْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ اعْتِقَادٌ أَوْ عِرْفَانٌ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَصْلَحَةَ لَا يَجُوزُ إِهْمَالُهَا، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ لَا يَجُوزُ قُرْبَانُهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِجْمَاعٌ وَلَا نَصٌّ وَلَا قِيَاسٌ خَاصٌّ، فَإِنَّ فَهْمَ نَفْسِ الشَّرْعِ يُوجِبُ ذَلِكَ؛ وَمِثْلُ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ عَاشَرَ إِنْسَانًا مِنَ الْفُضَلَاءِ الْحُكَمَاءِ الْعُقَلَاءِ وَفَهِمَ مَا يُؤْثِرُهُ وَيَكْرَهُهُ فِي كُلِّ وِرْدٍ وَصَدْرٍ، ثُمَّ سَنَحَتْ لَهُ مَصْلَحَةٌ أَوْ مَفْسَدَةٌ لَمْ يَعْرِفْ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ بِمَجْمُوعِ مَا عَهِدَهُ مِنْ طَرِيقَتِهِ وَأَلِفَه مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ يُؤْثِرُ تِلْكَ الْمَصْلَحَةَ، وَيَكْرَهُ تِلْكَ الْمَفْسَدَةَ. وَلَوْ تَتَبَّعْنَا مَقَاصِدَ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَعَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ دِقِّهِ وَجُلِّهِ، وَزَجَرَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ دِقِّهِ وَجُلِّهِ؛ فَإِنَّ الْخَيْرَ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ، وَالشَّرَّ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ جَلْبِ الْمَفَاسِدِ وَدَرْءِ الْمَصَالِحِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧– ٨]، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْخَيْرِ الْخَالِصِ وَالشَّرِّ الْمَحْضِ، وَإِنَّمَا الْإِشْكَالُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ خَيْرَ الْخَيْرَيْنِ وَشَرَّ الشَّرَّيْنِ أَوْ يَعْرِفْ تَرْجِيحَ الْمَصْلَحَةِ عَلَى الْمَفْسَدَةِ، أَوْ تَرْجِيحَ الْمَفْسَدَةِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ، أَوْ جَهِلْنَا الْمَصْلَحَةَ وَالْمَفْسَدَةَ، وَمِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مَا لَا يَعْرِفُ إِلَّا كُلُّ ذِي فَهْمٍ سَلِيمٍ وَطَبْعٍ مُسْتَقِيمٍ، يَعْرِفُ بِهِمَا دِقَّ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَجُلَّهُمَا،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٤٨) .

www.saida-islam.weebly.com

وَأَرْجَحَهُمَا مِنْ مَرْجُوحِهِمَا، وَتَفَاوُتُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ تَفَاوُتِهِمْ فِيمَا ذَكَرْتُهُ، وَقَدْ يَغْفُلُ الْحَاذِقُ الْأَفْضَلُ عَنْ بَعْضِ مَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْأَحْرَقُ الْمَفْضُولُ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ .

وَأَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِلْحَثِّ عَلَى الْمَصَالِحِ كُلِّهَا وَالزَّجْرِ عَنْ الْمَفَاسِدِ بِأَسْرِهَا قَوْله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠]، فَإِنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ فِي الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ لِلْعُمُومِ وَالِاسْتِغْرَاقِ، فَلَا يَبْقَى مِنْ دِقِّ الْعَدْلِ وَجُلِّهِ شَيْءٌ إلَّا انْدَرَجَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾، وَلَا يَبْقَى مِنْ دِقِّ الْإِحْسَانِ وَجُلِّهِ شَيْءٌ إلَّا انْدَرَجَ فِي أَمْرِهِ بِالْإِحْسَانِ، وَالْعَدْلُ : هُوَ التَّسْوِيَةُ وَالْإِنْصَافُ، وَالْإِحْسَانُ : إمَّا جَلْبُ مَصْلَحَةٍ أَوْ دَفْعُ مَفْسَدَةٍ، وَكَذَلِكَ الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عَامَّةٌ مُسْتَغْرِقَةٌ لِأَنْوَاعِ الْفَوَاحِشِ، وَلِمَا يُذْكَرُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ..

(**فَائِدَةٌ**) الْإِحْسَانُ لَا يَخْلُو عَنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ أَوْ عَنْهُمَا، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْعُقْبَى : أَمَّا فِي الْعُقْبَى فَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَالْفُتْيَا وَالْإِعَانَةُ عَلَى جَمِيعِ الطَّاعَاتِ، وَعَلَى دَفْعِ الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ .. [(١)].

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الإِطَارِ : وَالْمُعْتَمَدُ إِنَّمَا هُوَ : أَنَّا اسْتَقْرَيْنَا مِنَ الشَّرِيعَةِ أَنَّهَا وُضِعَتْ لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، .. وَأَمَّا التَّعَالِيلُ لِتَفَاصِيلِ الْأَحْكَامِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى،.. وَإِذَا دَلَّ الِاسْتِقْرَاءُ عَلَى هَذَا، وَكَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مُفِيدًا لِلْعِلْمِ، فَنَحْنُ نَقْطَعُ بِأَنَّ الْأَمْرَ مُسْتَمِرٌّ فِي جَمِيعِ تَفَاصِيلِ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ ثَبَتَ الْقِيَاسُ وَالِاجْتِهَادُ [(٢)] .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الشَّرِيعَةَ الَّتِي بَعَثَ اللهُ بِهَا رَسُولَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَجَدْتَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا شَاهِدَةً بِذَلِكَ نَاطِقَةً بِهِ، وَوَجَدْتَ الْحِكْمَةَ وَالْمَصْلَحَةَ وَالْعَدْلَ

---

(١) «قواعد الأحكام» (١٨٩/٢) .

(٢) «الموافقات» (١٢/٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَالرَّحْمَةَ بَادِيًا عَلَى صَفَحَاتِهَا مُنَادِيًا عَلَيْهَا، يَدْعُو الْعُقُولَ والأَلْبَابَ إِلَيْهَا، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَى أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ مَا يُضَادُّهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي شَرَعَهَا عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ والقَبَائِحِ وَالظُّلْمِ والسَّفَهِ الَّذِي يَتَعَالَى عَنْ إِرَادَتِهِ وشَرْعِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ الْعِبَادُ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا سَعَادَةَ لَهُم بِدُونِهَا أَلْبَتَّةَ [١] .

وَقَدْ بَوَّبَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَاباً بِعُنْوَانِ : «**الشَّرِيعَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ**» ثُمَّ عَقَدَ فَصْلاً، فَقَالَ : «**فَصْلٌ فِي تَغْيِيرِ الْفَتْوَى، وَاخْتِلَافِهَا بِحَسَبِ تَغَيُّرِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَالْأَحْوَالِ وَالنِّيَّاتِ وَالْعَوَائِدِ**» ثُمَّ قَالَ : هَذَا فَصْلٌ عَظِيمُ النَّفْعِ جِدًّا، وَقَعَ بِسَبَبِ الْجَهْلِ بِهِ غَلَطٌ عَظِيمٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، أَوْجَبَ مِنَ الْحَرَجِ وَالْمَشَقَّةِ وَتَكْلِيفِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مَا يُعْلَمُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْبَاهِرَةَ الَّتِي فِي أَعْلَى رُتَبِ الْمَصَالِحِ لَا تَأْتِي بِهِ؛ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنِ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ، وَعَنِ الرَّحْمَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَعَنِ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ إِلَى الْعَبَثِ، فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ، وَحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ وَعَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ ﷺ أَتَمَّ دَلَالَةً وَأَصْدَقَهَا، وَهِيَ نُورُهُ الَّذِي بِهِ أَبْصَرَ الْمُبْصِرُونَ، وَهُدَاهُ الَّذِي بِهِ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَشِفَاؤُهُ التَّامُّ الَّذِي بِهِ دَوَاءُ كُلِّ عَلِيلٍ، وَطَرِيقُهُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي مَنِ اسْتَقَامَ عَلَيْهِ فَقَدْ اسْتَقَامَ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ . فَهِيَ قُرَّةُ الْعُيُونِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ؛ فَهِيَ بِهَا الْحَيَاةُ وَالْغِذَاءُ وَالدَّوَاءُ وَالنُّورُ وَالشِّفَاءُ وَالْعِصْمَةُ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ فَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْهَا، وَحَاصِلٌ بِهَا، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْوُجُودِ فَسَبَبُهُ مِنْ إِضَاعَتِهَا [٢] .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنْ «قَوْلِ الْمَالِكِيَّةِ فِي الْعُرْفِ وَمَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ» : قَالُوا : وَعَلَى هَذَا أَبَدًا تَجِيءُ الْفَتَاوَى فِي طُولِ الْأَيَّامِ، فَمَهْمَا تَجَدَّدَ فِي الْعُرْفِ فَاعْتَبِرْهُ، وَمَهْمَا سَقَطَ فَأَلْغِهِ، وَلَا تَجْمُدْ عَلَى الْمَنْقُولِ فِي الْكُتُبِ طُولَ عُمْرِكَ، بَلْ إِذَا جَاءَكَ رَجُلٌ مِنْ غَيْرِ إِقْلِيمِكَ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٤٠٩) .

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/١١) .

www.saida-islam.weebly.com

يَسْتَفْتِيك فَلَا تُجْرِهِ عَلَى عُرْفِ بَلَدِك، وَسَلْهُ عَنْ عُرْفِ بَلَدِهِ فَأَجْرِهِ عَلَيْهِ وَأَفْتِهِ بِهِ، دُونَ عُرْفِ بَلَدِك وَالْمَذْكُورِ فِي كُتُبِك، قَالُوا : فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الْوَاضِحُ، وَالْجُمُودُ عَلَى الْمَنْقُولَاتِ أَبَدًا ضَلَالٌ فِي الدِّينِ، وَجَهْلٌ بِمَقَاصِدِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالسَّلَفِ الْمَاضِينَ ..

ثُمَّ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَهَذَا مَحْضُ الْفِقْهِ، وَمَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِمُجَرَّدِ الْمَنْقُولِ فِي الْكُتُبِ عَلَى اخْتِلَافِ عُرْفِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَأَزْمِنَتِهِمْ وَأَمْكِنَتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَقَرَائِنِ أَحْوَالِهِمْ فَقَدْ ضَلَّ وَأَضَلَّ، وَكَانَتْ جِنَايَتُهُ عَلَى الدِّينِ أَعْظَمَ مِنْ جِنَايَةِ مَنْ طَبَّبَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ بِلَادِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَأَزْمِنَتِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ بِمَا فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الطِّبِّ عَلَى أَبْدَانِهِمْ، بَلْ هَذَا الطَّبِيبُ الْجَاهِلُ وَهَذَا الْمُفْتِي الْجَاهِلُ أَضَرُّ مَا عَلَى أَدْيَانِ النَّاسِ وَأَبْدَانِهِمْ؛ وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ [١] .

❖❖❖❖❖

(١) «إعلام الموقعين» (٣/٦١) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ[١] لِسَلَامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ :

إِنَّ مَعْرِفَةَ مَقْصُودِ الشَّارِعِ مِنْ سِيَاقِ كَلَامِهِ أَوْ عِبَارَتِهِ لَمِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ فِي الِاجْتِهَادِ؛ حَيثُ إِنَّهَا لَا تَتَأَتَّى ولَا تَنْقَادُ إِلَّا لِمَنْ لَدَيْهِ خِبْرَةٌ سَابِقَةٌ بِمُجْمَلِ مَقَاصِدِهِ، ومَا يُرِيدُهُ ومَا لَا يُرِيدُهُ، ومَا يُقْبَلُ عِنْدَهُ ومَا لَا يُقْبَلُ؛ وهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ الَّذِي سَنَّهُ لَنَا الصَّحَابَةُ ﷺ، كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ ﷺ أَفْهَمَ الْأُمَةِ لِمُرَادِ نَبِيِّهَا وَأَتْبَعَ لَهُ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُدَنْدِنُونَ حَوْلَ مَعْرِفَةِ مُرَادِهِ وَمَقْصُودِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَظْهَرُ لَهُ مُرَادُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَعْدِلُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ**[٢]؛ كَمَا كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي النَّوَازِلِ، ويُقِيمُونَ بَعْضَ الأَحْكَامِ عَلَى بَعْضٍ، ويَعْتَبِرُونَ النَّظِيرَ بِنَظِيرِهِ[٣].

---

(١) المراد ب«مقاصد الشَّريعة» : الأمور التي جاءت الشَّريعة الإسلامية – بل وجميعُ الشَّرائع السَّماوية – بحفظها ومراعاتها، وهي : (١) **حفظ شيء من الضَّروريَّات الخمس**: (الدِّين، والنَّفس، والعقل، والنَّسل، والمال)، والتي هي أُسُسُ العُمْرَانِ الْمَرْعِيَّةُ في كلِّ ملَّة، والَّتي لولاها لم تَجْرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ، ولَفَاتَتِ النَّجاةُ في الآخرة. (٢) **حفظ شيء من الحاجيَّات**؛ كأنواع المعاملات، التي لولا ورودها على الضروريات لوقع النَّاس في الضيق والحرج. (٣) **حفظ شيء من التَّحسينات**، التي ترجع إلى مكارم الخلاق ومحاسن العادات. وإمَّا تكميل نوع من الأنواع الثلاثة بما يُعين على تَحَقُّقِهِ. ولا يخلو بابٌ من أبواب الفقه – عبادات ومعاملات وجنايات وغيرها – من رعاية هذه المصالح، وتحقيق هذه المقاصد، الَّتي لم توضع الأحكام إلَّا لتحقيقها. وهذه المراتب الثَّلاث تتفاوت في درجاتِ تأكُّد الطلب لإقامتها، والنَّهي عن تعدِّي حدودها. «الموافقات» (١/٥) . وقال الإمام الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَمَّا «الْمَصْلَحَةُ» فَهِيَ عِبَارَةٌ فِي الْأَصْلِ عَنْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، وَلَسْنَا نَعْنِي بِهِ ذَلِكَ، فَإِنَّ جَلْبَ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعَ الْمَضَرَّةِ مَقَاصِدُ الْخَلْقِ، وَصَلَاحُ الْخَلْقِ فِي تَحْصِيلِ مَقَاصِدِهِمْ، لَكِنَّا نَعْنِي بِالْمَصْلَحَةِ الْمُحَافَظَةَ عَلَى مَقْصُودِ الشَّرْعِ، وَمَقْصُودُ الشَّرْعِ مِن الْخَلْقِ خَمْسَةٌ : وَهُوَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَنَفْسَهُمْ وَعَقْلَهُمْ وَنَسْلَهُمْ وَمَالَهُمْ، فَكُلُّ مَا يَتَضَمَّنُ حِفْظَ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ فَهُوَ مَصْلَحَةٌ، وَكُلُّ مَا يُفَوِّتُ هَذِهِ الْأُصُولَ فَهُوَ مَفْسَدَةٌ، وَدَفْعُهَا مَصْلَحَةٌ. «المستصفى» ص (١٧٤).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/٢١٩).

(٣) «المصدر السابق» (١/٢٠٣) .

www.saida-islam.weebly.com

وَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ الفَتَاوَى الصَّادِرَةَ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَنَظَرَ إِلَى طُرُقِ اجْتِهَادَاتِهِم، عَلِمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرَاعُونَ الْمَصَالِحَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي عَلِمُوا أَنَّ القَصْدَ مِنَ الشَّرِيعَةِ رِعَايَتُهَا، دُونَ نَكِيرٍ مِنْ أَحَدٍ، فَكَانَ إِجْمَاعاً؛ وَلَقَدْ كَانَتِ الْمَقَاصِدُ سَارِيَةً فِي فِقْهِ الصَّحَابَةِ والفُقَهَاءِ سَرَيَانَ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ، والدَّمِ فِي عُرُوقِهِ، كَيفَ لَا ؟ والْمَقَاصِدُ هِيَ رُوحُ الشَّرِيعَةِ وغَايَتُهَا، كَمَا قَالَ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **المَقَاصِدُ أَرْوَاحُ الأَعْمَالِ** [١].

وقَدْ جَعَلَ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ جوهَرَ التَّجْدِيدِ، وأَسَاسَ الاِجْتِهَادِ، ومِعْيَارَ أَهْلِيَّتِهِ، ومَجْمَعَ شَرَائِطِهِ؛ فَقَالَ : إِنَّمَا تَحْصُلُ دَرَجَةُ الاِجْتِهَادِ لِمَنِ اتَّصَفَ بِوَصْفَيْنِ : **أَحَدُهُمَا** : فَهْمُ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ عَلَى كَمَالِهَا؛ **والثَّانِيْ** : التَّمَكُّنُ مِنَ الاِسْتِنْبَاطِ بِنَاءً عَلَى فَهْمِهِ فِيهَا [٢]. وعَلَى قَدْرِ النَّقْصِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَقَاصِدِ بِمُخْتَلَفِ مُسْتَوَيَاتِهَا، أَوْ عَلَى قَدْرِ النَّقْصِ فِي اسْتِحْضَارِهَا واعْتِبَارِهَا يَكُونُ الخَلَلُ وَالزَّلَلُ فِي الاِجْتِهَادَاتِ وَالاِسْتِنْبَاطَاتِ .

وقَدْ حَذَّرَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ زَلَّةِ العَالِمِ، ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَيهَا مِنْ أَخْطَارٍ وأَضْرَارٍ، قَدْ تَسْتَمِرُّ فِي الأُمَّةِ أَزْمَاناً مُتَطَاوِلَةً، فَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الزَّلَّاتِ : «أَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِنْدَ الغَفْلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ مَقَاصِدِ الشَّرعِ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِيْ اجْتَهَدَ فِيهِ، وَالْوُقُوفِ دُونَ أَقْصَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْبَحْثِ عَنِ النُّصُوصِ فِيهَا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ، وَصَاحِبُهُ مَعْذُورٌ وَمَأْجُورٌ، لَكِنْ مِمَّا يَنْبَغِي عَلَيْهِ فِي الاِتِّبَاعِ لِقَوْلِهِ فِيهِ خَطَرٌ عَظِيمٌ؛ وَقَدْ قَالَ الْغَزَالِيُّ : **إِنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ بِالذَّنْبِ قَدْ تَصِيرُ كَبِيرَةً وَهِيَ فِي نَفْسِهَا صَغِيرَةٌ** . وَذَكَرَ مِنْهَا أَمْثِلَةً، ثُمَّ قَالَ : **فَهَذِهِ ذُنُوبٌ يُتَّبَعُ الْعَالِمُ عَلَيْهَا، فَيَمُوتُ الْعَالِمُ وَيَبْقَى شَرُّهُ مُستَطِيرًا فِي العَالَمِ آمَاداً مُتَطَاوِلَةً، فَطُوبَى لِمَنْ إِذَا مَاتَ مَاتَتْ مَعَهُ ذُنُوبُهُ.** وَهَكَذَا الْحُكْمُ مُسْتَمِرٌّ فِي زَلَّتِهِ فِي الْفُتْيَا مِنْ بَابِ أَوْلَى، فَإِنَّهُ رُبَّمَا خَفِيَ عَلَى الْعَالِمِ بَعْضُ السُّنَّةِ أَوْ بَعْضُ الْمَقَاصِدِ الْعَامَّةِ فِي خُصُوصِ مَسْأَلَتِهِ، فَيُفْضِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ قَوْلُهُ شَرْعًا يُتَقَلَّدُ، وَقَوْلًا يُعْتَبَرُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ، فَرُبَّمَا رَجَعَ

---

(١) «الموافقات» (٣/٤٤) .

(٢) «المصدر السابق» (٥/٤١) .

www.saida-islam.weebly.com

عَنْهُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، فَيَفُوتُهُ تَدَارُكُ مَا سَارَ فِي الْبِلَادِ عَنْهُ، وَيَضِلُّ عَنْهُ تَلَافِيهِ، فَمِنْ هُنَا قَالُوا : **زَلَّةُ الْعَالِمِ مَضْرُوبٌ بِهَا الطَّبْلُ** » [١] .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ العَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **إِنَّ فِي اتِّبَاعِ الظَّاهِرِ عَلَى وَجْهِهِ هَدْمَ الشَّرِيعَةِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ** [٢] .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **ومَا مِثْلُ مَنْ وَقَفَ مَعَ الظَّوَاهِرِ والأَلْفَاظِ، ولَمْ يُرَاعِ المَقَاصِدَ وَالمَعَانِيَ، إِلَّا كَمَثَلِ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ : لَا تُسَلِّمْ عَلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ، فَقَبَّلَ يَدَهُ ورِجْلَهُ، ولَمْ يُسَلِّمْ عَلَيهِ** [٣].

وَقَدْ بَيَّنَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْمَعْنَى مِنَ الأَلْفَاظِ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَأَنَّ اللَّفْظَ وَسِيلَةٌ؛ وَقَالَ: هُوَ قَوْلُ أَئِمَّةِ الْفَتْوَى مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ قَالَ عَنْ «فِقْهِ الْمَقَاصِدِ» : وَهَذَا هُوَ الْفِقْهُ الْحَيُّ، الَّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْقُلُوبِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ [٤] .

وقَالَ الإِمَامُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَقَاصِدُ الشَّرْعِ قِبْلَةُ الْمُجْتَهِدِينَ، مَنْ تَوَجَّهَ إِلَى جِهَةٍ مِنْهَا أَصَابَ الحَقَّ[٥]. كَمَا اشْتَرَطَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَكُونَ شَدِيدَ البَحْثِ عَنْ أَسْرَارِ الأَعْمَالِ والأَقْوَالِ، فَإِنَّهُ إِنِ اكْتَفَى بِحِفْظِ مَا يُقَالُ كَانَ وِعَاءً لِلْعِلْمِ، ولَا يَكُونُ عَالِمًا؛ ولِذَلِكَ كَانَ يُقَالُ : فُلَانٌ مِنْ أَوْعِيَةِ العِلْمِ، فَلَا يُسَمَّى عَالِمًا إِذَا كَانَ شَأْنُهُ الحِفْظَ مِنْ غَيرِ اطِّلَاعٍ عَلَى الحِكَمِ والأَسْرَارِ .

وتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ فِقْهِ الْمَقَاصِدِ وأَثَرُهُ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ والاِسْتِنْبَاطِ مِنْهَا، فِي أَنَّ إِرَادَةَ الْمُتَكَلِّمِ وقَصْدَهُ فِي كَلَامِهِ هُوَ الحَكَمُ الأَوَّلُ والأَخِيرُ فِي تَحْدِيدِ مَعْنَى أَيِّ لَفْظٍ أَوْ عِبَارَةٍ، كَمَا

---

(١) «الموافقات» (٥/١٣٥-١٣٦) .

(٢) «أحكام القرآن» (١/٢٩).

(٣) «إعلام الموقعين» (٤/٥٢٧).

(٤) «المصدر السابق» (٣/٥٥) . وذلك في فَصْلٍ «اعْتِبَارِ النِّيَّات والْمَقَاصِدِ في الأَلْفَاظِ».

(٥) «الرد على من أخلد إلى الأرض» ص (١٨٢) .

www.saida-islam.weebly.com

قَالَ الآمِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **دَلَالَاتُ الأَلْفَاظِ عَلَى المَعَانِيْ لَيسَتْ لِذَوَاتِهَا،.. وإِنَّمَا دَلَالَاتُهَا تَابِعَةٌ لِمَقْصَدِ المُتَكَلِّمِ وإِرَادَتِهِ** [١] .

فَالِالْتِفَاتُ إِلَى فِقْهِ الْمَقَاصِدِ يُسَاعِدُ عَلَى تَجَاوُزِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَزَالِقِ الَّتِي قَدْ يَقَعُ فِيهَا بَعْضُ الفُقَهَاءِ والْمُجْتَهِدِينَ أَوْ طَلَبَةِ العِلْمِ، حِينَ يَقْصُرُونَ نَظَرَهُم عَلَى دَلِيلٍ جُزْئِيٍّ شَرْعِيٍّ، غَيرَ مُلْتَفِتِينَ إِلَى مَوْقِعِهِ فِي سِيَاقِهِ العَامِّ مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ ومَقَاصِدِهَا العَامَّةِ، ومَا قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَى تَنْزِيلِهِ فِي الوَاقِعِ بِالكَيْفِيَّةِ الَّتِي ارْتَأَوْهَا غَيرَ عَابِئِينَ بِالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ والْمَفَاسِدِ، الَّذِي هُوَ ثَمَرَةٌ لِفِقْهِ الْمَقَاصِدِ، وَالَّذِي هُوَ فِي الحَقِيقَةِ لُبُّ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ ورُوْحُهَا، وحَقِيقَتُهَا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الأَحْدَاثِ والوَقَائِعِ والْمُسْتَجِدَّاتِ فِي الحَيَاةِ بِبَصِيرَةٍ وهُدىً وفِقْهٍ وعَقْلٍ [٢] .

❖❖❖❖❖

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» (٢/٣١٥) .

(٢) «المختصر الوجيز في مقاصد التشريع لعوض القرشي» ص (١٣) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ :

تَقْسِيمُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَحكَامَ الشَّرِيعَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ : أَحكَامٍ تَعَبُّدِيَّةٍ تَوْقِيفِيَّةٍ، لا يُلْتَفَتُ فِيهَا إِلَى الْمَعَانِي، ولا تَتَغَيَّرُ عَن حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وأَحكَامٍ مَبنِيَّةٍ عَلَى تَحقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وهَذِهِ تَتَغَيَّرُ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الْمَصْلَحَةِ لَهَا زَمَاناً ومَكَاناً وحالاً:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : الأَحْكَامُ نَوعَانِ :

النَّوعُ الأَوَّلُ : نَوعٌ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ هُوَ عَلَيهَا، لَا بِحَسْبِ الأَزْمِنَةِ، ولَا الأَمْكِنَةِ ولَا اجْتِهَادِ الأَئِمَّةِ، كَوُجُوبِ الوَاجِبَاتِ، وتَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالحُدُودِ الْمُقَدَّرَةِ بِالشَّرْعِ عَلَى الجَرَائِمِ ونَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيهِ اجْتِهَادٌ يُخَالِفُ مَا وُضِعَ عَلَيهِ .

وَالنَّوعُ الثَّانِي : مَا يَتَغَيَّرُ بِحَسْبِ اقْتِضَاءِ الْمَصْلَحَةِ لَهُ زَمَانًا ومَكَانًا وحَالًا، كَمَقَادِيرِ التَّعْزِيرَاتِ وأَجْنَاسِهَا وصِفَاتِهَا، فَإِنَّ الشَّارِعَ يُنَوِّعُ فِيهَا بِحَسْبِ الْمَصْلَحَةِ [(١)]. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّاطِبِيِّ أَنَّ وَسَائِلَ حِفْظِ الدِّينِ وَتَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ وَتَبْلِيغِهِ مِنْ هَذَا النَّوعِ الْمُتَغَيِّرِ بِحَسْبِ الْمَصْلَحَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالزَّمَانِ والْمَكَانِ والأَحْوَالِ [(٢)] .

وَيَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الأَصْلُ فِي الْعِبَادَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُكَلَّفِ التَّعَبُّدُ دُوْنَ الاِلْتِفَاتِ إِلَى الْمَعَانِيْ، وَأَصْلُ الْعَادَاتِ الاِلْتِفَاتُ إِلى الْمَعَانِيْ [(٣)].. وَالتَّعَبُّدُ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ مَعْقُولِيَّةِ الْمَعْنَى، وَبِحَيْثُ لَا يَصِحُّ فِيهِ إِجْرَاءُ الْقِيَاسِ، وَإِذَا لَمْ يُعْقَلْ مَعْنَاهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَصْدَ الشَّارِعِ فِيهِ الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا حَدَّهُ لَا يَتَعَدَّى؛ كَأَعْدَادِ الرَّكَعَاتِ، وَنُصُبِ الزَّكَوَاتِ، وَمَقَادِيرِ الْحُدُودِ وَالْكَفَّارَاتِ [(٤)].

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم» (١/٣٣١) .

(٢) انظر كلام الشاطبي في هذا النوع ص (٣٤ – ٣٥) .

(٣) «الموافقات للشاطبي» (٢/٥١٣) .

(٤) «المصدر السابق» (٢/٥٣٩) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا الْعَادِيَّاتُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ أَيْضًا، فَلَهَا مَعْنًى مَفْهُومٌ، وَهُوَ ضَبْطُ وُجُوهِ الْمَصَالِحِ .. فَالأَصْلُ فِي الْعَادَاتِ الاِلْتِفَاتُ إِلى الْمَعَانِيْ؛ وَذَلِكَ لِأُمُورٍ :

أَوَّلُهَا : الاِسْتِقْرَاءُ، فَإِنَّا وَجَدْنَا الشَّارِعَ قَاصِدًا لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَالْأَحْكَامُ الْعَادِيَّةُ تَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ، فَتَرَى الشَّيْءَ الْوَاحِدَ يُمْنَعُ فِي حَالٍ لَا تَكُونُ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، فَإِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ جَازَ، .. وهَذَا جَمِيعُهُ يُشِيرُ بَلْ يُصَرِّحُ بِاعْتِبَارِ الْمَصَالِحِ لِلْعِبَادِ، وَأَنَّ الْإِذْنَ دَائِرٌ مَعَهَا أَيْنَمَا دَارَتْ، حَسْبَمَا بَيَّنَتْهُ مَسَالِكُ الْعِلَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَادَاتِ مِمَّا اعْتَمَدَ الشَّارِعُ فِيهَا الاِلْتِفَاتَ إِلَى الْمَعَانِي.

وَالثَّانِي : أَنَّ الشَّارِعَ تَوَسَّعَ فِي بَيَانِ الْعِلَلِ وَالْحِكَمِ فِي تَشْرِيعِ بَابِ الْعَادَاتِ.، وَأَكْثَرُ مَا عَلَّلَ فِيهَا بِالْمُنَاسِبِ الَّذِي إِذَا عُرِضَ عَلَى الْعُقُولِ تَلَقَّتْهُ بِالْقَبُولِ، فَفَهِمْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الشَّارِعَ قَصَدَ فِيهَا اتِّبَاعَ الْمَعَانِي، لَا الْوُقُوف مَعَ النُّصُوصِ، بِخِلَافِ بَابِ الْعِبَادَاتِ، فَإِنَّ الْمَعْلُومَ فِيهِ خِلَافُ ذَلِكَ، وَقَدْ تَوَسَّعَ فِي هَذَا الْقِسْمِ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بِقَاعِدَةِ «الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ»، وَقَالَ فِيهِ بِـ«الاِسْتِحْسَانِ»، ونُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : **إِنَّهُ تِسْعَةُ أَعْشَارِ الْعِلْمِ** .

وَالثَّالِثُ : إِنَّ الاِلْتِفَاتَ إِلَى الْمَعَانِي قَدْ كَانَ مَعْلُومًا فِي الْفَتَرَاتِ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ، حَتَّى جَرَتْ بِذَلِكَ مَصَالِحُهُمْ، وَأَعْمَلُوا كُلِّيَّاتِهَا عَلَى الْجُمْلَةِ، فَاطَّرَدَتْ لَهُمْ،. إِلَّا أَنَّهُمْ قَصَّرُوا فِي جُمْلَةٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ، فَجَاءَتِ الشَّرِيعَةُ لِتُتِمَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَشْرُوعَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ جَاءَتْ مُتَمِّمَةً لِجَرَيَانِ التَّفَاصِيلِ فِي الْعَادَاتِ عَلَى أُصُولِهَا الْمَعْهُودَاتِ، وَمِنْ هَهُنَا أَقَرَّتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي جَرَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كَالدِّيَةِ، وَالْقِسَامَةِ، وَالاِجْتِمَاعِ يَوْمَ الْعَرُوبَةِ – وَهِيَ الْجُمْعَةُ – لِلْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ، وَالْقِرَاضِ، وَكُسْوَةِ الْكَعْبَةِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مَحْمُودًا، وَمَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الْعَوَائِدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّمَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّعَبُّدَاتِ الصَّحِيحَةِ فِي الْإِسْلَامِ أُمُورٌ نَادِرَةٌ مَأْخُوذَةٌ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [(١)] .

---

(١) «المصدر السابق» (٢/٥٢٠ – ٥٢٤) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ :

بَيَانُ ضَرُورَةِ الاجْتِهَادِ فِي «الحَوَادِثِ الَّتِي لا نَصَّ عَلَيهَا»، وأَنَّ هَذَا الاجْتِهَادَ لا يَتَعَارَضُ مَعَ كَمَالِ الدِّينِ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى كَمَالِهِ وشُمُولِيَّتِهِ وصَلاحِيَّتِهِ لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وحَالٍ؛ وبَيَانُ اعْتِمَادِ هَذَا الاجْتِهَادِ عَلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ونُصُوصِهَا العَامَّةِ الكُلِّيَّةِ؛ وأَنَّ كُلَّ حَادِثَةٍ لَيسَ فِيهَا نَصٌّ يَشْمَلُهَا حُكْمُهُ الخَاصُّ، فَحُكْمُهَا إِلَى القِيَاسِ والْمِيزَانِ الْمَصْلَحِيَّيْنِ :

«**الحَوَادِثُ الَّتِي لَا نَصَّ عَلَيهَا**» هِيَ : القَضَايَا والوَقَائِعُ والتَّصَرُّفَاتُ والأَشْيَاءُ الَّتِي لَمْ يَرِدْ فِي حُكْمِهَا نَصٌّ خَاصٌّ، وأَيْضاً لَيسَ لَهَا نَظِيرٌ مُطَابِقٌ مَنْصُوصٌ عَلَى حُكْمِهِ، بِحَيْثُ تَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ وحُكْمِهِ؛ وهِيَ عَلَى نَوعَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أُمُورٌ جَدِيدَةٌ لَا ذِكْرَ لَهَا فِي النُّصُوصِ أَصْلاً .

والآخَرُ : أُمُورٌ مُخْتَلِفَةٌ اخْتِلَافاً كَبِيراً وجَوهَرِياً عَمَّا وَرَدَ حُكْمُهُ فِي النُّصُوصِ .

ويَدْخُلُ هُنَا كَثِيرٌ مِنَ التَّطَوُّرَاتِ الحَدِيثَةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الْمُعَامَلَاتُ الْمَالِيَّةُ، والقَضَايَا الِاقْتِصَادِيَّةُ والأَنْظِمَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ؛ كَمَا يَدْخُلُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ القَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ والعَسْكَرِيَّةِ، الدَّاخِلِيَّةِ والدُّوَلِيَّةِ؛ وأَيضاً يَدْخُلُ فِيهَا الوَسَائِلُ الحَدِيثَةُ لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ وإِقَامَةِ الدِّينِ؛ وهَذَا هُوَ أَوْسَعُ الْمَجَالَاتِ وأَخْوَجُهَا إِلَى الِاعْتِمَادِ عَلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ونُصُوصِهَا العَامَّةِ الكُلِّيَّةِ عِندَ أَيِّ نَظَرٍ فِيهِ أَوِ اجْتِهَادٍ لَهُ . وفِي هَذَا النَّحْوِ أَثْبَتَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ حُجِّيَّةَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وفِيهِ أَيْضاً قَالَ الأَئِمَّةُ بِمُرَاعَاةِ الكُلِّيَّاتِ الشَّرْعِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ، وأَلْحَقُوا بِهَا الحَاجِيَّةَ والتَّحْسِينِيَّةَ، وسَمَّوْا الجَمِيعَ بِـ«الْمُنَاسِبِ». وهَكَذَا يُقَالُ فِي جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْمَصَالِحِ، الَّتِي عُلِمَ قَصْدُ الشَّارِعِ إِلَى جَلْبِهَا وحِفْظِهَا؛ وفِي جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْمَفَاسِدِ الَّتِي عُلِمَ قَصْدُ الشَّارِعِ إِلَى إِبْطَالِهَا ودَرْئِهَا .

www.saida-islam.weebly.com

فَأَيُّمَا مَسْأَلَةٍ لَيسَ فِيهَا نَصٌّ يَشْمَلُهَا حُكْمُهُ الخَاصُّ، فَحُكْمُهَا إِلَى القِيَاسِ الْمَصْلَحِيِّ والْمِيزَانِ الْمَصْلَحِيِّ؛ وهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ : **كُلَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ شَرعِيَّةٌ مُحَقَّقَةٌ ورَاجِحَةٌ فَهُوَ مَشرُوعٌ، ويَجِبُ الحُكمُ بِمُقتَضَى مَشرُوعِيَّتِهِ ومَصلَحِيَّتِهِ : إِمَّا بِالنَّدبِ، إِنْ كَانَ مِنَ التَّحْسِينَاتِ، وإِمَّا بِالنَّدْبِ أَوِ الوُجُوبِ، إِنْ كَانَ مِنَ الحَاجِيَّاتِ، وإِمَّا بِالوُجُوبِ حَتْماً إِنْ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ؛ والوُجُوبُ هُنَا قَدْ يَكُونُ عَينِيّاً، وقَدْ يَكُونُ كِفَائِيّاً؛** ويَقْتَضِي أَيْضاً أَنَّ: كُلَّ مَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ ومَضَرَّةٌ فَهُوَ مَمْنُوعٌ غَيرُ مَحْمُودٍ شَرعاً، إِمَّا عَلَى وَجْهِ الكَرَاهَةِ، إِنْ كَانَ ضَرَرُهُ يُصِيبُ التَّحْسِينَاتِ، وإِمَّا عَلَى وَجْهِ الكَرَاهَةِ الشَّدِيدَةِ أَوِ التَّحْرِيمِ، إِنْ كَانَ ضَرَرُهُ يُصِيبُ الحَاجِيَّاتِ، وإِمَّا عَلَى وَجْهِ التَّحْرِيمِ، إِنْ كَانَ ضَرَرُهُ يُصِيبُ الضَّرُورِيَّاتِ .

وفِي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ القَرَافِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : اعْلَمْ أَنَّ الْأَوَامِرَ تَتْبَعُ الْمَصَالِحَ، كَمَا أَنَّ النَّوَاهِيَ تَتْبَعُ الْمَفَاسِدَ، وَالْمَصْلَحَةُ إِنْ كَانَتْ فِي أَدْنَى الرُّتَبِ كَانَ الْمُرَتَّبُ عَلَيْهَا النَّدْبَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْلَى الرُّتَبِ كَانَ الْمُرَتَّبُ عَلَيْهَا الْوُجُوبَ، ثُمَّ إِنَّ الْمَصْلَحَةَ تَتَرَقَّى وَيَرْتَقِي النَّدْبُ بِارْتِقَائِهَا حَتَّى يَكُونَ أَعْلَى مَرَاتِبِ النَّدْبِ يَلِي أَدْنَى مَرَاتِبِ الْوُجُوبِ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي الْمَفْسَدَةِ التَّقْسِيمُ بِجُمْلَتِهِ، وَتَرْتَقِي الْكَرَاهَةُ بِارْتِقَاءِ الْمَفْسَدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَكْرُوهِ يَلِي أَدْنَى مَرَاتِبِ التَّحْرِيمِ. وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ لَمْ يَجْعَلْ صَاحِبُ الشَّرْعِ شَيْئًا سَبَبَ وُجُوبِ فِعْلٍ عَلَى الْمُكَلَّفِ إِلَّا وَذَلِكَ السَّبَبُ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَصْلَحَةٍ تُنَاسِبُ الْوُجُوبَ، فَإِنْ قَصُرَتْ عَنْ ذَلِكَ جَعَلَهَا سَبَبَ النَّدْبِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي أَسْبَابِ التَّحْرِيمِ وَالْكَرَاهَةِ؛ فَبَذْلُ الرَّغِيفِ لِلْجَوْعَانِ الْمُشْرِفِ عَلَى الْهَلَاكِ وَاجِبٌ؛ وَسَبَبُ الْوُجُوبِ الضَّرُورَةُ، وَهَذَا السَّبَبُ مُشْتَمِلٌ عَلَى حِفْظِ حَيَاتِهِ، وَهِيَ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ تَصْلُحُ لِلْوُجُوبِ، وَبَذْلُ الرَّغِيفِ لِمَنْ يَتَوَسَّعُ بِهِ عَلَى عَائِلَتِهِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، وَسَبَبُ هَذَا النَّدْبِ التَّوْسِعَةُ دُونَ دَفْعِ ضَرُورَةٍ، فَلَمْ تَقْتَضِ التَّوْسِعَةُ الْوُجُوبَ لِقُصُورِ مَصْلَحَتِهَا، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي بَقِيَّةِ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ فِي بَابِ الْأَوَامِرِ وَفِي بَابِ النَّوَاهِي [(١)] .

---

(١) «الفروق» (٣/٩٤) .

www.saida-islam.weebly.com

ومَعْنَى هَذَا أَنَّ الِاجْتِهَادَ الْمَصْلَحِيَّ يَسْتَلْزِمُ الدِّرَايَةَ العَالِيَةَ بِالْمَصَالِحِ والْمَفَاسِدِ، وأَصْنَافِهَا ومَرَاتِبِهَا : (١) مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظرِيَّةِ الْمَبدَئِيَّةِ؛ (٢) وفِي حَالَتِهَا الوَاقِعِيَّةِ التَّطبِيقِيَّةِ .

وهَذَا يَقُودُنَا إِلَى اسْتِحْضَارِ مَا قَالَهُ الشَّاطِبِيُّ، مِنْ أَنَّ الِاجْتِهَادَ إِذَا تَعَلَّقَ بِتَقْدِيرِ الْمَصَالِحِ والْمَفَاسِدِ خَاصَّةً، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى وبِصِفَةٍ خَاصَّةٍ إِلَى العِلْمِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ جُمْلَةً وتَفْصِيلاً، ولَا يَضُرُّ فِي هَذِهِ الحَالَةِ الجَهلُ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الِاجْتِهَادُ إِنْ تَعَلَّقَ بِالِاسْتِنْبَاطِ مِنَ النُّصُوصِ، فَلَا بُدَّ مِنَ اشْتِرَاطِ الْعِلْمِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِنْ تَعَلَّقَ بِالْمَعَانِي مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مُجَرَّدَةً عَنِ اقْتِضَاءِ النُّصُوصِ لَهَا، أَوْ مُسَلَّمَةً مِنْ صَاحِبِ الِاجْتِهَادِ فِي النُّصُوصِ؛ فَلَا يَلْزَمُ فِي ذَلِكَ الْعِلْمُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُ الْعِلْمُ بِمَقَاصِدِ الشَّرْعِ مِنَ الشَّرِيعَةِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا خَاصَّةً. ثُمَّ قَالَ مُعَلِّلاً ذَلِكَ : وأَمَّا الْمَعَانِي مجرَّدةً؛ فَالْعُقَلَاءُ مُشْتَرِكُونَ فِي فَهْمِهَا، فَلَا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ لِسَانٌ دُونَ غَيرِهِ، فَإِذَنْ مَنْ فَهِمَ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ مِنْ وَضْعِ الْأَحْكَامِ، وَبَلَغَ فِيهَا رُتْبَةَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَوْ كَانَ فَهْمُهُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ التَّرْجَمَةِ بِاللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ؛ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ فَهِمَهَا مِنْ طَرِيقِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَلِذَلِكَ يُوقِعُ الْمُجْتَهِدُونَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى الْوَقَائِعِ الْقَوْلِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ، ويَعْتَبِرُونَ الْمَعَانِيَ، ولا يَعْتَبِرُونَ الْأَلْفَاظَ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّوَازِلِ [(١)] .

عَلَى أَنَّ الحَدَّ – أَيِ السَّقْفَ – الَّذِي يَقِفُ عِندَهُ اتِّبَاعُ الِاسْتِنْبَاطِ الْمَصْلَحِيِّ الْمُسْتَمَدِّ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، هُوَ التَّصَادُمُ مَعَ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ الجُوَينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **إِذَا وَجَدْنَا أَصْلاً اسْتَنْبَطْنَا مِنهُ مَعنًى مُنَاسباً للحُكْم، فيَكفِي فِيهِ أَلَّا يُنَاقِضَهُ أَصلٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ، ويَكفِي في الضَّبطِ فِيهِ اسْتِنَادُهُ إِلَى أَصْلٍ مُتَّفِقِ الحُكْمِ، ومَرجُوعُنَا في ذَلِكَ وُجْدَانُنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسترسِلِينَ في اسْتِنْبَاطِ المَصَالِحِ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ غَيرِ تَوَقُّعٍ وُقُوفٍ عِندَ بَعضِهَا** [(٢)].

---

(١) «الموافقات» (٥/١٢٤) .

(٢) «البرهان في أصول الفقه» (٢/٢٠٥) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْقَاعِدَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي أَمْثَالِ هَذَا التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، فَمَا كَانَ مِنَ الْعِبَادَاتِ : لَا يُكْتَفَى فِيهِ بِعَدَمِ الْمُنَافَاةِ دُونَ أَنْ تَظْهَرَ الْمُلَاءَمَةُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهَا التَّعَبُّدُ دُونَ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْمَعَانِي، وَالْأَصْلَ فِيهَا أَنْ لَا يُقْدِمَ عَلَيْهَا إِلَّا بِإِذْنٍ؛ إِذْ لَا مَجَالَ لِلْعُقُولِ فِي اخْتِرَاعِ التَّعَبُّدَاتِ؛ فَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الشُّرُوطِ؛ وَمَا كَانَ مِنَ الْعَادِيَّاتِ : يُكْتَفَى فِيهِ بِعَدَمِ الْمُنَافَاةِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهَا الِالْتِفَاتُ إِلَى الْمَعَانِي دُونَ التَّعَبُّدِ، وَالْأَصْلَ فِيهَا الْإِذْنُ حَتَّى يَدُلَّ الدَّلِيلُ عَلَى خِلَافِهِ، واللهُ أَعْلَمُ [١]. وَكَمَا قَالَ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِذَا عَرَفَ مَقْصُودَ الشَّرِيعَةِ سَلَكَ فِي حُصُولِهِ أَوْصَلَ الطُّرُقِ إِلَيْهِ [٢][٣] .

قُلْتُ : وفي هَذَا البَابِ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ حَجْمِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الفِعْلِ، فَقَدْ يُرَافِقُ تَحْقِيقَ الْمَصَالِحِ الشَّرْعِيَّةِ بَعْضُ الْمَفَاسِدِ اللَّازِمَةِ، وَالَّتِي لَا تَنْفَكُّ عَنهَا، فَلَا يَنْبَغِي إِلْغَاءُ هَذِهِ الْمَصَالِحِ إِذَا غَلَبَتْ عَلَى الْمَفَاسِدِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **قَدْ تَكُونُ الْمَفْسَدَةُ مِمَّا يُلْغَى مِثْلُهَا فِي جَانِبِ عِظَمِ الْمَصْلَحَةِ، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّفَقَ عَلَى تَرجِيحِ الْمَصْلَحَةِ عَلَيهِ** [٤]. وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **تَرْكُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ الْغَالِبِ لأَجْلِ الشَّرِّ الْقَلِيلِ الْمَغْلُوبِ شَرٌّ كَثِيرٌ**[٥]. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : وَهَلْ فِي الْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ تَعْطِيلُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ لأَجْلِ شَرٍّ جُزْئِيٍّ يَكُونُ مِنْ لَوَازِمِهِ ؟ فَهَذَا الْغَيثُ الَّذِي يُحْيِي اللهُ بِهِ الْبِلادَ والْعِبَادَ وَالشَّجَرَ والدَّوَابَّ، كَمْ يَحْبِسُ مِنْ مُسَافِرٍ، وَيَمْنَعُ مِنْ قَصَّارٍ، وَيَهْدِمُ مِنْ بِنَاءٍ وَيَعُوقُ مِنْ مَصْلَحِةٍ ؟ وَلَكِنْ أَيْنَ هَذَا مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْمَصَالِحِ ؟ وَهَلْ هَذِهِ الْمَفَاسِدُ فِي جَنْبِ مَصَالِحِهِ إِلاَّ كَتَفْلَةٍ فِي بَحْرٍ؟ وَهَلْ تَعْطِيلُهُ لِئَلاَّ تَحْصُلَ بِهِ هَذِهِ الْمَفَاسِدُ إِلاَّ مُوجِباً لأَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ وَالْهَلاكِ ؟ وَهَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ وَإِنْضَاجِ ثِمَارِهِم وَأَقْوَاتِهِم وَتَرْبِيَةِ أَبْدَانِهِم

---

(١) «الموافقات» (١/٤٤٠) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٧) .

(٣) «المقاصد الشرعية ودورها في استنباط الأحكام للدكتور أحمد الريسوني» باختصار وتصرف . منشور في العدد (١٢٨) من مجلة المسلم المعاصر .

(٤) «الموافقات» (٣/٩٦) .

(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٦٧) .

www.saida-islam.weebly.com

وَأَبْدَانِ الْحَيَوَانَاتِ وَالطَّيرِ، وَفِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ مَا فِيهَا، كَمْ تُؤْذِي مُسَافِراً وغَيرَهُ بِحَرِّهَا؟ وَكَمْ تُجَفِّفُ رُطُوبَةً ؟ وَكَمْ تُعَطِّشُ حَيَوَاناً ؟ وَكَمْ تَحْبِسُ عَنْ مَصْلَحَةٍ ؟ وَكَمْ تُنَشِّفُ مِنْ مَوردٍ وتُحْرِقُ مِنْ زَرعْ ؟ وَلَكِنْ أَيْنَ يَقَعُ هَذَا فِي جَنْبِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُكَمِّلَةِ ؟ فَتَعْطِيلُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ لأَجْلِ الشَّرِّ اليَسِيرِ شَرٌّ كَبِيرٌ، وَهُوَ خِلافُ مُوجَبِ الحِكْمَةِ الَّتِي تَنَزَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنهُ [(١)] .

قُلْتُ : وَالقَولُ بِضَرُورَةِ العَمَلِ بِالْمِيزَانِ الْمَصْلَحِيِّ لَا يُعَارِضُ كَمَالَ الدِّينِ، بَلْ يُوَافِقُهُ وَيُؤَيِّدُهُ؛ كَمَا قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْرِضِ بَيَانِهِ عَنْ كَمَالِ الدِّينِ : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الشَّرِيعَةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ فِي تَكَالِيفِهِمُ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا، وَتَعَبُّدَاتِهِمُ الَّتِي طَوَّقُوهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَلَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَمُلَ الدِّينُ بِشَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فَكُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بَقِيَ فِي الدِّينِ شَيْءٌ لَمْ يَكْمُلْ فَقَدْ كَذَّبَ بِقَوْلِهِ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. وَلَا يُقَالُ : قَدْ وَجَدْنَا مِنَ النَّوَازِلِ وَالْوَقَائِعِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ نَصٌّ عَلَيْهِ، وَلَا عُمُومٌ يَنْتَظِمُهُ، كَمَسَائِلِ الْجَدِّ فِي الْفَرَائِضِ، وَالْحَرَامِ فِي الطَّلَاقِ، وَمَسْأَلَةِ السَّاقِطِ عَلَى جَرِيحٍ مَخْفُوفٍ بِجَرْحَى، وَسَائِرِ الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا مِنْ كِتَابٍ وَلا سُنَّةٍ، فَأَيْنَ الكَمَالُ فِيهَا ؟ لِأَنَّا نَقُولُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ إِنِ اعْتُبِرَتْ فِيهَا الْجُزْئِيَّاتُ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالنَّوَازِلِ فَهُوَ كَمَا أَوْرَدْتُمْ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ كُلِّيَّاتُهَا؛ فَلَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ قَاعِدَةٌ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الضَّرُورِيَّاتِ وَالْحَاجِيَّاتِ أَوِ التَّكْمِيلِيَّاتِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَتْ غَايَةَ الْبَيَانِ، نَعَمْ يَبْقَى تَنْزِيلُ الْجُزْئِيَّاتِ عَلَى تِلْكَ الْكُلِّيَّاتِ مَوْكُولًا إِلَى نَظَرِ الْمُجْتَهِدِ، فَإِنَّ قَاعِدَةَ الِاجْتِهَادِ أَيْضًا ثَابِتَةٌ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِعْمَالِهَا، وَلَا يَسَعُ تَرْكُهَا؛ وإِذَا ثَبَتَتْ فِي الشَّرِيعَةِ أَشْعَرَتْ بِأَنَّ ثَمَّ مَجَالًا لِلِاجْتِهَادِ، وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْكَمَالَ بِحَسَبِ تَحْصِيلِ الْجُزْئِيَّاتِ بِالْفِعْلِ، فَالْجُزْئِيَّاتُ لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَلَا تَنْحَصِرُ بِمَرْسُومٍ، وَقَدْ نَصَّ

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/٢١٣، ٢١٤) .

www.saida-islam.weebly.com

الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّمَا **الْمُرَادُ : الْكَمَالُ بِحَسَبِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيهِ مِنَ القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ النَّوَازِلِ** .. فَظَاهِرٌ إِذْ ذَاكَ أَنَّ الآيَةَ عَلَى عُمُومِهَا وإِطْلَاقِهَا صَحِيحَةٌ، وَأَنَّ النَّوَازِلَ الَّتِي لَا عَهْدَ بِهَا لَا تُؤَثِّرُ فِي صِحَّةِ هَذَا الْكَمَالِ، لِأَنَّهَا : إِمَّا مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا، وَإِمَّا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا :

فَإِنْ كَانَتْ مُحْتَاجاً إِلَيهَا : فَهِيَ مَسَائِلُ الِاجْتِهَادِ الْجَارِيَةُ عَلَى الْأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ، فَأَحْكَامُهَا قَدْ تَقَدَّمَتْ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا نَظَرُ الْمُجْتَهِدِ إِلَى أَيِّ دَلِيلٍ تَسْتَنِدُ خَاصَّةً .

وإِمَّا غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا : فَهِيَ الْبِدَعُ الْمُحْدَثَاتُ، إِذْ لَوْ كَانَتْ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا لَمَا سُكِتَ عَنْهَا فِي الشَّرْعِ، لَكِنَّهَا مَسْكُوتٌ عَنْهَا بِالْفَرْضِ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَلَيْسَتْ بِمُحْتَاجٍ إِلَيْهَا، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ قَدْ كَمُلَ الدِّينُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ [(١)] .

ويَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : سُكُوتُ الشَّارِعِ عَنِ الْحُكْمِ فِي مَسْأَلَةٍ، أَوْ تَرْكُهُ لِأَمْرٍ مَا عَلَى ضَرْبَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ يَسْكُتَ عَنْهُ أَوْ يَتْرُكَهُ، لِأَنَّهُ لَا دَاعِيَةَ لَهُ تَقْتَضِيهِ، وَلَا مُوجِبَ يُقَرَّرُ لِأَجْلِهِ، وَلَا وَقَعَ سَبَبُ تَقْرِيرِهِ؛ كَالنَّوَازِلِ الْحَادِثَةِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً ثُمَّ سَكَتَ عَنْهَا مَعَ وُجُودِهَا، وَإِنَّمَا حَدَثَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاحْتَاجَ أَهْلُ الشَّرِيعَةِ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا وَإِجْرَائِهَا عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي الْكُلِّيَّاتِ الَّتِي كَمُلَ بِهَا الدِّينُ .

وَإِلَى هَذَا الضَّرْبِ يَرْجِعُ جَمِيعُ مَا نَظَرَ فِيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِمَّا لَمْ يَسُنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْخُصُوصِ مِمَّا هُوَ مَعْقُولُ الْمَعْنَى؛ كَتَضْمِينِ الصُّنَّاعِ، وَمَسْأَلَةِ الْحَرَامِ، وَالْجَدِّ مَعَ الْإِخْوَةِ، وَعَوْلِ الْفَرَائِضِ، وَمِنْهُ جَمْعُ الْمُصْحَفِ، ثُمَّ تَدْوِينُ الشَّرَائِعِ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَحْتَجْ فِي زَمَانِهِ ﷺ إِلَى تَقْرِيرِهِ، لِتَقْدِيمِ كُلِّيَّاتِهِ الَّتِي تُسْتَنْبَطُ بِهَا مِنْهَا، إِذَا لَمْ تَقَعْ أَسْبَابُ الْحُكْمِ فِيهَا، وَلَا الْفَتْوَى بِهَا مِنْهُ ﷺ، فَلَمْ يُذْكَرْ لَهَا حُكْمٌ مَخْصُوصٌ؛ فَهَذَا الضَّرْبُ إِذَا حَدَثَتْ أَسْبَابُهُ، فَلَا بُدَّ

---

(١) «الاعتصام بتحقيق الشقير والحميد» (٣/٢٦٦-٢٦٨) .

www.saida-islam.weebly.com

مِنَ النَّظَرِ فِيهِ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أُصُولِهِ، إِنْ كَانَ مِنَ الْعَادِيَّاتِ، أَوْ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ الِاقْتِصَارُ فِيهَا عَلَى مَا سُمِعَ؛ كَمَسَائِلِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ فِي أَجْزَاءِ الْعِبَادَاتِ .

وَلَا إِشْكَالَ فِي هَذَا الضَّرْبِ؛ لِأَنَّ أُصُولَ الشَّرْعِ عَتِيدَةٌ، وَأَسْبَابَ تِلْكَ الْأَحْكَامِ لَمْ تَكُنْ فِي زَمَانِ الْوَحْيِ، فَالسُّكُوتُ عَنْهَا عَلَى الْخُصُوصِ لَيْسَ بِحُكْمٍ يَقْتَضِي جَوَازَ التَّرْكِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، بَلْ إِذَا عُرِضَتِ النَّوَازِلُ، رُوجِعَ بِهَا أُصُولُهَا، فَوُجِدَتْ فِيهَا، وَلَا يَجِدُهَا مَنْ لَيْسَ بِمُجْتَهِدٍ، وَإِنَّمَا يَجِدُهَا الْمُجْتَهِدُونَ الْمَوْصُوفُونَ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ .

وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَسْكُتَ الشَّارِعُ عَنِ الْحُكْمِ الْخَاصِّ أَوْ يَتْرُكَ أَمْرًا مَا مِنَ الْأُمُورِ وَمُوجِبُهُ الْمُقْتَضَى لَهُ قَائِمٌ، وَسَبَبُهُ فِي زَمَانِ الْوَحْيِ وَفِيمَا بَعْدَهُ مَوْجُودٌ ثَابِتٌ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُحَدَّدْ فِيهِ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْحُكْمِ الْعَامِّ فِي أَمْثَالِهِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى الْمُوجِبُ لِشَرْعِيَّةِ الْحُكْمِ الْعَقْلِيِّ الْخَاصِّ مَوْجُودًا، ثُمَّ لَمْ يُشْرَعْ وَلَا نُبِّهَ عَلَى اسْتِنْبَاطِهِ؛ كَانَ صَرِيحًا فِي أَنَّ الزَّائِدَ عَلَى مَا ثَبَتَ هُنَالِكَ بِدْعَةٌ زَائِدَةٌ وَمُخَالِفَةٌ لِقَصْدِ الشَّارِعِ، إِذْ فُهِمَ مِنْ قَصْدِهِ الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا حَدَّ هُنَالِكَ، لَا الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا النُّقْصَانُ مِنْهُ [١] .

❖❖❖❖❖

(١) «المصدر السابق» (٢/٢٨١ - ٢٨٢) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ :

بَيَانُ أَنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ كَانُوا يَنظُرُونَ إِلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، ويَسْعَونَ لِتَحقِيقِهَا بِالوَسَائِلِ الْمُمكِنَةِ، دُونَ تَقَيُّدٍ بِالوَسَائِلِ الْمَنصُوصِ عَلَيهَا، لأَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مِنَ الوَسَائِلِ مَا يُنَاسِبُهُ دُونَ غَيرِهِ :

لَقَدْ كَانَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ يَنْظُرُونَ فِيمَا جَدَّ مِنَ الحَوَادِثِ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا، ويَسْعَونَ لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، ولَمْ يَتَقَيَّدُوا فِي بَابِ وَسَائِلِ حِفْظِ الدِّيْنِ وتَعْلِيمِهِ وَتَبْلِيغِهِ بِمَا ثَبَتَ فِيهِ نَصٌّ خَاصٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ الأَحْكَامَ لَمْ تُشْرَعْ عَبَثًا، وأَنَّهَا إِنَّمَا شُرِعَتْ لِعِلَلٍ ومَقَاصِدَ يُطْلَبُ تَحْقِيقُهَا، فَإِذَا تَوَقَّفَ تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَشْرُوعَةِ عَلَى وَسَائِلَ مُعَيَّنَةٍ، كَانَ لِلْأَخْذِ بِهَذِهِ الوَسَائِلِ نَفْسُ حُكْمِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ وُجُودِ دَلِيلٍ خَاصٍّ عَلَيهَا أَوْ عَدَمِهِ، وَذَلِكَ لأَنَّ الْوَسَائِلَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ والأَحْوَالِ؛ فَقَدْ نَظَرُوا بِفَهْمِهِمُ الثَّاقِبِ وَبَصِيرَتِهِمُ الْفَذَّةِ إِلى الْمَعَانِيْ وَالْمَقَاصِدِ الَّتِي شُرِعَتْ لَهَا الأَوَامِرُ .

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا وَقَعَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن ارْتِدَادِ الْعَرَبِ، وَمُحَارَبَةِ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لِلْمُرْتَدِّينَ، كَمَا رَوَاهُ الشَّيخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ : كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ** "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ؛ وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا، كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ

www.saida-islam.weebly.com

الْخَطَّابِ : فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ ﷻ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ (١).

فَارْتِدَادُ العَرَبِ مِنَ الأُمُورِ الحَادِثَةِ بَعدَ وَفَاتِهِ ﷺ، ولَيسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي زَمَانِ النُّبُوَّةِ، ولَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَصٌّ خَاصٌّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الحَادِثَةِ، ولَوْ كَانَ هُنَاكَ نَصٌّ لَاسْتَدَلَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ والْمُهَاجِرِينَ ﷺ، فَقَدْ كَانَ رَأْيُ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ - بِمَنْ فِيهِم عُمَرُ - هُوَ عَدَمَ قِتَالِهِم، لَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ اجْتَهَدَ، ورَأَى أَنَّ قِتَالَهُم أَمْرٌ فِيهِ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، فِيهَا حِفْظُ الدِّينِ مِنَ الضَّيَاعِ، وسَدُّ ذَرِيعَةِ التَّهَاوُنِ بِالدِّينِ بِالخُرُوجِ مِنْهُ؛ وقَدْ عُدَّ هَذَا الْمَوْقِفُ لِأَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي لَولَاهَا لَضَاعَ الدِّينُ، ولَمَا قَامَتْ لَهُ قَائِمَةٌ .

وفِيْ هَذِهِ الحَرْبِ مَاتَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ فِي صُدُورِهِمْ، فَأَشَارَ عُمَرُ ﷺ عَلَى أَبِيْ بِكَرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ بِأَنْ يَجْمَعَ الْقُرْآنَ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَخْرَجَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ - قَالَ : أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ : إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قُلْتُ لِعُمَرَ : **كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : **هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ**؛ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ؛ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ : وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ : **كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ**

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٤) ومسلم (٢٠) . وأخرجه العدني كما في «كنز العمال» (١٤١٥٩) عَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ : لَمَّا اجْتَمَعَ رَأْيُ الْمُهَاجِرِينَ - وأَنَا فِيهِم - حِينَ ارْتَدَّتِ العَرَبُ، فَقُلْنَا : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، اتْرُكِ النَّاسَ يُصَلُّونَ ولَا يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ، فَإِنَّهُم لَوْ قَدْ دَخَلَ الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِهِم وَقَرُّوا بِهَا .. فَذَكَرَ نَحْوَهُ .

www.saida-islam.weebly.com

ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : **هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ** . فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ .. وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ (١) .

فَمِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ نَظَرُوا إِلى الْمَصْلَحَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الْوَسِيْلَةِ، حَيْثُ إِنَّ لَهَا أَصْلاً فِي الْجُمْلَةِ، وَهُوَ حِفْظُ الشَّرِيْعَةِ مِنَ الضَّيَاعِ، وَلَمْ يَتَقَيَّدُوا فِيهَا تَقَيُّدَهُم فِي الْعِبَادَاتِ التَّوْقِيْفِيَّةِ، بَلِ اعْتَبَرُوا مِنهَا مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ، وَهَذَا مِنْ شُمُولِيَّةِ الإِسْلامِ، وَصَلاحِيَّتِهِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يَصلُحُ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ .

وَقَولُ عُمَرَ ﷺ : **هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ** . وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الشَّرِيْعَةَ تَقِفُ فِي بَابِ الْوَسَائِلِ مَعَ الْمَصَالِحِ؛ لأَنَّهَا جَاءَتْ بِالأَمْرِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ؛ وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيْعَةِ الْغَرَّاءِ، وَهُوَ اعْتِبَارُ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ، حَتَّى إِنَّ الْعِزَّ بْنَ عَبْدِ السَّلامِ رَجَّعَ الْفِقْهَ كُلَّهُ إِلى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَهَذَا الأَصْلِ .

ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَما أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ الكَرِيْمِ، كَانَ كُلُّ إِقْلِيمٍ مِنْ أَقَالِيمِ الإِسْلامِ يَأْخُذُونَ بِقِرَاءَةِ مَنِ اشْتَهَرَ بَيْنَهُم مِنَ الصَّحَابَةِ، فَنَشَبَ خِلافٌ قَوِيٌّ، دَفَعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ بَعْدَ مَشُورَةِ الصَّحَابَةِ ﷺ إِلى اسْتِنْسَاخِ مَصَاحِفَ وَإِرْسَالِهَا إِلَى الأَمْصَارِ، وَأَمَرَ بِحَرْقِ مَا عَدَاهَا؛ فَقَدْ أَخْرَجَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ، أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي القِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ : **أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ** . فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا

---

(١) رواه البخاري عن زيد بن ثابت برقم (٤٦٧٩) (٤٩٨٦) (٧١٩١) .

www.saida-islam.weebly.com

فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ : **إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ** . فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ [(١)]. مَعَ أَنَّهَا مِمَّا كَتَبَهُ الصَّحَابَةُ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيْمَةِ فِي سَدِّ بَابِ الْفِتْنَةِ وَحَسْمِ مَادَّةِ الاِخْتِلافِ مَا لا يَخْفَى .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَصَاحِفَ كَانَتْ خاليَةً مِنَ النَّقْطِ والشَّكْلِ، فَلَمَّا كَثُرَتِ الْفُتُوحَاتُ الإِسْلامِيَّةُ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَجَمِ فِي الإِسْلامِ، وَاخْتَلَطَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ بِاللِّسَانِ الأَعْجَمِيِّ، وَكَثُرَ اللَّحْنُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى هَؤُلاءِ أَنْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الأَحْرُفِ، وَخَشِيَ وُلاةُ الأَمْرِ أَنْ يُفْضِيَ ذَلِكَ إِلى اللَّحْنِ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَتَحْرِيْفِ كَلِمِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، أَشَارَ زِيَادُ ابْنُ أَبِيْ سُفْيَانَ عَلَى أَبِيْ الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ أَنْ يَسْتَحْدِثَ طَرِيْقَةً يَحْفَظُ بِهَا كَلامَ اللهِ ﷻ مِنَ التَّحْرِيْفِ، فَوَضَعَ نِقَاطَ الإِعْرَابِ، بِأَنْ وَضَعَ نُقْطَةً فَوقَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الْفَتْحِ، وَنُقْطَةً أَمَامَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الضَّمِّ، وَنُقْطَةً تَحْتَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الْكَسْرِ، وَنُقْطَتَيْنِ لِتَدُلَّ عَلَى التَّنْوِيْنِ، وَذَلِكَ بِمِدَادٍ يُخَالِفُ لَونَ مِدَادِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيْفِ، وَلَمَّا صَعُبَ عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ التَّمْيِيزُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ الحُرُوفِ الْمُتَشَابِهَةِ، طَلَبَ الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مِنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ وَيَحْيَى بْنِ يَعْمُرَ أَنْ يَعْمَلا عَلَى إِبْعَادِ التَّحْرِيْفِ عَنْ سَاحَةِ الْقُرْآنِ، فَوَضَعَا نِقَاطَ الإِعْجَامِ لِتَمْيِيْزِ الْحُرُوفِ الْمُتَشَابِهَةِ عَنْ بَعْضِهَا بِلَوْنِ مِدَادِ الْمُصْحَفِ، فَالبَاءُ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ تَحْتُ، وَالتَّاءُ بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَالثَّاءُ بِالْمُثَلَّثَةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَالجِيْمُ نُقْطَةٌ تَحْتُ، وَالحَاءُ مُهْمَلَةٌ (غَيْرُ مَنْقُوطَةٍ)، وَالخَاءُ نُقْطَةٌ فَوقُ، ثُمَّ جَاءَ الخَلِيْلُ ابْنُ أَحْمَدَ الفَرَاهِيْدِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَرْنٍ، وَابْتَدَعَ عَلامَاتٍ أُخْرَى وَزَادَهَا، فَجَعَلَ الضَّمَّةَ وَاواً

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٨٧) .

www.saida-islam.weebly.com

صَغِيْرَةً تُكْتَبُ فَوقَ الحَرْفِ، وَالْفَتْحَةَ أَلِفاً صَغِيْرَةً مَبْطُوحَةً فَوقَ الحَرْفِ، وَالْكَسْرَةَ أَلِفاً مَبْطُوحَةً تَحْتَ الحَرْفِ، ثُمَّ وَضَعَ الشَّدَّةَ رَأْسَ شِيْنٍ، والسُّكُونَ رَأْسَ خَاءٍ، إلى غَيرِ ذَلِكَ [١] .

ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا يُحَزِّبُونَ القُرآنَ عَلَى السُّوَرِ؛ فَعَنْ أَوْسِ بْنِ حُذَيْفَةَ قَالَ : سَأَلْت أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ ؟ قَالُوا : **ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَاحِدٌ** [٢]. ثُمَّ إِنَّهُ حُزِّبَ بَعدَ ذَلِكَ عَلَى الآيَاتِ، وجُعِلَ ثَلَاثِينَ جُزْءاً، وسِتِّينَ حِزْباً، وقُسِّمَتِ الأَحْزَابُ إِلَى أَرْبَاعٍ، وعُدَّتْ سُوَرُهُ، ورُقِّمَتْ آيَاتُهُ، وبُيِّنَ الْمَكِّيُّ والْمَدَنِيُّ فِي رَأْسِ كُلِّ سُورَةٍ، ووُضِعَتْ عَلَامَاتٌ تُبَيِّنُ الوَقْفَ الجَائِزَ والْمَمْنُوعَ، وغَيرَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِهَا مَصْلَحَةُ تَيسِيرِ تِلَاوَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وحِفْظِهِ وحُسْنِ تَرْتِيلِهِ، وذَلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى حِفْظِ الدِّينِ، بِحِفْظِ أَصْلِهِ، الَّذِي هُوَ القُرْآنُ الكَرِيمُ . ولَا زَالَتِ الْمَصَاحِفُ تُطْبَعُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي زَمَانِنا هَذَا مِنْ غَيرِ نَكِيرٍ؛ ولَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ضَلَالَةٍ .

وَصَارَتْ كِتَابَةُ الْمُصْحَفِ بِهَذِهِ الْعَلامَاتِ وَاجِبَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مَوجُودَةً فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ لِكَوْنِهَا وَسِيلَةً لِحِفْظِ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ مِنَ الضَّيَاعِ وَالتَّحْرِيفِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ بِمَجْمُوعِهَا، وَلا يَتَأَتَّى هَذَا الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ الْمُسْتَحْدَثَةِ، **وَمَا لا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ**، وَلَمْ تَكُنِ الضَّرُورَةُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَقْتَضِيْ فِعلَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَحَقٌّ مَا فَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَنَّ لَهُ أَصْلاً يَشهَدُ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَهُوَ الأَمْرُ بِتَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ، وَذَلِكَ لا خِلافَ فِيْهِ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]، وأُمَّتُهُ مِثلُهُ – أَيْ مَأْمُورَةٌ بِالتَّبْلِيغِ –، وَفِي الحَدِيْثِ :" **فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ** "[٣]، وَأَشبَاهِهِ؛ **وَالتَّبلِيغُ كَمَا لا**

---

(١) «أحكام التلاوة والتجويد» إعداد لجنة دور القرآن الكريم (٣/١٩ – ٢٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦١٦٦) وأبو داوود في سننه واللفظ له (١٣٩٣) وابن ماجه في سننه (١٣٤٥) وحسَّنه ابن كثير في تفسيره .

(٣) رواه البخاري عن أبي بكرة برقم (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩) .

www.saida-islam.weebly.com

يَتَقَيَّدُ بِكَيفِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، لأَنَّهُ مِنْ قَبِيْلِ الْمَعْقُولِ الْمَعْنَى[(١)]؛ فَيَصِحُّ بِأَيِّ شَيْءٍ أَمْكَنَ مِنَ الْحِفْظِ وَالتَّلْقِينِ وَالْكِتَابَةِ وَغَيْرِهَا، كَذَلِكَ لا يَتَقَيَّدُ حِفْظُهُ عَنِ التَّحْرِيْفِ وَالزَّيْغِ بِكَيْفِيَّةٍ دُونَ أُخْرَى[(٢)].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً : وَمَا أَحْدَثَهُ السَّلَفُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لِمَا وَضَعَهُ الشَّارِعُ بِحَالٍ، بَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ مَثَلاً لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلاِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالحِفْظِ فِي الصُّدُورِ، وَلأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي الْقُرْآنِ اخْتِلافٌ يُخَافُ بِسَبَبِهِ الاِخْتِلافُ فِي الدِّيْنِ، .. فَحَاصِلُ الأَمْرِ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ كَانَ مَسْكُوتاً عَنْهُ فِي زَمَانِهِ ﷺ، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الاِخْتِلافُ فِي الْقُرْآنِ وَكَثُرَ حَتَّى صَارَ أَحَدُهُم يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : أَنَا كَافِرٌ بِمَا تَقْرَأُ بِهِ، صَارَ جَمْعُ الْمُصْحَفِ وَاجِباً وَرَأْياً رَشِيداً فِي وَاقِعَةٍ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِهَا عَهْدٌ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مُخَالَفَةٌ، وَإِلاَّ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ لَمْ تَحْدُثْ فِي الزَّمَانِ الْمُتَقَدِّمِ بِدْعَةً، **وَهَذَا بَاطِلٌ بِاتِّفَاقٍ**؛ لَكِنَّ مِثْلَ هَذَا النَّظَرِ مِنْ بَابِ الاِجْتِهَادِ الْمُلائِمِ لِقَوَاعِدِ الشَّرِيْعَةِ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ أَصْلٌ مُعَيَّنٌ[(٣)]، وَهُوَ الَّذِيْ يُسَمَّى الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ؛ وَكُلُّ مَا أَحْدَثَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ هَذَا الْقَبِيْلِ، لا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ

---

(١) في هذا بيانٌ وَاضِحٌ لحقيقَةِ أَمْرِ التَّبليغِ لِلدِّينِ، والَّذِي لا ينبغي أَنْ يَكُونَ فيه خِلافٌ بين أهل العلم، وهو أَنَّ وَسَائِلَ التَّبليغِ للدِّين والدَّعوةِ إليه غيرُ مُقَيَّدَةٍ بكَيفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وإِنَّما يُتَّبعُ فيها الْمَصلَحَةُ، لأَنَّها من قَبِيلِ الْمَعقُولِ الْمَعنَى والغَايَةِ على التَّفصِيلِ، فَالْمَقصُودُ من الدَّعوَةِ والتَّبليغِ هو إِيصَالُ رِسَالَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلى خَلقِهِ، لإِخرَاجِهِم من الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ، ومن العَمَى إلى الهُدَى، فَالوَسِيلَةُ الَّتِي تُحَقِّقُ هَذِهِ الغَايَةَ تَكُونُ مَشرُوعَةً إِنْ لم يَكُنْ مَنْهِيَّاً عَنهَا بِذَاتِهَا، وإِنْ لم يَرِدْ على مَشْرُوعِيَّتِهَا دَلِيلٌ خَاصٌّ . وقد سُئِلَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ عن وَسائِلِ الدَّعوَةِ، مِنْ كَونِها توقيفِيَّةً أَم لا ؟ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ : القولُ الفصلُ : أَنَّ «وَسَائِلَ الدَّعوَةِ» مَا يُتَوصَّلُ به إلى الدَّعوَةِ ليست توقيفِيَّةً؛ لكنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ تكونَ الدَّعوَةُ بشَيءٍ مُحَرَّمٍ، كما لو قال قائلٌ : هَؤلاء القومُ لا يَقبَلونَ إِلَّا إِذَا طلبتم الموسيقى أو المزاميرَ أو ما أشبه ذلك .. هَذهِ مُحَرَّمَةٌ؛ وأما غير ذلك، فَكُلُّ وسيلةٍ تُؤَدي إلى الْمَقصُودِ فَهِي مَطلُوبَةٌ . «الفتاوى الثُّلاثِيَّة قبل الدُّروس المسائيَّة» .

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/١٨٦) .

(٣) قال العلامة التفتازاني رَحِمَهُ اللَّهُ : ومِنَ الجَهَلةِ مَنْ يَجعلُ كُلَّ أَمرٍ لم يَكُن في زَمنِ الصَّحابَةِ بِدعَةً مَذمُومَةً، وإِن لَمْ يَقُم دَلِيلٌ على قُبحِهِ، تَمَسُّكاً بِقَولِهِ :" **إِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ** ". ولا يَعلَمُونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ هُوَ أَنْ يُجعَلَ في الدِّينِ مَا لَيسَ مِنهُ . «شرح المقاصد» (٢/٢٧١) .

www.saida-islam.weebly.com

بِوَجْهٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُخَالِفِ لِمَقْصَدِ الشَّارِعِ أَصْلاً، كَيْفَ وَهُوَ يَقُولُ :" **مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِندَ اللهِ حَسَنٌ** " (١)، وَقَالَ :" **لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِيْ عَلَى ضَلالَةٍ** " (٢). فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ مُوَافِقٌ لِقَصْدِ الشَّارِعِ، فَقَدْ خَرَجَ هَذَا الضَّرْبُ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْفِعْلُ أَوِ التَّرْكُ مُخَالِفاً لِلشَّارِعِ؛ وَأَمَّا الْبِدْعَةُ الْمَذْمُومَةُ فَهِيَ الَّتِيْ خَالَفَتْ مَا وَضَعَ الشَّارِعُ مِنَ الأَفْعَالِ أَوِ التُّرُوكِ (٣).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ إِيْرَادِ إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى جَمْعِ الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَنَسْخِهِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : **لَمْ يَرِدْ نَصٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا صَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ**، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوْهُ مَصْلَحَةً تُنَاسِبُ تَصَرُّفَاتِ الشَّرْعِ قَطْعاً؛ فَإِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلى حِفْظِ الشَّرِيْعَةِ، وَالأَمْرُ بِحِفْظِهَا مَعْلُومٌ، وَإِلى مَنْعِ الذَّرِيْعَةِ لِلاِخْتِلافِ فِي أَصْلِهَا الَّذِيْ هُوَ الْقُرْآنُ، وَقَدْ عُلِمَ النَّهْيُ عَنِ الاِخْتِلافِ فِي ذَلِكَ بِمَا لا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَإِذَا اسْتَقَامَ هَذَا الأَمْرُ فَاحْمِلْ عَلَيهِ كَتْبَ الْعِلْمِ فِي السُّنَنِ وَغَيْرِهَا إِذَا خِيْفَ عَلَيهَا الاِنْدِرَاسُ، زِيَادَةً عَلَى مَا جَاءَ فِي الأَحَادِيْثِ مِنَ الأَمْرِ بِكَتْبِ الْعِلْمِ (٤).

كَمَا ثَبَتَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَسْتَخْلِفْ؛ فَفِعْلُهُ هَذَا مُحْدَثٌ؛ ولَكِنْ لَمَّا ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ العَامَّةُ، وخُشِيَتِ الْمَفْسَدَةُ مِنْ عَدَمِهِ، كَانَ فِعْلُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمْراً رَشِيداً، حَقَّقَ لِلأُمَّةِ أَعْظَمَ الْمَصَالِحِ فِي مَعَاشِهَا ومَعَادِهَا .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود موقوفاً (٣٦٠٠) والحاكم في المستدرك (٤٤٦٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع : رجاله مُوَثَّقُونَ .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك (٣٩٥٠) والحاكم في المستدرك عن ابن عباس (٣٩٩) والترمذي عن ابن عمر (٢١٦٧) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (٦٦٥) و(٦٦٦) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح، خلا مرزوق مولى طلحة وهو ثقة . ورواه أحمد في مسنده عن أبي بصيرة الغفاري بنحوه (٢٧٢٢٤) وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» : حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع .

(٣) «الموافقات» (٣/٣٩ – ٤٢) .

(٤) «الاعتصام» (٢/٨٢) .

www.saida-islam.weebly.com

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ﷺ مَشَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فِي النَّظَرِ فِي مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، واتَّخَذَ كُلَّ الوَسَائِلِ لِتَحْقِيقِهَا، ولَمْ يَقِفْ فِي بَابِ الوَسَائِلِ مَعَ مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ خَاصٌّ، ولَكِنَّهُ نَظَرَ بِمَا حَبَاهُ اللهُ ﷻ مِنَ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ والعِلْمِ الغَزِيرِ والإِلْهَامِ والتَّسْدِيدِ فِي القَوْلِ والفِعْلِ، نَظَرَ إِلَى مَا يُحَقِّقُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الشَّرْعِيَّةَ، وإِنَ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَظِيرٌ فِي السَّابِقِ، وكَانَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ لِأَبِي مُوْسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ : .. **ثُمَّ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ قَايِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَاعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ، ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ فِيمَا تَرَى، وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ** ..[(١)] .

فَفِي عَهْدِهِ ﷺ اتَّسَعَتِ الدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، وذَلِكَ بِتَوَسُّعِ الفُتُوحَاتِ؛ حَيثُ تَمَّ فَتْحُ العِرَاقِ، وفَارِسَ، والشَّامِ، ومِصْرَ؛ فَتَطَلَّبَ مِنْهُ الوَضْعُ الجَدِيدُ أَنْ يَضَعَ نِظَامًا إِدَارِيًّا حَقِيقِيًّا، يُعِينُهُ فِي إِدَارَةِ الدَّوْلَةِ الوَاسِعَةِ، والإِشْرَافِ عَلَى تَنْظِيمِ مَوَارِدِهَا؛ فَعَمِلَ عَلَى تَقْسِيمِ الدَّوْلَةِ إِلَى وِلَايَاتٍ، وكَانَ يَخْتَارُ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ وَالِيًا، وكَانَ مِنْ مَهَامِّ الوَالِيْ إِمَامَةُ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، والقَضَاءُ بَينَهُمْ بِالحَقِّ، وتَقْسِيمُ الغَنَائِمِ والعُشُورِ، وجَمْعُ الزَّكَاةِ والجِزْيَةِ والخَرَاجِ؛ كَمَا أَجْرَى عَلَى الوُلَاةِ مُرَتَّبَاتٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعِينَهُم عَلَى التَّفَرُّغِ لِعَمَلِهِمُ الْمَنُوطِ بِهِم؛ كَمَا عَمِلَ ﷺ عَلَى فَصْلِ القَضَاءِ عَنِ الوِلَايَةِ، وشَرَعَ فِي تَعْيِينِ القُضَاةِ فِي البِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ، وأَجْرَى عَلَيهِمُ الرَّوَاتِبَ؛ وقَامَ ﷺ بِاسْتِحْدَاثِ نِظَامِ الخَرَاجِ، حَيثُ أَبْقَى عُمَرُ ﷺ الأَرَاضِي الْمَفْتُوحَةَ فِي أَيْدِيْ أَصْحَابِهَا؛ كَمَا قَامَ ﷺ بِتَنْظِيمِ الجِزْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تُجْبَى مِنْ غَيرِ الْمُسْلِمِينَ، وأَعْفَى مِنهَا النِّسَاءَ والصِّبْيَانَ والشُّيُوخَ؛ وَأَنْشَأَ ﷺ الدَّوَاوِينَ : مِثْلَ **دِيْوَانِ الخَرَاجِ**، حَيثُ كَثُرَ الخَرَاجُ فِي عَهْدِهِ ﷺ، فَاسْتَعْمَلَهُ فِي الفُتُوحَاتِ وتَرْتِيبِ الأَجْنَادِ. **ودِيْوَانِ العَطَاءِ**، لِتَسْجِيلِ أَسْمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وعَطَائِهِمْ، ولِضَمَانِ سَيرِ الجُيُوشِ لِمُوَاصَلَةِ الفُتُوحَاتِ، وحِرْصًا عَلَى تَجْهِيزِهَا وتَمْوِينِهَا؛ كَمَا أَنْشَأَ **دِيْوَانَ الجُنْدِ**، الَّذِيْ سَجَّلَ فِيهِ أَسْمَاءَ الْمُقَاتِلِينَ، ووِجْهَتَهُمْ، ومِقْدَارَ أُعْطِيَاتِهِمْ وأَرْزَاقِهِمْ؛ كَمَا وَضَعَ التَّأْرِيخَ الهِجْرِيَّ عِنْدَمَا اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي وَضْعِ تَأْرِيخٍ لِلْكُتُبِ الَّتِيْ تَصِلُهُ، فَاتَّخَذَ ﷺ مِنْ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بِدَايَةً لِلتَّأْرِيخِ . كَمَا اسْتَحْدَثَ ﷺ بَعْضَ الأَنْظِمَةِ

---

(١) «السنن الكبرى للبيهقي» (٢٠٥٣٧) .

www.saida-islam.weebly.com

الإِدَارِيَّةِ، مِثْلَ : **نِظَامِ العَسَسِ، ونِظَامِ الحِسْبَةِ، ونِظَامِ البَرِيدِ**. وأَحْدَثَ ﷺ السِّجْنَ في مَكَانٍ خَاصٍّ لِرَدْعِ الْمُجْرِمِينَ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَكَانٌ خَاصٌّ [١] .

فَكُلُّ هَذِهِ الأَنْظِمَةِ اسْتَحْدَثَهَا عُمَرُ ﷺ – مَعَ عَدَمِ وُجُودِ دَلِيلٍ خَاصٍّ عَلَيهَا – لَمَّا رَأَى بِنَظَرِهِ الثَّاقِبِ وفَهْمِهِ العَمِيقِ لِلشَّرِيعَةِ الغَرَّاءِ، أَنَّ مَقَاصِدَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِحْدَاثِ هَذِهِ الأُمُورِ، الَّتِيْ لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْجُوداً وَقْتَهَا لَشَاوَرَ أَصْحَابَهُ فِي سُبُلِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ الْمَقْصُودَةِ شَرْعاً، ولَأَخَذَ بِمَا يُنَاسِبُ الحَالَ مِنْهَا، كَمَا ثَبَتَ هَذَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سِيرَتِهِ العَطِرَةِ؛ ومِنْ أَهَمِّهَا مَا تَعَلَّقَ بِوَسَائِلِ إِقَامَةِ الدِّينِ ودَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيهِ، كَمَا أَمَرَهُ ﷻ بِمَشُورَتِهِمْ، فَقَالَ : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** ﴾. وإِقَامَةُ الدِّينِ وإِخْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ هُوَ الأَمْرُ الَّذِيْ بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾ .

فَإِنَّ أَمْرَ العِبَادَاتِ قَائِمٌ عَلَى التَّوْقِيفِ مِنْ قِبَلِ الشَّارِعِ الحَكِيمِ، فَلَمْ يَبْقَ مَجَالٌ لِلْمَشُورَةِ إِلَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِوَسَائِلِ إِقَامَةِ الدِّينِ، وتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وأَهَمُّهَا هِيَ مَصْلَحَةُ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، ودَعْوَتِهِم إِلَى اللهِ ﷻ . فَلَمْ يُشَاوِرْهُم ﷺ فِي أَمْرِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، ولَا عَدَدِ رَكَعَاتِهَا ولَا كَيْفِيَّاتِهَا، ولَكِنَّهُ شَاوَرَهُم فِي طَرِيقَةِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ وَجَمْعِهِم عَلَيهَا [٢] .

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه (١١١٨٠). وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ : لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ مَحْبِسٌ مُعَدٌّ لِحَبْسِ الْخُصُومِ، وَلَكِنْ لَمَّا انْتَشَرَتِ الرَّعِيَّةُ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، اشْتَرَى مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ دَارًا بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَجَعَلَهَا حَبْسًا، يُحْبِسُ فِيهَا . «الطرق الحكمية لابن القيم» ص (٩٠) بتصرف .

(٢) أخرج البخاري (٦٠٤) ومسلم (٣٧٧) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَرْنًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ : أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **يَا بِلَالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ** ".

www.saida-islam.weebly.com

وعَلَى هَذَا جَرَى الخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَفِي زَمَانِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ كَثُرَ النَّاسُ، ورَأَى انْشِغَالَهُم يَومَ الجُمُعَةِ وتَأَخُّرَهُم عَنْ صَلَاتِهَا، فَأَمَرَ مُؤَذِّنًا فَأَذَّنَ بِالزَّوْرَاءِ قَبْلَ خُرُوجِهِ، يُعْلِمُ النَّاسَ أَنَّ الْجُمُعَةَ قَدْ حَضَرَتْ [(١)].

وقَدْ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وأَنْ نَعَضَّ عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وهَذَا الِاقْتِدَاءُ بِسُنَّتِهِم لَا يَكُونُ فِي الأُمُورِ الْمَنْصُوصِ عَلَيهَا مِنَ العِبَادَاتِ ونَحْوِهَا مِنَ الْمُقَدَّرَاتِ الشَّرعِيَّةِ الثَّابِتَةِ، فَهَذِهِ لَا يَسَعُ أَحَداً تَجَاوُزُهَا والِاجْتِهَادُ فِيهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ مُضَاهَاتِ الشَّارِعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي إِلَّا لَهُ؛ وسُنَّتُهُ ﷺ فِيهَا مُلزِمَةٌ لِجَمِيعِ الأُمَّةِ، بِمَنْ فِيهِمُ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ؛ ولَكِنَّ الِاقْتِدَاءَ بِسُنَّتِهِم يَكُونُ فِي التَّصَرُّفَاتِ والأَفعَالِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا لِمُعَالَجَةِ القَضَايَا الَّتِي تَحْدُثُ فِي زَمَانِهِم، مِمَّا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي السَّابِقِ، فَيُحْدِثُون لَهَا حُلُولاً تُحَقِّقُ مَصلَحَةَ الأُمَّةِ بما يَتَنَاسَبُ مَعَ زَمَانِهِم وأَحوَالِهِم، مُعتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِأَدِلَّةٍ شَرعِيَّةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَسُنَّةُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فِي الحَقِيقَةِ مُوَافِقَةٌ لِسُنَّتِهِ ﷺ، لَا فِي خُصُوصِ الأَدِلَّةِ، ولَكِنْ فِي مُوَافَقَةِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ التي جَاءَتْ بتَحقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ .

وهَذَا أَمْرٌ لِلْأُمَّةِ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَمَاكِنِهِمْ وأَزْمِنَتِهِم وأَحْوَالِهِم، أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ فِي سُنَّتِهِم فِي اتِّخَاذِ كُلِّ الوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وعَلَى رَأْسِهَا إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، – والَّذِيْ هُوَ مَقْصُودُ بِعْثَتِهَا وبِعْثَةِ نَبِيِّهَا ﷺ، وسَبَبُ خَيْرِيَّتِهَا عَلَى بَاقِي الأُمَمِ، – ولَا يَقِفُوا فِي هَذَا البَابِ مَعَ مَا ثَبَتَ فِي القُرُونِ السَّابِقَةِ، لِاخْتِلَافِ الوَسَائِلِ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالأَحْوَالِ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الوَسَائِلُ تَتَمَاشَى مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وتُحَقِّقُهَا، ولَا تُصَادِمُهَا .

---

(١) أخرجه البخاري (٩١٢) و(٩١٣) وأبو داوود (١٠٨٧) واللفظ له، من حديث السائب بن يزيد، قال : إِنَّ الْأَذَانَ كَانَ أَوَّلُهُ حِينَ يَجْلِسُ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ خِلَافَةُ عُثْمَانَ، وَكَثُرَ النَّاسُ أَمَرَ عُثْمَانُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْأَذَانِ الثَّالِثِ، فَأُذِّنَ بِهِ عَلَى الزَّوْرَاءِ، فَثَبَتَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ.

www.saida-islam.weebly.com

ومِنْ سُنَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّتِي أُمِرْنَا بالاِقتِدَاءِ بِهِمْ فِيمَا يُوَافِقُ أَحْوَالَهُم : الجُهدُ والجِهَادُ لِإعَادَةِ الْمُرْتَدِّينَ إِلَى الدِّينِ، بِالوَسِيلَةِ الْمُتَوَفِّرَةِ لَدَى الأُمَّةِ، سَوَاءٌ كَانَ جِهَاداً بالسِّنَانِ أَوِ اللِّسَانِ؛ فَإِنْ كَانَ هُنَاكَ قُوَّةٌ لَدَى الأُمَّةِ تَسْتَطِيعُ اسْتَعْمَالَهَا فِي إِعَادَةِ الْمُرْتَدِّينَ، – سَوَاءٌ كَانَ الاِرْتِدَادُ كُلِّيًّا أَمْ جُزْئِيّاً – وَجَبَ اسْتِعْمَالُهَا، وإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قُوَّةٌ وَجَبَ استِعمَالُ القُوَّةِ الخُلُقِيَّةِ والدَّعوَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا كَانَ ﷺ يَفْعَلُ فِي مَكَّةَ؛ ولَا يَسْقُطُ الحَرَجُ عَنِ الأُمَّةِ فِي تَركِ هَذَا الجُهدِ لِإرْجَاعِهِم بِضَعْفِ قُوَّتِهَا؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللهِ ﷻ وسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ وسُنَّةَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فِي حَالِ رِدَّةِ الأُمَّةِ أَوْ بَعْضِهَا هُوَ : الجُهدُ لِإرْجَاعِهِم بِالوَسِيلَةِ الْمُتَيَسِّرَةِ؛ و«**المَيْسُورُ** – وهُوَ الجُهْدُ لِإرْجَاعِ الْمُرْتَدِّينَ بِدَعوَةِ اللِّسَانِ – **لَا يَسْقُطُ بِالمَعْسُورِ** – وهُوَ جِهَادُهُمْ بالقُوَّةِ والسَّيفِ لِإرْجَاعِهِم –». و«**مَا لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ جُلُّهُ**» . واللهُ أَعْلَمُ .

كَمَا أَنَّ جُيُوشَ الفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ كَانَتْ تَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الأَسَاسِيُّ مِنْ خُرُوجِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، كَمَا سَيَأْتِي، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا طَالَبُوهُم بِالجِزْيَةِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا نَاجَزُوهُم بِالسَّيْفِ؛ فَإِذَا تَعَذَّرَ الأَخِيرَانِ – أَيْ طَلَبُ الجِزْيَةِ وَالْمُنَاجَزَةُ بِالسَّيْفِ – فِي وَقْتٍ مَا، لِأَسْبَابِ الضَّعْفِ وَالتَّفَكُّكِ وَغَيرِهَا، كَيفَ يَسُوغُ أَنْ يُتْرَكَ الخُرُوجُ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ والإِيْمَانِ، وَهُوَ الْمَشْرُوعُ أَوَّلاً، وَالْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ ؟!

فَالخُرُوجُ لِلدَّعْوَةِ لَمْ يَزَلْ مَشْرُوعاً مُنْذُ بُعِثَ ﷺ؛ فَقَدْ خَرَجَ لِدَعْوَةِ وَإِنْذَارِ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ، وَلِيُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حولَهَا مِنَ القُرَى وَالقَبَائِلِ، وَكَانَ يَتْبَعُ مَنَازِلَ العَرَبِ بِمِنىً قَبِيلَةً قَبِيلَةً، كَمَا سَيَأْتِي؛ ثُمَّ هَاجَرَ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ خَارِجاً فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ لِإقَامَةِ دِينِ اللهِ ﷻ؛ فَبِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أَسْلَمَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ قَبْلَ شَرْعِ القِتَالِ؛ ثُمَّ شُرِعَ الجِهَادُ بِالسَّيفِ لِحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَإِزَالَةِ العَقَبَاتِ مِنْ طَرِيقِهَا؛ فَبَعَثَ ﷺ البُعُوثَ وَالجَمَاعَاتِ، وَأَرْسَلَ السَّرَايَا وَالجُيُوشَ لِنَشْرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ فَمَكَّنَ اللهُ ﷻ لَهَا، وَآتَتْ أُكُلَهَا فِي أَنْحَاءِ العَالَمِ؛ وَلَمَّا قَصَّرَ الْمُسْلِمُونَ بِقِيَامِهِم بِحَمْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَالخُرُوجِ وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِهَا، وَتَشَاغَلُوا عَنْهَا بِغَيرِهَا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، سَلَّطَ اللهُ ﷻ عَلَيهِم أَعْدَاءَهُم يَسُومُونَهُم سُوءَ العَذَابِ، وَيَأْخُذُونَ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَيهِم فِي دِينِهِمْ وَمَعِيشَتِهِمْ؛ وَكُلُّ هَذَا لِتَعُودَ الأُمَّةُ وَتَرْجِعَ إِلَى القِيَامِ

www.saida-islam.weebly.com

بِمَسْؤُولِيَّتِهَا الأَصْلِيَّةِ تُجَاهَ البَشَرِيَّةِ، بِالجُهْدِ لِإِخْرَاجِهِم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ وَلَا عَودَةَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ إِلَى مَكَانِهَا الأَصْلِيِّ، فِي رُتْبَةِ الخَيْرِيَّةِ وَالقِيَادَةِ، وَمِنَصَّةِ الحُكْمِ وَالسِّيَادَةِ إِلَّا بِرُجُوعِهَا إِلَى القِيَامِ بِمَسْؤُولِيَّتِهَا تُجَاهَ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ؛ وَالعَوْدَةِ بِالأُمَّةِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيهِ ﷺ مِنَ الجُهْدِ فِي الدَّعْوَةِ، بِنَفْسِ الطَرِيقِ وَالنَّهْجِ، مِنْ تَتَبُّعِ النَّاسِ فِي أَمَاكِنِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَتَجَمُّعَاتِهِم، وَدَعْوَتِهِم إِلَى العَوْدَةِ إِلَى الإِيْمَانِ وَالأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ، مَعَ الثِّقَةِ بِاللهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَاليَقِينِ بِمَوْعُودِ اللهِ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ .

وَإِذَا تَعَذَّرَ إِرْسَالُ الجُيُوشِ لِأَجْلِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَالتَّبْشِيرِ وَالإِنْذَارِ، فَلَا يُعْذَرُ الْمُسْلِمُونَ بِتَرْكِ إِرْسَالِ الجَمَاعَاتِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ لِلشُّعُوبِ الْمُحْتَاجَةِ – وَهُمْ أَكْثَرُ سُكَّانِ الْمَعْمُورَةِ –؛ فَالْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، وَأَهْلُ مَكَّةَ مِنَ الطُّلَقَاءِ وَغَيرِهِمْ، لَمْ يُسْلِمُوا تَحْتَ وَطْأَتِ السَّيفِ، إِنَّمَا أَسْلَمُوا عَنْ قَنَاعَةٍ وَتَأَثُّرٍ بِأَخْلَاقِ الإِسْلَامِ وَمَبَادِئِهِ؛ كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ الإِسْلَامِيَّةِ – كَأَنْدُونِيسْيَا وَغَيرِهَا – إِنَّمَا أَسْلَمَتْ عَلَى أَيْدِيْ الدُّعَاةِ الْمُخْلِصِينَ الْمُحْتَسِبِينَ، الَّذِينَ ضَحَّوْا بِتَرْكِ أَوْطَانِهِم وَأَهْلِيهِمْ، وَتَحَمُّلِ النَّفَقَاتِ، وَتَعْرِيضِ أَنْفُسِهِمْ لِلْمَخَاطِرِ وَالآفَاتِ فِي سَبِيلِ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ جَمْعَاءَ : إِذَا تَحَقَّقَتِ الكِفَايَةُ بِالْمُتَحَرِّكِينَ كَانُوا هُمُ الْمُفْلِحِينَ، وَسَقَطَ الإِثْمُ عَنْ غَيرِهِم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ تَتَحَقَّقِ الكِفَايَةُ بِهِمْ، أَثِمَ كُلُّ مُتَخَلِّفٍ عَنِ الحَرَكَةِ وَالقِيَامِ بِالخُرُوجِ لِنَشْرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى حَيثُ يُرِيدُ اللهُ ﷻ؛ وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الإِمَامِ الغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمَبْحَثِ الثَّانِي» مِنَ «الفَصْلِ الرَّابِعِ» مَا يُؤَكِّدُ هَذَا الكَلَامَ وَيَزِيدُهُ وُضُوحاً وَبَيَاناً .

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الثَّانِي

بَيَانُ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَأَقْسَامِهَا، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمَذمُومِ مِنهَا وَبَينَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ :

لَقَدْ جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ الإِسْلَامِيَّةُ بِمَصَالِحِ الأَنَامِ فِي مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَسَلَكَتْ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَوْضَحَ الْمَسَالِكِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَكْمَلَ لِعِبَادِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ عَلَيهِمُ النِّعْمَةَ؛ وَقَدْ بَلَّغَ ﷺ البَلَاغَ الْمُبِينَ، وَلَمْ يَتْرُكْ طَرِيقاً يُوْصِلُ إِلَى الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا بَيَّنَهُ؛ فَمَدَارُ الفَوزِ وَالفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ عَلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ، عَلَى طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ ﷻ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَحَذَّرَ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ بِالعِصْيَانِ أَوِ الِابْتِدَاعِ؛ فَقَالَ ﷻ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، وَقَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]؛ وَقَالَ ﷻ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]؛ إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ فِي هَذَا البَابِ .

كَمَا جَاءَتْ آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ، وَالنَّهْيِ عَنْ مُخَالَفَتِهِ، بِتَرْكِ سُنَّتِهِ أَوْ إِحْدَاثِ مَا يُخَالِفُ سُنَّتَهُ؛ كَمَا جَاءَتِ الآثَارُ عَنْ سَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُم، فِيهَا الحَثُّ عَلَى اتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ البِدَعِ، وَبَيَانُ خَطَرِهَا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ مَعْنَى البِدْعَةِ الْمَنْهِيِّ عَنهَا شَرْعاً، وَالتَّفْرِيقِ بَينَهَا وَبَينَ مَا يَدْخُلُ مَعَهَا فِي تَعْرِيفِهَا اللُّغَوِيِّ، وَيُخَالِفُهَا فِي حُكْمِهَا الشَّرْعِيِّ، وَهِيَ البِدْعَةُ اللُّغَوِيَّةُ، الَّتِي لَا تُخَالِفُ مَقْصُودَ الشَّارِعِ الحَكِيمِ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ بَينَ البِدْعَةِ الْمَذْمُومَةِ شَرْعاً، وَبَينَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وَذَلِكَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي بَعْضِ الأَوْجُهِ؛ وَبَيَانِ أَوْجُهِ الِاتِّفَاقِ وَأَوْجُهِ الِاخْتِلَافِ بَينَهُمَا، ثُمَّ نَنْظُرُ إِلَى مَوْضُوعِ البَحْثِ، وَهُوَ «الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ»، وَنَرَى تَحْتَ أَيٍّ مِنَ الْمَفْهُومَينِ يَدْخُلُ، فَيَأْخُذُ حُكْمَهُ، جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً؛ وَلِبَيَانِ هَذَا لَا بُدَّ مِنْ مَبْحَثَينِ اثْنَينِ :

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ :

كَلامُ الأَئِمَّةِ فِي بَيَانِ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَانقِسَامِهَا إِلَى لُغَوِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ، وَبَيَانُ الْمَذمُومِ مِنهَا :

الأَصْلُ فِي هَذَا البَابِ مَا رَوَاهُ الشَّيخَانِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** "(١). وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا خَطَبَ .. يَقُولُ :" **وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** " (٢). وَبِالْمُقَابِلِ، مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وغَيرُهُ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :" **مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ** "(٣). وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :" **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا** " (٤) .

ولِبَيَانِ طَرِيقِ الجَمْعِ بَينَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، نَذْكُرُ مَا رَوَاهُ الحَافِظُ أَبُو نُعَيمٍ بِإِسْنَادِهِ، عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ : **الْبِدْعَةُ بِدْعَتَانِ : بِدْعَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَبِدْعَةٌ مَذْمُومَةٌ. فَمَا وَافَقَ**

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) .

(٢) رواه مسلم (٨٦٧) .

(٣) رواه مسلم (١٠١٧) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤) . وقَالَ الإِمَامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَذَانِ الْحَدِيثَانِ صَرِيحَانِ فِي الْحَثِّ عَلَى اسْتِحْبَابِ سَنِّ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ وَتَحْرِيمِ سَنِّ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ، وَأَنَّ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِ مُتَابِعِيهِ أَوْ إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ تَابِعِيهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةُ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَهُ أَمْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ، وَسَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ تَعْلِيمَ عِلْمٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ أَدَبٍ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . «شرح مسلم للنووي» (٢٢٦/١٦) .

www.saida-islam.weebly.com

السُّنَّةَ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَمَا خَالَفَ السُّنَّةَ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ **فِي قِيَامِ رَمَضَانَ : نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هِيَ** (١) .

وقَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَمُرَادُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ : أَنَّ **الْبِدْعَةَ الْمَذْمُومَةَ**(٢) : مَا لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ يُرْجَعُ إِلَيْهِ، وَهِيَ الْبِدْعَةُ فِي إِطْلَاقِ الشَّرْعِ، وَأَمَّا **الْبِدْعَةُ الْمَحْمُودَةُ** : فَمَا وَافَقَ السُّنَّةَ، يَعْنِي : مَا كَانَ لَهَا أَصْلٌ مِنَ السُّنَّةِ يُرْجَعُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِدْعَةٌ لُغَةً لَا شَرْعًا، لِمُوَافَقَتِهَا السُّنَّةَ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ كَلَامٌ آخَرُ يُفَسِّرُ هَذَا، وَأَنَّهُ قَالَ : **الْمُحْدَثَاتُ مِنَ الْأُمُورِ ضِرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا أُحْدِثَ يُخَالِفُ كِتَابًا أَوْ سَنَةً أَوْ أَثَرًا أَوْ إِجْمَاعًا، فَهَذِهِ الْبِدْعَةُ الضَّلَالَةِ. وَالثَّانِيَةُ : مَا أُحْدِثَ مِنَ الْخَيْرِ لَا خِلَافَ فِيهِ لِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا، فَهَذِهِ مُحْدَثَةٌ غَيْرُ مَذْمُومَةٍ؛ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ** ﷺ **فِي قِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ : نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** (٣). **يَعْنِي أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ، وَإِنْ كَانَتْ فَلَيْسَ فِيهَا رَدٌّ لِمَا مَضَى** (٤) . وَكَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي حَدَثَتْ، وَلَمْ يَكُنْ قَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّهَا بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ .. (٥) .

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/١١٣) . وقَالَ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَمَا خَالَفَ النُّصُوصَ فَهُوَ بِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ خَالَفَهَا فَقَدْ لَا يُسَمَّى بِدْعَةً؛ ثُمَّ ذَكَرَ قَولَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **الْبِدْعَةُ بِدْعَتَانِ** : .. وقَالَ : رَوَاهُ البيهقي بِإِسْنَادِهِ الصَّحِيحِ فِي الْمَدْخَلِ . «مجموع الفتاوى» (٢٠/١٦٣) .
قلت : المروي في المدخل هو قوله : **الْمُحْدَثَاتُ مِنَ الْأُمُورِ ضِرْبَانِ** .. وهو بمعناه .

(٢) السَّبَبُ الأَسَاسِيُّ فِي ذَمِّ البِدَعِةِ – الشَّرعِيَّةِ – هُوَ : أَنَّ الْمُبتدعَ قَدْ نَزَّلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُضَاهِي لِلشَّارِعِ، وصيَّر نفسه نظيراً له، حَيْثُ شرَّع مَعَ الشَّارِعِ، وَرَدَّ قَصْدَ الشَّارِعِ فِي الِانْفِرَادِ بِالتَّشْرِيعِ، ونَسبَ النَّقصَ إليه في ذلك؛ كما قال الإمامُ مالكٌ : **مَنِ ابْتَدَعَ فِي الإِسْلامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا** ﷺ **خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ** : ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾، **فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا**. «الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم» (٦/ ٨٥).
و«الاعتصام للشاطبي» بتصرف (١/٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٠) ولفظه : **نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** .

(٤) «المدخل إلى السنن الكبرى» (١/٢٠٦) .

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/١٣١) .

www.saida-islam.weebly.com

فَمُرَادُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الْمَحْمُودَةِ : الحَوَادِثُ الَّتِيْ اسْتُجِدَّتْ، ولَيسَ عَلَيهَا بِأَعْيَانِهَا أَدِلَّةٌ مِنَ الكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ أَوِ الآثَارِ أَوِ الإِجْمَاعِ، ولَكِنَّهَا تَدْخُلُ تَحْتَ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وتَنْضَوِي تَحْتَ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِهِ، وهِيَ لَيْسَتْ مِنَ العِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ؛ فَهَذِهِ الْمُحْدَثَاتُ إِذَا كَانَتْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهِيَ مَحْمُودَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، ولَا تُسَمَّى بِدْعَةً فِي الدِّيْنِ، وإِنْ كَانَتْ تُسَمَّى بِدْعَةً مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ؛ كَمَا قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْمُرَادُ بِالْبِدْعَةِ : مَا أُحْدِثَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَأَمَّا مَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الشَّرْعِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ بِبِدْعَةٍ شَرْعًا، وَإِنْ كَانَ بِدْعَةً لُغَةً [(١)] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الْمُتَقَدِّمِ : فَهَذَا الحَدِيثُ يَدُلُّ بِمَنْطُوقِهِ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَيسَ عَلَيهِ أَمْرُ الشَّارِعِ، فَهُوَ مَرْدُودٌ، **ويَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ عَلَيهِ أَمْرُهُ، فَهُوَ غَيرُ مَرْدُودٍ**؛ والْمُرَادُ بِأَمْرِهِ هَاهُنَا : دِينُهُ وشَرْعُهُ [(٢)]. فَمَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ؛ وأَمَّا مَنْ أَحْدَثَ فِيهِ مَا هُوَ مِنهُ، وَيَنْدَرِجُ تَحتَ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِهِ العَامَّةِ فَلَيسَ بِمَرْدُودٍ.

وقَالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْبِدْعَةُ عَلَى قِسْمَيْنِ : تَارَةً تَكُونُ بِدْعَةً شَرْعِيَّةً، كَقَوْلِهِ : "**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** ". وَتَارَةً تَكُونُ بِدْعَةً لُغَوِيَّةً، كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ جَمْعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ**[(٣)].

وقَالَ ابْنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَولُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي التَّرَاوِيحِ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هِيَ** . أَرَادَ الْبِدْعَةَ اللُّغَوِيَّةَ، وَهُوَ مَا فُعِلَ عَلَى غَيرِ مِثَالٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[الأحقاف:٩]، وَلَيْسَتْ بِدعَةً شَرْعاً، فَإِنَّ الْبِدْعَةَ الشَّرْعِيَّةَ ضَلَالَةٌ، كَمَا قَالَ ﷺ؛

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/١٧٧) .

(٢) «المصدر السابق» (١/١٨٤) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/٣٨٩) .

www.saida-islam.weebly.com

وَمنْ قَسَّمَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى حَسَنٍ وَغَيرِ حَسَنٍ، فَإِنَّمَا قَسَّمَ الْبِدْعَةَ اللُّغَوِيَّةَ، وَمَنْ قَالَ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، فَمَعْنَاهُ الْبِدْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ [١] .

وقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : كُلُّ بِدْعَةٍ صَدَرَتْ مِنْ مَخْلُوقٍ فَلَا يخلو أَنْ يَكُونَ لَهَا أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ، أَوْ لَا :

(١) **فَإِنْ كَانَ لَهَا أَصْلٌ**، كَانَتْ وَاقِعَةً تَحْتَ عُمُومِ مَا نَدَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَحَضَّ رَسُولَهُ عَلَيْهِ، **فَهِيَ فِي حَيِّزِ الْمَدْحِ**، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثَالُهُ مَوْجُودًا، كَنَوْعٍ مِنَ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ وَفِعْلِ الْمَعْرُوفِ[٢]، فَهَذَا فِعْلُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْفَاعِلُ قَدْ سُبِقَ إِلَيْهِ؛ وَيَعْضُدُ هَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ**؛ لَمَّا كَانَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ وَدَاخِلَةً فِي حَيِّزِ الْمَدْحِ، وَهِيَ وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ صَلَّاهَا، إِلَّا أَنَّهُ تَرَكَهَا وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، وَلَا جَمَعَ النَّاسَ عَلَيْهَا، فَمُحَافَظَةُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهَا، وَجَمْعُ النَّاسِ لَهَا، وَنَدْبُهُمْ إِلَيْهَا بِدْعَةٌ، لَكِنَّهَا بِدْعَةٌ مَحْمُودَةٌ مَمْدُوحَةٌ.

(٢) **وَإِنْ كَانَتْ فِي خِلَافِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ فِي حَيِّزِ الذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ**، قَالَ مَعْنَاهُ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ . قُلْتُ – القَائِلُ هُوَ القُرطُبِيُّ – : وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ : "**وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** ". يُرِيدُ مَا لَمْ يُوَافِقْ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً، أَوْ عَمَلَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا بِقَوْلِهِ :" **مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ** ". وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا ابْتُدِعَ مِنْ قَبِيحٍ وَحَسَنٍ، وَهُوَ أَصْلُ هَذَا الْبَابِ، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ [٣] .

---

(١) «الفتاوى الحديثية» ص (٢٠٠) .

(٢) قلت : ومن أعرف المعروفات الدعوة إلى الخير بالوسائل الممكنة، ومن أعظمها الخروج في سبيل الله.

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/٨٧) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ أَبُو الوَلِيدِ البَاجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَولِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَهَذَا الْقَوْلُ تَصْرِيحٌ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ النَّاسَ عَلَى قِيَامِ رَمَضَانَ عَلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ، بِقَصْدِ الصَّلَاةِ بِهِمْ، وَرَتَّبَ ذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ تَرْتِيبًا مُسْتَقِرًّا، لِأَنَّ الْبِدْعَةَ هُوَ : مَا ابْتَدَأَ فِعْلَهُ الْمُبْتَدِعُ دُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، فَابْتَدَعَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالنَّاسُ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا، وَهَذَا أَبْيَنُ فِي صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالرَّأْيِ وَالِاجْتِهَادِ، وَإِنَّمَا وَصَفَهَا بِنِعْمَتْ الْبِدْعَةُ لِمَا فِيهَا مِنْ وُجُوهِ الْمَصَالِحِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا [١] .

وَقَالَ سُلْطَانُ العُلَمَاءِ العِزُّ بْنُ عَبدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ : «الْبِدْعَةُ» : فِعْلُ مَا لَمْ يُعْهَدْ فِي عَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَهِيَ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى : بِدْعَةٍ وَاجِبَةٍ، وَبِدْعَةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَبِدْعَةٍ مَنْدُوبَةٍ، وَبِدْعَةٍ مَكْرُوهَةٍ، وَبِدْعَةٍ مُبَاحَةٍ؛ وَالطَّرِيقُ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ أَنْ تُعْرَضَ الْبِدْعَةُ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ : فَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْإِيجَابِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ التَّحْرِيمِ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمَنْدُوبِ فَهِيَ مَنْدُوبَةٌ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمَكْرُوهِ فَهِيَ مَكْرُوهَةٌ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمُبَاحِ فَهِيَ مُبَاحَةٌ؛ وَلِلْبِدَعِ الْوَاجِبَةِ أَمْثِلَةٌ : **أَحَدُهَا** : الِاشْتِغَالُ بِعِلْمِ النَّحْوِ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ لِأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ وَاجِبٌ، وَلَا يَتَأَتَّى حِفْظُهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ . **الْمِثَالُ الثَّانِي** : حِفْظُ غَرِيبِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ اللُّغَةِ . **الْمِثَالُ الثَّالِثُ** : تَدْوِينُ أُصُولِ الْفِقْهِ . **الْمِثَالُ الرَّابِعُ** : الْكَلَامُ فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ لِتَمْيِيزِ الصَّحِيحِ مِنَ السَّقِيمِ؛ وَقَدْ دَلَّتْ قَوَاعِدُ الشَّرِيعَةِ عَلَى أَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ فَرْضُ كِفَايَةٍ فِيمَا زَادَ عَلَى الْقَدْرِ الْمُتَعَيِّنِ، وَلَا يَتَأَتَّى حِفْظُ الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَاهُ .. وَلِلْبِدَعِ الْمَنْدُوبَةِ أَمْثِلَةٌ، مِنْهَا : إِحْدَاثُ الرُّبُطِ وَالْمَدَارِسِ وَبِنَاءِ الْقَنَاطِرِ، وَمِنْهَا كُلُّ إِحْسَانٍ لَمْ يُعْهَدْ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ، وَمِنْهَا صَلَاةُ التَّرَاوِيحِ .. [٢] .

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ فِي تَقْسِيمِ العِزِّ بْنِ عَبدِ السَّلَامِ لِلْبِدَعِ إِلَى الأَقْسَامِ الخَمْسَةِ : إِنَّ ابْنَ عَبْدِ السَّلَامِ ظَاهِرٌ مِنْهُ أَنَّهُ سَمَّى الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ بِدَعًا، بِنَاءً - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - عَلَى أَنَّهَا لَمْ

---

(١) «المنتقى شرح الموطأ» (١/٢٠٧- ٢٠٨) .

(٢) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (٢/٢٠٤-٢٠٥) .

www.saida-islam.weebly.com

تَدْخُلْ أَعْيَانُهَا تَحْتَ النُّصُوصِ الْمُعَيَّنَةِ، وَإِنْ كَانَتْ تُلَائِمُ قَوَاعِدَ الشَّرْعِ، فَمِنْ هُنَالِكَ جَعَلَ الْقَوَاعِدَ هِيَ الدَّالَّةَ عَلَى اسْتِحْسَانِهَا، فَتَسْمِيَتُهُ لَهَا بِلَفْظِ البِدَعِ هُوَ مِنْ حَيْثُ فُقْدَانُ الدَّلِيلِ الْمُعَيِّنِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ الْمُعَيَّنَةِ، واسْتِحْسَانُهَا مِنْ حَيثُ دُخُولُهَا تَحتَ الْقَوَاعِدِ، وَلَمَّا بَنَى عَلَى اعْتِمَادِ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ اسْتَوَتْ عِنْدَهُ مَعَ الْأَعْمَالِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ النُّصُوصِ الْمُعَيَّنَةِ، وَصَارَ مِنَ الْقَائِلِينَ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وَسَمَّاهَا بِدَعًا فِي اللَّفْظِ، كَمَا سَمَّى عُمَرُ ﷺ الْجَمْعَ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ فِي الْمَسْجِدِ بِدْعَةً [١] .

وَقَالَ الإِمَامُ القَرَافِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَصْحَابُ – فِيمَا رَأَيْت – مُتَّفِقُونَ عَلَى إنْكَارِ الْبِدَعِ، نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ وَغَيْرُهُ، وَالْحَقُّ التَّفْصِيلُ، وَأَنَّهَا خَمْسَةُ أَقْسَامٍ (الْأَوَّلُ) : وَاجِبٌ، وَهُوَ مَا تَنَاوَلَتْهُ قَوَاعِدُ الْوُجُوبِ وَأَدِلَّتُهُ مِنَ الشَّرْعِ، كَتَدْوِينِ الْقُرْآنِ وَالشَّرَائِعِ إذَا خِيفَ عَلَيْهَا الضَّيَاعُ، **فَإِنَّ التَّبْلِيغَ لِمَنْ بَعْدَنَا مِنَ الْقُرُونِ وَاجِبٌ إجْمَاعًا، وَإِهْمَالَهُ حَرَامٌ إجْمَاعًا** .. [٢] .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَمَا سَنَّهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ لَيْسَ بِدْعَةً شَرْعِيَّةً يُنْهَى عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ بِدْعَةً لِكَوْنِهِ ابْتُدِئَ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** [٣] .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضًا : وَكُلُّ بِدْعَةٍ لَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً فَهِيَ بِدْعَةٌ سَيِّئَةٌ، وَهِيَ ضَلَالَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَمَنْ قَالَ فِي بَعْضِ الْبِدَعِ : إنَّهَا بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ إذَا قَامَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِمُسْتَحَبٍّ وَلَا وَاجِبٍ، فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إنَّهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ ﷻ [٤] .

---

(١) «الاعتصام» (١/٣٢١) .

(٢) «الفروق للقرافي» (٤/٢١٧) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢١/٣١٩) .

(٤) «المصدر السابق» (١/١٦٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ ابْنُ العَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمُحْدَثَاتِ بَعْدَ ذِكْرِ قَولِ عُمَرَ رضي الله عنه السَّابِقِ : وإِنَّمَا يُذَمُّ مِنْهَا مَا دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ومُخَالَفَةِ السُّنَّةِ، وأَمَّا مَا كَانَ مَرْدُوداً إِلَى قَوَاعِدِ الأُصُولِ، ومَبْنِيّاً عَلَيهَا، فَلَيسَ بِدْعَةً ولَا ضَلَالَةً، وهُوَ سُنَّةُ الخُلَفَاءِ والأَئِمَّةِ الفُضَلَاءِ [١] .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ :" **وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** ". هَذَا عَامٌّ مَخْصُوصٌ، وَالْمُرَادُ غَالِبُ الْبِدَعِ؛ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : هِيَ كُلُّ شَيْءٍ عُمِلَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : الْبِدْعَةُ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ : وَاجِبَةٌ، وَمَنْدُوبَةٌ، وَمُحَرَّمَةٌ، وَمَكْرُوهَةٌ، وَمُبَاحَةٌ؛ فَمِنَ الْوَاجِبَةِ : نَظْمُ أَدِلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ لِلرَّدِّ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ، وَشِبْهُ ذَلِكَ[٢]؛ وَمِنَ الْمَنْدُوبَةِ : تَصْنِيفُ كُتُبِ الْعِلْمِ، وَبِنَاءُ الْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، .. فَإِذَا عُرِفَ مَا ذَكَرْتُهُ، عُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْعَامِّ الْمَخْصُوصِ، وَكَذَا مَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ، وَيُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فِي التَّرَاوِيحِ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ** . وَلَا يَمْنَعُ مِنْ كَوْنِ الْحَدِيثِ عَامًّا مَخْصُوصًا قَوْلُهُ : **كُلُّ بِدْعَةٍ** . مُؤَكَّدًا بِكُلٍّ، بَلْ يَدْخُلُهُ التَّخْصِيصُ مَعَ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ** [٣] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ :" **مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً** ..". : فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الِابْتِدَاءِ بِالْخَيْرَاتِ، وَسَنِّ السُّنَنِ الْحَسَنَاتِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ اخْتِرَاعِ الْأَبَاطِيلِ وَالْمُسْتَقْبَحَاتِ، .. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَخْصِيصُ قَوْلِهِ ﷺ :" **كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ**

---

(١) «عارضة الأحوذي» (١٠/١٤٧) .

(٢) قلت : لقد تواتر عن السلف الصالح ذمُّ الخوض في علم الكلام، وعَدُّوهُ من شرِّ البدع في الدِّين، حتَّى قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **لِأَنْ يَلْقَى اللَّهَ الْعَبْدُ بِكُلِّ ذَنْبٍ مَا خَلَا الشِّرْكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ**. وقال مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : **الْكَلَامُ فِي الدِّينِ أَكْرَهُهُ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ بَلَدِنَا يَكْرَهُونَهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ**، .. **وَلَا أُحِبُّ الْكَلَامَ إِلَّا فِيمَا تَحْتَهُ عَمَلٌ**. ولكنْ لَمَّا دعتِ الضَّرورةُ لنَظم أدلَّةِ المتكلمين للردِّ على أهل البدع وبيان زيف شبهاتهم وعوارها، قام بعض أئمة الدين بتعلم هذه الأدلة للرَّدِّ عليهم.

(٣) «شرح مسلم للنووي» (٦/١٥٥-١٥٦) .

www.saida-islam.weebly.com

ضَلَالَةٌ ". وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُحْدَثَاتُ الْبَاطِلَةُ وَالْبِدَعُ الْمَذْمُومَةُ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ الْبِدَعَ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ : وَاجِبَةٌ، وَمَنْدُوبَةٌ، وَمُحَرَّمَةٌ، وَمَكْرُوهَةٌ، وَمُبَاحَةٌ [١] .

وقَالَ ابْنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ**، فِي لِسَانِ الْعَرَبِ اخْتِرَاعُ مَا لَمْ يَكُنْ وَابْتِدَاؤُهُ؛ فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ خِلَافًا لِلسُّنَّةِ الَّتِي مَضَى عَلَيْهَا الْعَمَلُ فَتِلْكَ بِدَعَةٌ لَا خَيْرَ فِيهَا، وَوَاجِبٌ ذَمُّهَا، وَالنَّهْيُ عَنْهَا، وَالْأَمْرُ بِاجْتِنَابِهَا، وَهِجْرَانُ مُبْتَدِعِهَا إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ سُوءُ مَذْهَبِهِ؛ وَمَا كَانَ مِنْ بِدْعَةٍ لَا تُخَالِفُ أَصْلَ الشَّرِيعَةِ وَالسُّنَّةِ، فَتِلْكَ نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِأَنَّ أَصْلَ مَا فَعَلَهُ سُنَّةٌ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي صَلَاةِ الضُّحَى، وَكَانَ لَا يَعْرِفُهَا، وَكَانَ يَقُولُ : **وَلِلضُّحَى صَلَاةٌ** ؟. وذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيبَةَ .. عَنِ الْأَعْرَجِ، قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ صَلَاةِ الضُّحَى، فَقَالَ : **بِدْعَةٌ، وَنِعْمَتِ الْبِدْعَةُ**. وَأَمَّا ابْتِدَاعُ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، فَهَذَا لَا حَرَجَ فِيهِ، وَلَا عَيْبَ عَلَى فَاعِلِهِ [٢] .

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالبِدْعَةُ كُلُّ مَا قِيلَ أَوْ فُعِلَ مِمَّا لَيسَ لَهُ أَصْلٌ فِيمَا نُسِبَ إِلَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهُوَ فِي الدِّينِ : كُلُّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي القُرْآنِ ولَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا أَنَّ : **مِنهَا** مَا يُؤْجَرُ عَلَيهِ صَاحِبُهُ ويُعْذَرُ بِمَا قَصَدَ إِلَيهِ مِنَ الخَيرِ؛ **ومِنهَا** مَا يُؤْجَرُ عَلَيهِ صَاحِبُهُ ويَكُونُ حَسَناً، وهُوَ مَا كَانَ أَصْلُهُ الإِبَاحَةَ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **نِعْمَتِ البِدْعَةُ هَذِهِ** . وهُوَ : **مَا كَانَ فِعْلَ خَيرٍ جَاءَ النَّصُّ بِعُمُومِ اسْتِحْبَابِهِ، وإِنْ لَمْ يُقَرَّرْ عَمَلُهُ فِي النَّصِّ؛ ومِنهَا** مَا يَكُونُ مَذْمُومًا ولَا يُعْذَرُ صَاحِبُهُ، وهُوَ مَا قَامَتْ بِهِ الحُجَّةُ عَلَى فَسَادِهِ، فَتَمَادَى عَلَيهِ القَائِلُ بِهِ [٣] .

---

(١) «شرح مسلم للنووي» (١٠٥/٧) .

(٢) «الاستذكار» (٦٧/٢) . والرواية عن ابن عمر صحَّحها الحافظُ ابنُ حجر في الفتح (٥٢/٣)، وقال بعدها : وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : **لَقَدْ قُتِلَ عُثْمَانُ وَمَا أَحَدٌ يُسَبِّحُهَا، وَمَا أَحْدَثَ النَّاسُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهَا.**

(٣) «الإحكام في أصول الأحكام» (٤٧/١) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ الإِمَامُ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَالْبِدْعَةُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ : لَفْظٌ مَوْضُوعٌ فِي الشَّرْعِ لِلْحَادِثِ الْمَذْمُومِ، لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَإِذَا قُيِّدَتِ الْبِدْعَةُ بِالْمُسْتَحَبَّةِ وَنَحْوِهِ فَيَجُوزُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْقَرِينَةِ، وَيَكُونُ مَجَازًا شَرْعِيًّا حَقِيقَةً لُغَوِيَّةً [١] .

وَقَالَ شَمْسُ الدِّينِ السَّفَارِينِيُّ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَإِنْ قُلْتَ : الْمُحْدَثَاتُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى بِدَعٍ مُسْتَحْسَنَةٍ، وإِلَى بِدَعٍ مُسْتَقْبَحَةٍ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ؛ قُلْتُ : الأَمْرُ كَذَلِكَ، ولَكِنَّ تَسْمِيَةَ الْمُسْتَحْسَنِ مِنْ ذَلِكَ بِدْعَةً عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ والْمَجَازِ؛ وإِلَّا فَالبِدَعُ الْمُرَادُ بِهَا مَا خَالَفَ الْمَشْرُوعَ، وتَعَدَّى بِهِ إِلَى الْمَمْنُوعِ؛ **وأَمَّا الْمُحْدَثَاتُ الحَسَنَةُ فَجَائِزَةٌ، ومِنهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ، ومِنهَا مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ** .. [٢] .

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْمُحْدَثَاتُ : مَا أُحْدِثَ وَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ، وَيُسَمَّى فِي عُرْفِ الشَّرْعِ بِدْعَةً، وَمَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ فَلَيْسَ بِبِدْعَةٍ، فَالْبِدْعَةُ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ مَذْمُومَةٌ بِخِلَافِ اللُّغَةِ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ أُحْدِثَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ يُسَمَّى بِدْعَةً، سَوَاءٌ كَانَ مَحْمُودًا أَوْ مَذْمُومًا، وَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمُحْدَثَةِ وَفِي الْأَمْرِ الْمُحْدَثِ الَّذِي وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :" **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** ".. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ :" **كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** ". مَا أُحْدِثُ وَلَا دَلِيلَ لَهُ مِنَ الشَّرْعِ بِطَرِيقٍ خَاصٍّ وَلَا عَامٍّ [٣] .

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي كَلَامِ السَّلَفِ مِنَ اسْتِحْسَانِ بَعْضِ الْبِدَعِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْبِدَعِ اللُّغَوِيَّةِ لَا الشَّرْعِيَّةِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي التَّرَاوِيحِ : **نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** . وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : **إِنْ كَانَتْ هَذِهِ بِدْعَةً، فَنِعْمَتِ الْبِدْعَةُ** [٤] . وَرُوِيَ أَنَّ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قَالَ لَهُ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ، فَقَالَ عُمَرُ : **قَدْ عَلِمْتُ، ولَكِنَّهُ**

---

(١) «فتاوى السبكي» (٢/١٠٨) .

(٢) «لوائح الأنوار شرح الحائية» (١/١٧٣ - ١٧٥) .

(٣) «فتح الباري» (١٣/٢٥٣- ٢٥٤) .

(٤) أخرجه جعفر الفريابي في «كتاب الصيام» له برقم (١٧٢) .

www.saida-islam.weebly.com

حَسَنٌ[١]. ومُرَادُهُ أَنَّ هَذَا الفِعْلَ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَذَا الوَجْهِ قَبلَ هَذَا الوَقْتِ، ولَكِنْ لَهُ أُصُولٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ يُرْجَعُ إِلَيهَا . فَمِنْهَا : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحُثُّ عَلَى قِيَامِ رَمَضَانَ، ويُرَغِّبُ فِيهِ، وكَانَ النَّاسُ فِي زَمَنِهِ يَقُومُونَ فِي الْمَسْجِدِ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً ووُحْدَاناً، وهُوَ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فِي رَمَضَانَ غَيرَ لَيلَةٍ، ثُمَّ امْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ، مُعَلِّلاً بِأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيهِمْ، فَيَعْجِزُوا عَنِ القِيَامِ بِهِ، وهَذَا قَدْ أُمِنَ بَعْدَهُ ﷺ [٢] .

وَمِنْ ذَلِكَ : أَذَانُ الجُمُعَةِ الأَوَّلُ، زَادَهُ عُثْمَانُ لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيهِ، وأَقَرَّهُ عَلِيٌّ، وَاسْتَمَرَّ عَمَلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيهِ، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : **هُوَ بِدْعَةٌ** [٣]. ولَعَلَّهُ أَرَادَ مَا أَرَادَ أَبُوهُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ .

وَمِنْ ذَلِكَ جَمْعُ الْمُصْحَفِ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ، تَوَقَّفَ فِيهِ زَيدُ بْنُ ثَابِتٍ، وقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ : كَيفَ تَفْعَلانِ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ ؟ ثُمَّ عَلِمَ أَنَّه مَصْلَحَةٌ، فَوَافَقَ عَلَى جَمْعِهِ[٤]، وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ بِكِتَابَةِ الوَحْيِ، ولَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يُكْتَبَ مُفَرَّقاً أَوْ مَجْمُوعاً، بَلْ جَمْعُهُ صَارَ أَصْلَحَ. وكَذَلِكَ جَمْعُ عُثْمَانَ الأُمَّةَ عَلَى مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، وإِعْدَامُهُ لِمَا خَالَفَهُ خَشْيَةَ تَفَرُّقِ الأُمَّةِ، وقَدِ اسْتَحْسَنَهُ عَلِيٌّ وأَكْثَرُ الصَّحَابَةِ، وكَانَ ذَلِكَ عَينَ الْمَصْلَحَةِ .

وكَذَلِكَ قِتَالُ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ : تَوَقَّفَ فِيهِ عُمَرُ وغَيرُهُ، حَتَّى بَيَّنَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ أَصْلَهُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ [٥]، فَوَافَقَهُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه ابن منيع في مسنده كما في «كنز العمال» (٢٣٤٧١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٩٢٤) و(١١٢٩) ومسلم (٧٦١) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٤١) .

(٤) رواه البخاري برقم (٤٦٧٩).

(٥) رواه البخاري (١٤٠٠) ومسلم (٢٠) (٣٢) عن أبي هريرة .

www.saida-islam.weebly.com

ومِنْ ذَلِكَ القَصَصُ، وقَدْ قَالَ غُضَيفُ بْنُ الحَارِثِ : **إنَّه بِدْعَةٌ**[١]؛ وقَالَ الحَسَنُ : **القَصَصُ بِدْعَةٌ، ونِعْمَتِ البِدْعَةُ، كَمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وحَاجَةٍ مَقْضِيَّةٍ، وأَخٍ مُسْتَفَادٍ**[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩٧٠) وقال الهيثمي : رواه أحمد والبزار، وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وهو منكر الحديث .

(٢) القَصَصُ : هُوَ إِتْبَاعُ الْقِصَّة الْمَاضِيَة بالحكاية عَنْهَا وَالشَّرْح لَهَا، وَهَذَا فِي الْغَالِب عبارَةٌ عَمَّن يروي أَخْبَار الماضين؛ وَهَذَا لَا يُذَمُّ لنَفسِهِ، لِأَن فِي إِيرَاد أَخْبَار السالفين عِبْرَةً لمعتبر، وعظةً لمزدجر، واقتداءً بصواب لمتَّبِع، وَقد قَالَ الله ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾. وَقَالَ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾. وَقَالَ : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾. وَإِنَّمَا كره بعض السّلف الْقَصَص لأشْيَاء، منها: أَن الْقَوْم كَانُوا على الِاقْتِدَاء والاتِّباع، فَكَانُوا إِذا رَأَوْا مَا لم يكن على عهد رَسُول الله ﷺ أنكروه حَتَّى أَن أَبَا بكر وَعمر لَمَّا أَرَادَا جمع الْقُرْآن قَالَ زيد : أتفعلان شَيْئا لم يَفْعَله رَسُول الله ﷺ؟. كما أَن الْقَصَص لأخبار الْمُتَقَدِّمين تندر صِحَّته، خُصُوصاً مَا ينْقل عَن بني إِسْرَائِيل، وَفِي شرعنا غُنيَة . وقد جاء عن كثير من السلف فعله والترغيب فيه؛ فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : **مَا تَصَدَّقَ مُؤْمِنٌ قَطُّ بِصَدَقَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ مَوْعِظَةٍ يَعِظُ بِهَا قَوْمًا، فَيَفْتَرِقُونَ قَدْ نَفَعَهُمُ اللَّهُ بِهَا**. وعَنْ زِيَادٍ النُّمَيْرِيِّ أَنَّهُ أَتَى أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ لِي : **قُصَّ!** فَقُلْتُ : كَيْفَ وَالنَّاسُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ؟ فَقَالَ : **لَوْ كَانَ بِدْعَةً مَا أَمَرْنَاكَ بِهِ**. فَقَصَصْتُ وَهُوَ يُؤَمِّنُ . وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : أَتَيْتُ سَعِيدَ ابْنَ الْمُسَيَّبِ لِأَنْظُرَ مَا عِلْمُهُ، فَإِذَا قَاصٌّ قُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ فِي صَلَاةٍ. وعَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: **أَدْرَكْتُ هَذَا الْمَسْجِدَ، مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ، وَمَا فِيهِ حَلْقَةٌ تُنْسَبُ إِلَى الْفِقْهِ إِلَّا حَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ تُنْسَبُ إِلَى مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، وَسَائِرُ الْمَسْجِدِ قُصَّاصٌ**. وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : **الْقَصَصُ بِدْعَةٌ، وَنِعْمَتِ الْبِدْعَةُ، كَمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وَسُؤَالٍ مُعْطًى، وَأَخٍ مُسْتَفَادٍ، وَعِلْمٍ يُصَابُ!** وقِيلَ لِحُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : مَا تَقُولُ فِي الْجُلُوسِ إِلَى الْقُصَّاصِ؟ قَالَ : **اجْلِسْ حَيْثُ تَعْلَمُ أَنَّهُ أَرَقُّ لِقَلْبِكَ**. وعن حَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : قُلْتُ لِعَمِّي فِي الْقُصَّاصِ، فَقَالَ : **الْقُصَّاصُ الَّذِينَ يذكرُونَ الْجَنَّة، وَالنَّارَ وَالتَّخْوِيفَ، وَلَهُمْ نِيَّةٌ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْدَثُوا وَضْعَ الْأَخْبَارِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ، فَلَا أَرَاهُ**. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : **وَلَوْ قُلْتُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ أَيْضًا يَسْمَعُهُمُ الْجَاهِلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُ، وَلَعَلَّهُ يَنْتَفِعُ بِكَلِمَةٍ أَوْ يَرْجِعُ عَن أَمر**. كَأَن أَبَا عَبْدَ اللَّهِ كَرِهَ أَنْ يَمْنَعَهَا، وَقَالَ : رُبَّمَا جاؤوا بِالْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ. وقال أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَزِيُّ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : **يُعْجِبُنِي أَمْرُ الْقُصَّاصِ؛ لِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ الْمِيزَانَ وَعَذَاب الْقَبْر**. قلت لِأَبِي عَبْدِ اللَّه : فَتَرَى =

www.saida-islam.weebly.com

وإِنَّمَا عَنَى هَؤُلاءِ بِأَنَّهُ بِدْعَةٌ : **الهَيْئَةَ الاِجْتِمَاعِيَّةَ عَلَيهِ في وَقْتٍ مُعَيَّنٍ**، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ يَقُصُّ عَلَى أَصْحَابِهِ فِيهِ غَيرَ خُطَبِهِ الرَّاتِبَةِ في الجُمَعِ والأَعْيَادِ، وإِنَّمَا كَانَ يُذَكِّرُهُم أَحْيَاناً، أَوْ عِنْدَ حُدُوثِ أَمْرٍ يَحْتَاجُ إِلَى التَّذْكِيرِ عِنْدَهُ، **ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ اجْتَمَعُوا عَلَى تَعْيِينِ وَقْتٍ لَهُ**، كَمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ : أَنَّهُ كَانَ يُذَكِّرُ أَصْحَابَهُ كُلَّ يَومِ خَمِيسٍ ..

وكَثِيرٌ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي حَدَثَتْ، ولَمْ يَكُنْ قَدِ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في أَنَّهَا هَلْ هِيَ بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى السُّنَّةِ، أَمْ لَا ؟

فَمِنْهَا : كِتَابَةُ الحَدِيثِ، نَهَى عَنْهُ عُمَرُ وطَائِفَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ورَخَّصَ فِيهَا الأَكْثَرُونَ، وَاسْتَدَلُّوا لَهُ بِأَحَادِيثَ مِنَ السُّنَّةِ.

ومِنهَا : كِتَابَةُ تَفْسِيرِ الحَدِيثِ والقُرْآنِ، كَرِهَهُ قَومٌ مِنَ العُلَمَاءِ، ورَخَّصَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْهُم.

وكَذَلِكَ اخْتِلَافُهُم في كِتَابَةِ الرَّأْيِ في الحَلَالِ وَالحَرَامِ ونَحْوِهِ، وفي تَوْسِعَةِ الكَلَامِ في الْمُعَامَلَاتِ وأَعْمَالِ القُلُوبِ، الَّتِي لَمْ تُنْقَلْ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ؛ وكَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ يَكْرَهُ أَكْثَرَ ذَلِكَ .

=الذَّهَابَ إِلَيْهِمْ ؟ قَالَ : **إِي لَعَمْرِي إِذَا كَانَ صَدُوقًا، لِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ الْمِيزَانَ وَعَذَابَ الْقَبْرِ**. قَالَ: وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى أَبِي عبد الله الوسوسة. فَقَالَ : **عَلَيْك بِالْقصاصِ، مَا أَنْفَعَ مُجَالَسَتَهُمْ**. وحدَّث إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ذَكَرَ الْقُصَّاصَ، فَقَالَ: **مَا أَنْفَعَهُمْ لِلْعَامَّةِ وَإِنْ كَانَ عَامَّةُ مَا يُحَدِّثُونَ بِهِ كَذِبًا**. والْقُصَّاصُ وَالْوُعَّاظُ تَرَسَّمُوا بِهَذَا الْأَمْرِ لِخَطَابِ الْعَوَامِّ، فَالْعَوَامُّ يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ مَا لَا يَنْتَفِعُونَ بِالْعَالِمِ الْكَبِيرِ. إِلَّا أَنَّهُ دَخَلَتْ عَلَى بَعْضِهِمْ آفَاتٌ. وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ يَحْضُرُونَ عِنْدَهُمْ وَيَسْمَعُونَ مِنْهُمْ وَيَبْكُونَ لِوَعْظِهِمْ؛ فعَن الْقَاسِم بْن مُحَمَّد قَالَ : رَأَيْت ابْن عمر عِنْد الْقَاص رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو حَتَّى تُحَاذِيَا مَنْكِبَيْهِ. وعَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهِكٍ قَالَ : انْطَلَقْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ إِلَى عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَهُوَ يَقُصُّ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى ابْنِ عُمَرَ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تُهْرِقَانِ. وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ : **كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْلِسُ إِلَى الْقَاصِّ مَعَ الْعَامَّةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ إِذَا رَفَعَ** .
«القُصَّاص والْمُذكِّرون لابن الجوزي» ص (١-٥٠).

www.saida-islam.weebly.com

وفي هَذِهِ الأَزْمَانِ الَّتِي بَعُدَ العَهْدُ فِيهَا بِعُلُومِ السَّلَفِ، يَتَعَيَّنُ ضَبْطُ مَا نُقِلَ عَنْهُم مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، لِيَتَمَيَّزَ بِهِ مَا كَانَ مِنَ العِلْمِ مَوْجُوداً فِي زَمَانِهِم، ومَا حَدَثَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَهُم، فيُعْلَمَ بِذَلِكَ السُّنَّةُ مِنَ البِدْعَةِ [١] .

وقَالَ العَلَّامَةُ أَبُو شَامَةَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ثُمَّ الْحَوَادِثُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى بِدَعٍ مُسْتَحْسَنَةٍ، وإِلَى بِدَعٍ مُسْتَقْبَحَةٍ .. فَالبِدَعُ الْحَسَنَةُ مُتَّفَقٌ عَلَى جَوَازِ فِعْلِهَا، والِاسْتِحْبَابِ لَهَا، ورَجَاءِ الثَّوَابِ لِمَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ فِيهَا؛ وَهِي كُلُّ مُبْتَدَعٍ مُوَافِقٍ لِقَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ، غَيرِ مُخَالِفٍ لِشَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ فِعْلِهِ مَحْذُورٌ شَرْعِيٌّ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ بِنَاءِ الْمَنَابِرِ والرُّبُطِ والْمَدَارِسِ وخَانَاتِ السَّبِيلِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ الَّتِي لَمْ تُعْهَدْ فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ، فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِن اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ، والْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .. وَمِمَّا يُعَدُّ أَيْضًا مِنَ الْبِدَعِ الْحَسَنَةِ : التَّصَانِيفُ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الشَّرْعِيَّةِ، عَلَى اخْتِلَافِ فُنُونِهَا، وَتَقْرِيرُ قَوَاعِدِهَا، وتَقْسِيمُهَا، وتَقْرِيرُهَا، وَتَعْلِيمُهَا، وَكَثْرَةُ التَّفْرِيعَاتِ، وَفَرضُ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَمْ تَقَعْ، وَتَحْقِيقُ الْأَجْوِبَةِ فِيهَا؛ وَتَفْسِيرُ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وأَخْبَارُ النُّبُوَّةِ، وَالْكَلَامُ عَلَى الأَسَانِيدِ والْمُتُونِ، وتَتَبُّعُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَثْرِهِ ونَظْمِهِ، وَتَدْوِينُ كُلِّ ذَلِكَ، وَاسْتِخْرَاجُ عُلُومٍ جَمَّةٍ مِنْهُ، كَالنَّحوِ والْمَعَانِي وَالْبَيَانِ والأَوْزَانِ؛ فَذَلِكَ وَمَا شَاكَلَهُ مِنْ عُلُومٍ حَسَنَةٍ، ظَاهِرٌ فَائِدَتُهُ، مُعِينٌ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى، وَفَهْمِ مَعَانِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكُلُّ ذَلِكَ مَأْمُورٌ بِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ فِعلِهِ مَحْذُورٌ شَرْعِيٌّ ..

قُلْتُ – القَائِلُ هُوَ أَبُو شَامَةَ –: وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إِقْرَارُهُ ﷺ بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى صَلَاتِهِ رَكْعَتَيْنِ بَعدَ كُلِّ وُضُوءٍ، وإِنْ كَانَ هُوَ ﷺ لَمْ يَشْرَعْ خُصُوصِيَّةَ ذَلِكَ بِقَولٍ وَلَا فِعْلٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بَابَ التَّطَوُّعِ بِالصَّلَاةِ مَفْتُوحٌ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْمَكْرُوهَةِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ إِقْرَارُهُ ﷺ الصَّحَابِيَّ الآخَرَ عَلَى مُلَازَمَةِ قِرَاءَةِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، دُونَ غَيرِهَا مِنَ السُّوَرِ [٢] .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧٨٣-٧٨٨) .

(٢) قلت : ومن ذلك أيضاً الركعتان اللَّتان سَنَّهُما خبيب بن عديٍّ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا، كما في صحيح البخاري (٣٠٤٥) . وهو بعض ما يستدلُّ به من يقول بمشروعيَّةِ بَعضِ أَفرَادِ «البدعة الإضافية» على ما سيأتي ذكره بإجمال وإيجاز .

www.saida-islam.weebly.com

وَأَمَّا الْبِدَعُ الْمُسْتَقْبَحَةُ فَهِيَ .. كُلُّ مَا كَانَ مُخَالِفاً لِلشَّرِيعَةِ، أَوْ مُلْتَزماً لِمُخَالَفَتِهَا، وَذَلِكَ مُنْقَسِمٌ إِلَى مُحَرَّمٍ ومَكْرُوهٍ، وَيَخْتَلفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الوَقَائِعِ، وبِحَسَبِ مَا بِهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ، تَارَةً يَنْتَهِي ذَلِكَ إِلَى مَا يُوجِبُ التَّحْرِيمَ، وَتارَةً لَا يتَجَاوَزُ صِفَةَ كَرَاهَةِ التَّنْزِيهِ؛ وكُلُّ فَقِيهٍ مُوَفَّقٍ يَتَمَكَّنُ بِعَونِ اللهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ، مَهْمَا رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي إِيْمَانِهِ وَعِلْمِهِ [١] .

وقَالَ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنِ البِدَعِ : فَقَائِلُهَا لَا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَ مَا نَفَتْهُ السُّنَّةُ، وَيَنْفِيَ مَا أَثْبَتَتْهُ السُّنَّةُ، وَيُحَسِّنَ مَا قَبَّحَتْهُ السُّنَّةُ، أَوْ يُقَبِّحَ مَا حَسَّنَتِ السُّنَّةُ، **وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بِدْعَةً**؛ وَهَذَا الْقَدْرُ قَدْ يَقَعُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ خَطَأً فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ؛ لَكِنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ يُخَالِفُونَ السُّنَّةَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْلُومَةَ [٢] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضًا : وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَسُنَّهُ وَلَا اسْتَحَبَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُنْكَرَاتِ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ فِي مِثْلِ هَذَا إنَّهُ بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ؛ إذِ الْبِدْعَةُ الْحَسَنَةُ – عِنْدَ مَنْ يُقَسِّمُ الْبِدَعَ إلَى حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ – لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيَقُومَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى اسْتِحْبَابِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ يَقُولُ : الْبِدْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَذْمُومَةٌ، لِقَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ :" **كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** ". وَيَقُولُ قَوْلُ عُمَرَ فِي التَّرَاوِيحِ : **نِعْمَتْ الْبِدْعَةُ هَذِهِ** . إنَّمَا أَسْمَاهَا بِدْعَةً : بِاعْتِبَارِ وَضْعِ اللُّغَةِ . فَالْبِدْعَةُ فِي الشَّرْعِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : **مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى اسْتِحْبَابِهِ** . وَمَآلُ الْقَوْلَيْنِ وَاحِدٌ؛ إذْ هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يُسْتَحَبَّ أَوْ يَجِبْ مِنَ الشَّرْعِ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ؛ فَمَنِ اتَّخَذَ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ عِبَادَةً وَدِينًا وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا، فَهُوَ ضَالٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ [٣] .

---

(١) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» ص (٢٢) وما بعدها.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/٧٢) .

(٣) «المصدر السابق» (٢٧/١٥٢) قلت : يظهر من كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لا خلافَ حقيقيَّ بين من يُقَسِّمُ البدعةَ إلى حسنةٍ وقبيحةٍ، وبين من لا يُقَسِّمُهَا، وأنَّ الخلاف بينهم خلافٌ لفظيٌّ، وأنَّ مآل قوليهم واحدٌ. قلت : إلَّا في البدعة الإضافية، كما سيتبين قريباً .

www.saida-islam.weebly.com

وقَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ الوَهَّابِ النَّجْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ مَا نَحْنُ عَلَيهِ مِنَ الدِّينِ، وأَنَّهُ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، بِخَلْعِ جَمِيعِ الشِّرْكِ، ومُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِيهَا، بِخَلْعِ جَمِيعِ البِدَعِ، **إِلَّا بِدْعَةً لَهَا أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ**، كَجَمْعِ الْمُصْحَفِ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ، وجَمْعِ عُمَرَ رضي الله عنه الصَّحَابَةَ عَلَى التَّرَاوِيحِ جَمَاعَةً، وجَمْعِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَصْحَابَهُ عَلَى القَّصَصِ كُلَّ خَمِيسٍ، ونَحْوِ ذَلِكَ، **فَهَذَا حَسَنٌ** . واللهُ أَعْلَمُ [(١)] .

وتَتمِيمًا لِلفَائِدَةِ، يَحسُنُ بِنَا هَاهُنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَى تَقْسِيمِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ لِلبِدْعَةِ الشَّرعِيَّةِ، إِلَى حَقِيقِيَّةٍ وإِضَافِيَّةٍ :

فَنَقُولُ : لَقَدْ تَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ البِدْعَةَ الْمَذْمُومَةَ شَرعًا هِيَ الْمُحْدَثُ فِي الدِّينِ، مِمَّا لَيسَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ؛ وأَنَّ الْمُحْدَثَ فِي الدِّينِ مِمَّا لَهُ أَصْلٌ يَشْهَدُ لَهُ، – سَوَاءٌ كَانَ خَاصًّا أَوْ عَامًّا – لَا يُسَمَّى بِدْعَةً شَرعًا، وإِنْ كَانَ يُسَمَّى بِدْعَةً فِي اللُّغَةِ، وهُوَ لَا يُذَمُّ شَرعاً، بَلْ إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ وَاجِباً، أَوْ مَنْدُوباً، بِحَسَبِ دَرَجَةِ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي تَتَحَقَّقُ بِهَذَا الْمُحْدَثِ؛ وهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي جَانِبِ العَادَاتِ والوَسَائِلِ، لَا فِي جَانِبِ العِبَادَاتِ والْمَقَاصِدِ؛ وقَدْ سَبَقَ كَلَامُ الأَئِمَّةِ فِي هَذَا بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيهِ .

وبَقِيَ نَوعٌ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ فِي الدِّينِ، مِمَّا لَهُ أَصْلٌ يَشْهَدُ لَهُ عَلَى سَبِيلِ العُمُومِ، لَكِنْ لَا دَلِيلَ عَلَيهِ عَلَى سَبِيلِ الخُصُوصِ، **وهُوَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِجَانِبِ العِبَادَاتِ**؛ وهِيَ الْمُحْدَثَاتُ الَّتِي قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَى ثُبُوتِهَا مِنْ جِهَةِ أَصْلِهَا، إِلَّا أَنَّ وَصْفَهَا – مِنْ جِهَةِ الْكَيْفِيَّاتِ أَوِ الأَحْوَالِ أَوِ التَّفَاصِيلِ أَوِ الأَوْقَاتِ – لَمْ يَقُمْ عَلَيهِ دَلِيلٌ؛ وهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ بِـ«البِدْعَةِ الإِضَافِيَّةِ»؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وأَمَّا **البِدْعَةُ الحَقِيقِيَّةُ** : فهِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ لَا مِنْ كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا إِجماع، وَلَا قِيَاسٍ، وَلَا اسْتِدْلَالٍ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ أَهل الْعِلْمِ، لَا فِي الْجُمْلَةِ، وَلَا فِي التَّفْصِيلِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِدْعَةً . كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ لِأَنَّهَا شَيْءٌ مُخْتَرَعٌ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ [(٢)]. أَيْ أَنَّهَا غَيرُ مَشْرُوعَةٍ أَصْلاً ولَا وَصْفاً .. وفِي هَذَا النَّوعِ يَقُولُ الحَافِظُ

---

(١) «الرسائل الشخصية» الرسالة السادسة عشرة ص (١٠٣) .

(٢) «الاعتصام» (٢/١٤١-١٤٢) .

www.saida-islam.weebly.com

ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِعَمَلٍ لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، فَعَمَلُهُ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِحَالِ الَّذِينَ كَانَتْ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً، وَهَذَا كَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسَمَاعِ الْمَلَاهِي، أَوْ بِالرَّقْصِ، أَوْ بِكَشْفِ الرَّأْسِ فِي غَيْرِ الْإِحْرَامِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الَّتِي لَمْ يَشْرَعِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ التَّقَرُّبَ بِهَا بِالْكُلِّيَّةِ [١] .

ثُمَّ قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وأَمَّا **الْبِدْعَةُ الإِضَافِيَّةُ** فَهِيَ الَّتِي لَهَا شَائِبَتَانِ : **إِحْدَاهُمَا** : لَهَا مِنَ الأَدلة مُتَعَلَّق، فَلَا تَكُونُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ بِدْعَةً. **والأُخْرَى** : لَيْسَ لَهَا مُتَعَلَّق إِلَّا مِثْلَ مَا لِلْبِدْعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ. فَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ الَّذِي لَهُ شَائِبَتَانِ لَمْ يَتَخَلَّصْ لأَحد الطَّرَفَيْنِ؛ وَضَعْنَا لَهُ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ؛ وَهِيَ : «الْبِدْعَةُ الإِضَافِيَّةُ»؛ أَيْ : أَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ سُنَّةٌ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى دَلِيلٍ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجِهَةِ الأُخْرَى بِدْعَةٌ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى شُبْهَةٍ لَا إِلَى دَلِيلٍ، أَوْ غَيْرُ مُسْتَنِدَةٍ إِلَى شَيءٍ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى : أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةِ الْأَصْلِ قَائِمٌ، وَمِنْ جِهَةِ الْكَيْفِيَّاتِ أَوِ الأَحْوَالِ أَوِ التَّفَاصِيلِ أَوِ الأَوْقَاتِ لَمْ يَقُمْ عَلَيهَا دَلِيلٌ، مَعَ أَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَيهِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ وُقُوعُهَا فِي التَّعَبُّدِيَّاتِ، لَا فِي الْعَادِيَّاتِ الْمَحْضَةِ .. إِلَّا أَنَّ الإِضَافِيَّةَ أَوّلاً عَلَى ضَرْبَيْنِ : **أَحَدُهُمَا** : يَقْرُبُ مِنَ الْحَقِيقِيَّةِ حَتَّى تَكَادَ الْبِدْعَةُ تُعَدُّ حَقِيقِيَّةً؛ **وَالْآخَرُ** : يَبْعُدُ مِنْهَا حَتَّى تَكَادَ تَكُونُ سُنَّةً مَحْضَةً [٢] .

ولِلْبِدْعَةِ الإِضَافِيَّةِ صُوَرٌ، ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ، عَلَى رَأْسِهَا صُورَتَانِ :

الأُوْلَى : تَقْيِيدُ مَا أَطْلَقَهُ الشَّارِعُ مِنَ العِبَادَاتِ، بِأَنْ يَتَعَبَّدَ بِعِبَادَةٍ مَشْرُوعَةٍ عَلَى الإِطْلَاقِ، فَيُقَيِّدُهَا بِصِفَةٍ غَيرِ وَارِدَةٍ فِي الشَّرْعِ؛ فِي عَدَدٍ، أَوْ زَمَانٍ، أَوْ مَكَانٍ، أَوْ هَيْئَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ كَأَنْ يُصَلِّيَ فِي وَقْتٍ مَا عَدَداً مُعَيَّناً مِنَ الرَّكَعَاتِ، أَوْ أَنْ يُخَصِّصَ ذِكْراً مُعَيَّناً لِحَالٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ مُعَيَّنٍ .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/١٧٨) .

(٢) «الاعتصام» (٢/١٤١-١٤٢) .

www.saida-islam.weebly.com

والثَّانِيَةُ : إِطْلَاقُ الْمُقَيَّدِ مِنَ العِبَادَاتِ؛ بِأَنْ يَزِيدَ فِي الأَعْدَادِ الوَارِدَةِ فِي عِبَادَةٍ مُعَيَّنَةٍ، مِنْ صَلَاةٍ أَوْ ذِكْرٍ أَوْ دُعَاءٍ، أَوْ غَيرِهَا [(١)] .

فَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ، مِنَ العُلَمَاءِ مَنْ رَدَّهُ وأَلْحَقَهُ بِالبِدَعِ الحَقِيقِيَّةِ، كَالشَّاطِبِيِّ وابْنِ تَيمِيَةَ وغَيرِهِم؛ ومِنهُم مَنْ قَبِلَ بَعْضَ صُوَرِهِ، وعَدَّهَا مِنْ جِنْسِ البِدَعِ اللُّغَوِيَّةِ الْمَقْبُولَةِ، بِشُرُوطٍ؛ مِنهَا : عَدَمُ وُرُودِ النَّهيِ عَنهَا بِوَصْفِهَا الحَادِثِ، وعَدَمُ اعْتِقَادِ سُنِّيَّتَهَا بِهَذَا الوَصْفِ، وَغَيرُ ذَلِكَ [(٢)].

قُلْتُ : وَهَذَا النَّوعُ مِنَ البِدَعِ لَيسَ هُوَ مَوضُوعَ بَحْثِنَا، لِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّ «**الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ لَيسَ مِنْ قَبِيلِ العِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ، الَّتِي جَاءَ الشَّرْعُ بِتَحْدِيدِ هَيئَاتِهَا وتَفَاصِيلِهَا، وإِنَّمَا جَاءَ الشَّرعُ بِالأَمْرِ بِإِقَامَةِ الدِّينِ أَمْراً مُطْلَقاً، أَمَّا تَفَاصِيلُهُ وَوَسَائِلُهُ فَهِيَ تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ والأَحْوَالِ، بِمَا يُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ الشَّرْعِيَّةَ؛ فَلَا يَدْخُلُ أَصْلاً فِي مَفْهُومِ البِدْعَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَذْمُومَةِ، لِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وسَيَأْتِي مَزِيدٌ مِنَ الإِيْضَاحِ .

❖❖❖❖❖

---

(١) «البدعة المحمودة والبدعة الإضافية» للشيخ عبد الفتاح قديش اليافعي ص (٦٥) .

(٢) قلت : ومَعَ أَنَّ ابْنَ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أَنَّ الصُّورَةَ الأُوْلَى – وكذلك الثَّانِيَة – مِنَ البِدْعَةِ الإِضَافِيَّةِ بِدْعَةٌ مَذْمُومَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ اعْتَبَرَ مَنْ أَجَازَهَا اجْتِهَاداً، أَوْ قَلَّدَ مَنِ اجْتَهَدَ فِي جَوَازِهَا مَعْذُوراً مَأْجُوراً، بَلْ قَدْ يَكُونُ صِدِّيقًا؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ والعُبَّادِ، بَلْ والأُمَرَاءِ مَعْذُوراً فِيمَا أَحْدَثَهُ لِنَوعِ اجْتِهَادٍ؛ فَالغَرَض أَنْ يُعْرَفَ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ، وإِنْ كَانَ التَّارِكُ لَهُ قَدْ يَكُونُ مَعْذُوراً لِاجْتِهَادِهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ صِدِّيقاً عَظِيماً، فَلَيسَ مِنْ شَرْطِ الصِّدِّيقِ أَنْ يَكُونَ قَولُهُ كُلُّهُ صَحِيحاً، وعَمَلُهُ كُلُّهُ سُنَّةً، إِذَا كَانَ، يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ . «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٠٦/٢) . وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً : فَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ؛ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ. «مجموع الفتاوى» (٣٦/٢٣) . ولمزيد من التَّفصيل في هذا الموضوع يرجع إلى ما كتبه أخونا الفاضل الشُّيخ عبد الفتاح قُدَيش اليافعيُّ – حفظه الله – في رسالته الموسومة ب«البدعة المحمودة والبدعة الإضافية بين المجيزين والمانعين» .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِي :

بَيَانُ الفَرْقِ بَينَ البِدْعَةِ الْمَذمُومَةِ والْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ [١] :

لَا بُدَّ هُنَا مِنْ تَوضِيحِ الفَرْقِ بَينَ الْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ والبِدْعَةِ، حَتَّى لَا يَقَعَ الخَلْطُ بَينَهُمَا، فَيُظَنَّ أَنَّ العَمَلَ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مِنَ الابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، فَيُؤَدِّيَ إِلَى تَعْطِيلِ كَثِيرٍ مِنْ مَصَالِحِ الأُمَّةِ، ويُعِيقَ مَسِيرَةَ تَرَقِّيهَا وتَقَدُّمِهَا، كَمَا أَنَّهُ يُؤَدِّيْ إِلَى ذَمِّ مَا هُوَ مَحْمُودٌ شَرْعاً مِنَ الْمُحْدَثَاتِ، لِتَحْقِيقِهَا مَقَاصِدَهُ، ودُخُولِهَا تَحتَ قَوَاعِدِ الشَّرعِ وُجُوباً أَوْ نَدْباً، لِكَونِهَا وَسِيلَةً لِذَلِكَ، وكَمَا أَنَّهُ يَنْسُبُ الضَّلَالَ إِلَى الأُمَّةِ الْمَعْصُومَةِ مِنَ الاجْتِمَاعِ عَلَى الضَّلَالَةِ، حَيثُ اجْتَمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يَرِدْ فِعْلُهَا بِعَيْنِهَا عَنِ الْمَعْصُومِ ﷺ .

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَكِنْ أَعْظَمُ الْمُهِمِّ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيرِهِ تَمْيِيزُ السُّنَّةِ مِنَ الْبِدْعَةِ، إِذِ السُّنَّةُ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ؛ والبِدْعَةُ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنَ الدِّينِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْبَابَ كَثُرَ فِيهِ اضْطِرَابُ النَّاسِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، حَيْثُ يَزْعُمُ كُلُّ فَرِيقٍ أَنَّ طَرِيقَهُ هُوَ السُّنَّةُ، وَطَرِيقَ مُخَالِفِهِ هُوَ الْبِدْعَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مُخَالِفِهِ بِحُكْمِ الْمُبْتَدِعِ، فَيَقُومُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ [٢] .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً فِي التَّمْيِيزِ بَينَ السُّنَّةِ وَالبِدْعَةِ : **السُّنَّةُ : هِيَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ طَاعَةٌ للهِ وَرَسُولِهِ، سَوَاءٌ فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ فُعِلَ عَلَى زَمَانِهِ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ وَلَمْ يُفْعَلْ عَلَى زَمَانِهِ، لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهِ، أَوْ وُجُودِ الْمَانِعِ مِنْهُ** [٣] .

---

(١) قال العلَّامة محمد الأمين الشَّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فالحاصل أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يتعلَّقون بالمصالح المرسلة الَّتي لم يدلَّ دليل على إلغائها، ولم تعارضها مفسدة راجحة أو مساوية، وأنَّ جميع المذاهب يتعلَّق أهلها بالمصالح المرسلة، وإن زعموا التباعد منها، ومن تَتَبَّعَ وقائع الصَّحابة وفروع المذاهب علم صحَّة ذلك . «المصالح المرسلة للشنقيطي» ص (٢١) .

(٢) «الاستقامة» (١/١٣) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢١/٣١٧) .

www.saida-islam.weebly.com

فَالمَصْلَحَةُ المُرْسَلَةُ : هِيَ كُلُّ مَصْلَحَةٍ دَاخِلَةٍ فِي مَقَاصِدِ الشَّارِعِ، ولَمْ يَرِدْ فِي الشَّرْعِ نَصٌّ عَلَى اعْتِبَارِهَا بِعَيْنِهَا أَوْ بِنَوْعِهَا، ولَا عَلَى اسْتِبْعَادِهَا . وقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِهَا : هُوَ أَنْ يَرَى الْمُجْتَهِدُ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَجْلِبُ مَنْفَعَةً رَاجِحَةً؛ وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ مَا يَنْفِيه [١] .

وقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ بَيَانِهِ لِلْمَعْنَى الْمُنَاسِبِ الَّذِي يُرْبَطُ بِهِ الْحُكْمُ : القِسْمُ الثَّالِثُ : مَا سَكَتَتْ عَنْهُ الشَّوَاهِدُ الْخَاصَّةُ، فَلَمْ تَشْهَدْ بِاعْتِبَارِهِ وَلَا بِإِلْغَائِهِ، فَهَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ: ..

وَالثَّانِي : أَنْ يُلَائِمَ تَصَرُّفَاتِ الشَّرْعِ، وَهُوَ أَنْ يُوجَدَ لِذَلِكَ الْمَعْنَى جِنْسٌ اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي الْجُمْلَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ الْمُرْسَلُ، الْمُسَمَّى بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ بَسْطِهِ بِالْأَمْثِلَةِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ وَجْهُهُ بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى، وَلْنَقْتَصِرْ عَلَى عَشْرَةِ أَمْثِلَةٍ . ثُمَّ ذَكَرَهَا .. إِلَى أَنْ قَالَ : هَذِهِ أَمْثِلَةٌ عَشَرَةٌ، تُوَضِّحُ لَكَ الْوَجْهَ الْعَمَلِيَّ فِي الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وَتُبَيِّنُ لَكَ اعْتِبَارَ أُمُورٍ :

أَحَدُهَا : الْمُلَاءَمَةُ لِمَقَاصِدِ الشَّرْعِ، بِحَيْثُ لَا تُنَافِي أَصْلًا مِنْ أُصُولِهِ، وَلَا دَلِيلًا مِنْ أَدِلَّتِهِ.

والثَّانِي : أَنَّ عَامَّةَ النَّظَرِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ فِيمَا عُقِلَ مَعْنَاهُ، وجَرَى عَلَى ذَوقِ الْمُنَاسِبَاتِ الْمَعْقُولَةِ الْمَعْنَى، الَّتِي إِذَا عُرِضَتْ عَلَى الْعُقُولِ تَلَقَّتْهَا بِالْقَبُولِ، فَلَا مَدْخَلَ لَهَا فِي التَّعَبُّدَاتِ، وَلَا مَا جَرَى مَجْرَاهَا مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، لِأَنَّ عَامَّةَ التَّعَبُّدَاتِ لَا يُعْقَلُ لَهَا مَعْنًى عَلَى التَّفْصِيلِ، كَالْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي زَمَانٍ مَخْصُوصٍ دُونَ غَيرِهِ، والحَجِّ، ونَحوِ ذَلِكَ [٢] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : وأَمَّا **البِدْعَةُ** : فَهِيَ طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [٣] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٤٣/١١) .

(٢) «الاعتصام» (٣/٧-٣٥).

(٣) «المصدر السابق» (٤٧/١) .

www.saida-islam.weebly.com

وعَرَّفَهَا ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ بِتَعْرِيفٍ جَامِعٍ، مُسْتقىً مِنْ قَولِهِ ﷺ :" **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** ". فَقَالَ : فَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ شَيْئًا، وَنَسَبَهُ إِلَى الدِّينِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الدِّينِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، فَهُوَ ضَلَالَةٌ، وَالدِّيْنُ بَرِيءٌ مِنْهُ [١] .

فَصَارَتْ أَرْكَانُ البِدْعَةِ ثَلَاثَةً : (١) الإِحْدَاثَ . (٢) أَنْ يُضَافَ هَذَا الإِحْدَاثُ إِلَى الدِّينِ. (٣) أَلَّا يَسْتَنِدَ هَذَا الإِحْدَاثُ إِلَى أَصْلٍ شَرْعِيٍّ يَدُلُّ عَلَيهِ [٢]. فَإِذَا فُقِدَ أَحَدُ هَذِهِ الأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، فَلَا يَصِحُّ تَسْمِيَةُ الفِعْلِ بِدْعَةً بِالْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ .

فَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُبْنَى عَلَيهَا الأَحْكَامُ الشَّرعِيَّةُ لَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَتِهَا لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وعَدَمِ مُخَالَفَتِهَا لَهَا، وأَنْ يَتَرَجَّحَ جَانِبُ وُقُوعِهَا عَلَى عَدَمِهِ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ إِنَّمَا يَتَّصِفُ بِكَوْنِهِ مَصْلَحَةً أَوْ مَفْسَدَةً بِحَسْبِ مَا يَنْتُجُ عَنْهُ فِي الخَارِجِ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَتِيجَةِ هَذِهِ الْمَصْلَحَةِ ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَيهَا، فَإِذَا حَسُنَتْ نَتَائِجُهَا كَانَتْ مُعْتَبَرَةً شَرْعاً .

ولِإِزَالَةِ الإِشْكَالِ النَّاتِجِ مِنَ الخَلْطِ بَينَ الْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ وبَينَ البِدْعَةِ، لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ أَوْجُهِ الاِتِّفَاقِ والاِفْتِرَاقِ بَينَهُمَا .

فَأَهَمُّ **أَوْجُهِ الاِتِّفَاقِ** هِيَ :

(١) أَنَّ كُلًّا مِنَ البِدْعَةِ والْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ مِنَ الأُمُورِ الحَادِثَةِ، الَّتِي لَمْ يُعْهَدْ وُقُوعُهَا فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ، ولَا سِيَّمَا الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وهُوَ الغَالِبُ فِي البِدَعِ، إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا وُجِدَتْ بَعْضُ البِدَعِ – وهَذَا قَلِيلٌ – فِي عَصْرِهِ ﷺ، كَمَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ جَاءُوا يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ .

(٢) وأَنَّ كُلًّا مِنَ البِدْعَةِ ومَا ثَبَتَ بِالْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ، لَا دَلِيلَ عَلَى اعْتِبَارِهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، وأَقْصِدُ بِالدَّلِيلِ (الدَّلِيلَ الخَاصَّ). أَمَّا الأَدِلَّةُ العَامَّةُ فَإِنَّ الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ تَدْخُلُ فِيهَا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٢٨/٢) .

(٢) «قواعد معرفة البدع للجيزاني» ص (٢٠) .

www.saida-islam.weebly.com

بِخِلَافِ البِدَعِ، فَإِنَّهَا مُضَادَّةٌ لِلْأَدِلَّةِ العَامَّةِ والخَاصَّةِ؛ فَالبِدْعَةُ لَا يَدُلُّ عَلَيهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، لَا مِنْ نُصُوصِ الشَّرْعِ ولَا مِنْ قَوَاعِدِهِ؛ أَمَّا الْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ فَإِنَّهَا وإِنْ لَمْ يَدُلَّ عَلَيهَا نُصُوصُ الشَّرْعِ الخَاصَّةِ، إِلَّا أَنَّهَا تَدْخُلُ تَحتَ قَوَاعِدِهِ العَامَّةِ الْمَأْمُورِ بِهَا وُجُوباً أَوْ نَدْباً .

(٣) تَجْتَمِعُ الْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ والبِدْعَةُ – غَيرُ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا بِخُصُوصِهَا – فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مَسْكُوتٌ عَنهُ بِخُصُوصِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ .

وأَمَّا أَهَمُّ **أَوْجُهِ الإِفْتِرَاقِ** :

(١) أَنَّ مَوضُوعَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مَا عُقِلَ مَعْنَاهُ عَلَى التَّفْصِيلِ، وهَذَا يُوجَدُ فِي العَادَاتِ والْمُعَامَلَاتِ، أَمَّا العِبَادَاتُ (الْمَحْضَةُ) فَلَا يُعْقَلُ مَعْنَاهَا عَلَى التَّفْصِيلِ، وفِيهَا تَكُونُ البِدَعُ، أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ دُخُولِ البِدَعِ فِي العَادَاتِ والْمُعَامَلَاتِ فَإِنَّمَا يَدْخُلُهَا الِابْتِدَاعُ مِنْ جِهَةِ مَا فِيهَا مِنَ التَّعَبُّدِ لَا بِإِطْلَاقٍ؛ فَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ لَا مَدْخَلَ لَهَا فِي التَّعَبُّدَاتِ ولَا مَا جَرَى مَجْرَاهَا .

(٢) أَنَّ مَا ثَبَتَ كُونُهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، فَإِنَّمَا يَصِحُّ اعْتِبَارُهَا عِندَ عَدَمِ مُعَارَضَتِهَا لِنَصٍّ فِي خُصُوصٍ أَوْ عُمُومٍ، أَوْ فِي مَنْطُوقٍ أَوْ مَفْهُومٍ، قَطْعِيٍّ أَوْ ظَنِّيٍّ، جَلِيٍّ أَوْ غَيرِ جَلِيٍّ، وبِحَيثُ تَكُونُ مُلَائِمَةً لِمَقَاصِدِ وكُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ، فِي حِينِ أَنَّ البِدَعَ مُعَارِضَةٌ لِلنُّصُوصِ الكَثِيرَةِ القَاطِعَةِ الجَلِيَّةِ، ومُضَادَّةٌ لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وأُصُولِهَا وكُلِّيَّاتِهَا .

(٣) تَعُودُ الْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ عِندَ ثُبُوتِهَا إِلَى حِفْظِ مَنْفَعَةٍ وجَلْبِ مَصْلَحَةٍ، أَوْ دَرْءِ مَفْسَدَةٍ ورَفْعِ حَرَجٍ، فَتَكُونُ مِنَ الوَسَائِلِ لَا مِنَ الْمَقَاصِدِ، وهِيَ وَسَائِلُ تَعُودُ إِلَى تَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الشَّرعِ، أَمَّا البِدْعَةُ – فَإِنَّهَا وإِنْ تَخَيَّلَ فَاعِلُهَا الْمَنْفَعَةَ فِيهَا – فَإِنَّهَا تَعُودُ عَلَى دِينِ مُعْتَقِدِهَا وفَاعِلِهَا بِالْمَفَاسِدِ العَظِيمَةِ والْمَخَاطِرِ الجَسِيمَةِ، ثُمَّ إِنَّهَا فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهَا تُنَاقِضُ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ الحَنِيفِ .

(٤) إِنَّ العِبَادَاتِ – وهِيَ مَجَالُ الِابْتِدَاعِ – حَقٌّ خَاصٌّ لِلشَّارِعِ، ولَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ حَقِّهِ كَمًّا وكَيفًا، ومَكَانًا وزَمَانًا وهَيئَةً إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ، فَيَأْتِي بِهِ العَبْدُ عَلَى مَا رُسِمَ لَهُ، ولِهَذَا لَمْ يَكِلِ

www.saida-islam.weebly.com

الشَّارِعُ شَيئًا مِنَ العِبَادَاتِ إِلَى آرَاءِ العِبَادِ. بَينَمَا تَهْتَدِيْ العُقُولُ البَشَرِيَّةُ - في الجُمْلَةِ - إِلَى مَعْرِفَةِ حِكَمِ وعِلَلِ وأَوْصَافِ ومَعَانِي العَادَاتِ والْمُعَامَلَاتِ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّارِعُ الحَكِيمُ، والَّتِي سَكَتَ عَنهَا، ومِنْ هُنَا دَخَلَتِ الْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ في هَذَا القِسْمِ دُونَ ذَاكَ .

(٥) ثَبَتَ وُجُودُ أَدِلَّةٍ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مِنَ العَقْلِ والنَّقْلِ والآثَارِ وفَتَاوَى العُلَمَاءِ، في حِينِ أَنَّ البِدْعَةَ بِخِلَافِ ذَلِكَ تَمَامًا، إِذِ الأَدِلَّةُ العَقْلِيَّةُ والنَّقْلِيَّةُ الْمَأْثُورَةُ عَلَى ذَمِّهَا جَمِيعًا مِنْ غَيرِ اسْتِثْنَاءٍ، وَكَذَلِكَ فَتَاوَى أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ كُلُّهَا مُتَضَافِرَةٌ عَلَى ذَمِّ البِدَعِ والتَّحْذِيرِ مِنهَا، وسَدِّ طُرُقِهَا وذَرَائِعِهَا.

(٦) إِنَّ عَدَمَ وُقُوعِ الْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ في عَصْرِ النُّبُوَّةِ إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ انْتِفَاءِ الْمُقْتَضِي لِفِعْلِهَا، أَوْ أَنَّ الْمُقْتَضِي لِفِعْلِهَا قَائِمٌ، إِلَّا أَنَّهُ وُجِدَ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْهُ، بِخِلَافِ البِدْعَةِ، فَإِنَّ عَدَمَ وُقُوعِهَا في عَهدِ النُّبُوَّةِ كَانَ مَعَ قِيَامِ الْمُقْتَضِي لِفِعْلِهَا، وتَوَفُّرِ الدَّاعِي لَهَا، وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ .

وبِهَذَا يَظْهَرُ الفَرقُ بَينَ البِدْعَةِ والْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ، ويَتَبَيَّنُ أَنَّ الخَلْطَ بَينَهُمَا مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ والوَاقِعِ، ومُجَانِبٌ لِلصَّوَابِ، وسَائِقٌ لِلضَّلَالَاتِ والْمَفَاسِدِ وتَعْطِيلِ الْمَصَالِحِ؛ فَالبِدْعَةُ شَيءٌ والْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ شَيءٌ آخَرُ، بَلْ لَوْ قِيلَ : إِنَّ البِدْعَةَ مُضَادَّةٌ لِلمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ لَمَا كَانَ بَعِيدًا؛ لِكَونِ الْمَصَالِحِ دَلِيلاً شَرْعِيّاً ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ، أَمَّا البِدَعُ فَدَلِيلٌ بِالهَوَى والتَّشَهِّيْ العَقْلِيِّ والذَّوْقِيِّ، ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ فَسَادُهُ وبُطْلَانُهُ وضَلَالَتُهُ [١] .

وقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْبِدَعُ كَالْمُضَادَّةِ لِلْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، لِأَنَّ مَوْضُوعَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مَا عُقِلَ مَعْنَاهُ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَالتَّعَبُّدَاتُ مِنْ حَقِيقَتِهَا أَنْ لَا يُعْقَلَ مَعْنَاهَا عَلَى التَّفْصِيلِ؛ فالْبِدَعُ فِي عَامَّةِ أَمْرِهَا لَا تُلَائِمُ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ، بَلْ إِنَّمَا تُتَصَوَّرُ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مُنَاقِضَةً لِمَقْصُودِهِ، وَإِمَّا مَسْكُوتًا عَنْهَا فِيهِ .

---

(١) من مقالة منشورة على الإنترنت/ موقع مدخل إلى العقيدة الإسلامية بعنوان «العمل بالمصالح المرسلة ليس من الابتداع في الدين» درس ١٢. وانظر كتاب «قواعد معرفة البدع للجيزاني» ص (٣٣-٣٥). و«الاعتصام للشاطبي» (٣/٧-٣٥).

www.saida-islam.weebly.com

فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ تَرْجِعُ إِمَّا إِلَى حِفْظِ ضَرُورِيٍّ مِنْ بَابِ الْوَسَائِلِ أَوْ إِلَى التَّخْفِيفِ؛ فَلَا يُمْكِنُ إِحْدَاثُ الْبِدَعِ مِنْ جِهَتِهَا وَلَا الزِّيَادَةُ فِي الْمَنْدُوبَاتِ، لِأَنَّ الْبِدَعَ مِنْ بَابِ الْمَقَاصِدِ لَا مِنْ بَابِ الْوَسَائِلِ، لِأَنَّهَا مُتَعَبَّدٌ بِهَا بِالْفَرْضِ، ولِأَنَّهَا زِيَادَةٌ فِي التَّكْلِيفِ، وهُوَ مُضَادٌّ لِلتَّخْفِيفِ. فَحَصَلَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنْ لَا تَعَلُّقَ لِلْمُبْتَدِعِ بِبَابِ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ إِلَّا الْقِسْمَ الْمُلْغَى بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَحَسْبُكَ بِهِ مُتَعَلَّقًا، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ [١] .

❖❖❖❖❖

(١) «الاعتصام» (٣/٤٢) .

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الثَّالِثُ

بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ فِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَأَنَّ «الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعوَةِ وَالتَّبلِيغِ» مِنْ أَعْظَمِ الوَسَائِلِ الَّتِي تُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ الْمَنشُودَةَ مِنْ هَذَا النِّظَامِ :

إِنَّ الْمَقْصُودَ الأَسَاسِيَّ مِنَ الدَّوْلَةِ فِي الإِسْلَامِ هُوَ : إِقَامَةُ الدِّينِ، بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وَمِعْيَارُ ذَلِكَ هُوَ : تَحَسُّنُ أَخْلَاقِ الجُمْهُورِ وَمُعَامَلَاتِهِم وَسُلُوكِهِم، وَسُمُوُّ رُوْحِهِم، وَتَحَلِّيهِمْ بِالفَضَائِلِ، وَإِقْبَالُهُم عَلَى الآخِرَةِ، وَزُهْدُهُم فِي الدُّنْيَا، وَالقَنَاعَةُ فِي الْمَعِيشَةِ، وَاجْتِنَابُهُمُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَتَنَافُسُهُم فِي الخَيرَاتِ، وَتَطَوُّعُهُم وَاحْتِسَابُهُم فِي الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ مِيزَانِيَّتِهَا وَمَالِيَّتِهَا؛ فَتَنْصِبُ الوُعَّاظَ، وَتُرْسِلُ الدُّعَاةَ، وَتُشَجِّعُ الحِسْبَةَ، وَتَمْنَعُ الْمُنْكَرَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَتَمْنَعُ كُلَّ مَا يُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ عَقِيدَتَهُم وَأَخْلَاقَهُم؛ فَيَظْهَرُ الحَقُّ وَأَهْلُهُ، وَيَتَوَارَى البَاطِلُ وَأَهْلُهُ؛ وَيَكُونُ مَا وَصَفَهُ اللهُ ﷻ بِقَولِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] (١) .

فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ هُوَ : سَبِيلُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَطَرِيقُ الْمُرْشِدِينَ الصَّادِقِينَ، وَمِنْهَاجُ الْهَادِينَ الْمُصْلِحِينَ، وَسَبِيلُ إِقَامَةِ الخِلَافَةِ، وَاسْتِحْقَاقِ التَّمْكِينِ؛ وَكَانَ أَمْرًا مُتَّبَعًا، وَشَرِيعَةً ضَرُورِيَّةً، وَمَذْهَبًا وَاجِبًا، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أَسُمِّيَ بِاسْمِ «الْحِسْبَةِ» أَوْ بِاسْمٍ آخَرَ، كَـ«الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ»، وَقَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِسَبَبِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (٢) .

---

(١) «إلى الإسلام من جديد» لأبي الحسن الندوي . ص (١٠٨) بتصرف .

(٢) «الحسبة لابن تيمية بتحقيق الشحود » ص (٢٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَكَمَا قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : وَجَمِيعُ الْوِلَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ إنَّمَا مَقْصُودُهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ وِلَايَةُ الْحَرْبِ الْكُبْرَى : مِثْلُ نِيَابَةِ السَّلْطَنَةِ، وَالصُّغْرَى : مِثْلُ وِلَايَةِ الشُّرْطَةِ، وَوِلَايَةُ الْحُكْمِ؛ أَوْ وِلَايَةُ الْمَالِ وَهِيَ وِلَايَةُ الدَّوَاوِينِ الْمَالِيَّةِ؛ وَوِلَايَةُ الْحِسْبَةِ [١] .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَالْوِلَايَاتُ كُلُّهَا : الدِّينِيَّةُ – مِثْلَ إمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا دُونَهَا : مِنْ مُلْكٍ وَوِزَارَةٍ وَدِيوَانِيَّةٍ، .. وَمِثْلَ إمَارَةِ حَرْبٍ، وَقَضَاءٍ، وَحِسْبَةٍ، وَفُرُوعُ هَذِهِ الْوِلَايَاتِ – إنَّمَا شُرِعَتْ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ [٢] .

فَنِظَامُ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ يُعَدُّ وَظِيفَةً أَسَاسِيَّةً لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِجَمِيعِ أَفْرَادِ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ؛ ذَلِكَ لِمَا لَهُ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ قُصْوَى فِي الحِفَاظِ عَلَى الكِيَانِ الاِجْتِمَاعِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ الوَسِيلَةُ الأُوْلَى لِتَحْقِيقِ خِلَافَةِ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ وَإِصْلَاحِهَا لِلبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءِ . «وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ بَلْدَةٍ يَكُونُ فِيهَا أَرْبَعَةٌ فَأَهْلُهَا مَعْصُومُونَ مِنَ الْبَلَاءِ : إمَامٌ عَادِلٌ لَا يَظْلِمُ، وَعَالِمٌ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى، وَمَشَايِخُ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحَرِّضُونَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ، وَنِسَاؤُهُمْ مَسْتُورَاتٌ لَا يَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» [٣] .

وَلِبَيَانِ نَشأَةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ، وحُكْمِ استِحْدَاثِهِ فِي الشَّرْعِ، ودَوْرِهِ فِي إِقَامَةِ وَاجِبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَمَاذَا عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَفْعَلَ فِي ظِلِّ غِيَابِهِ؛ ثُمَّ بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ» وَأَثَرِهِ فِي إِقَامَةِ أَفْرَادِ الأُمَّةِ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ تُجَاهَ هَذَا العَمَلِ العَظِيمِ، نَذْكُرُ خَمْسَةَ مَبَاحِثَ :

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦٦/٢٨) .

(٢) «المصدر السابق» (٨١/٢٨) .

(٣) «الحسبة لابن تيمية بتحقيق الشحود » ص (٧٥) و«تفسير القرطبي» (٤٩/٤) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ

بَيَانُ نَشأَةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ، وحُكْمِ استِحْدَاثِهِ، ودَوْرِهِ في إِقَامَةِ وَاجِبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، ومَاذَا عَلَى الأُمَّةِ أَن تَفْعَلَ في ظِلِّ غِيَابِهِ :

الحِسْبَةُ – كَمَا قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ –: هِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ، مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، الَّذِيْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى القَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، يُعَيِّنُ لِذَلِكَ مَنْ يَرَاهُ أَهْلاً لَهُ، فَيَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ عَلَيهِ، ويَتَّخِذُ الأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ، ويَبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ، ويُعَزِّرُ، ويُؤَدِّبُ عَلَى قَدْرِهَا، ويَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ العَامَّةِ .

وَمَبْدَأُ الحِسْبَةِ فِقْهاً وتَطْبِيقاً هُوَ حَصِيلَةُ اجْتِهَادَاتِ الفُقَهَاءِ والوُلَاةِ، ولَيْسَتْ في نُصُوصِ القُرْآنِ الكَرِيمِ أَوْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ أَحْكَامٌ تَفْصِيلِيَّةٌ لَهَا، بَلْ مُصْطَلَحُ الحِسْبَةِ عِندَ الفُقَهَاءِ لَمْ يُعْرَفْ بِمَفْهُومٍ مُنْفَصِلٍ عَنْ سَائِرِ أَعْمَالِ البِرِّ وَاحْتِسَابِهَا عِندَ اللهِ ﷻ؛ ثُمَّ إِنَّ مَفْهُومَ الحِسْبَةِ تَطَوَّرَ في العُصُورِ الَّتِي تَلَتِ الخِلَافَةَ، وعُرِفَتْ كَأَحَدِ الْمُؤَسَّسَاتِ الرَّقَابِيَّةِ الفَاعِلَةِ في ضَبْطِ التَّوَازُنِ بَينَ الدِّينِ والدَّوْلَةِ، فَنَظَّمَتْ لَهَا مَنْهَجًا في تَتَبُّعِ الْمُنْكَرَاتِ، وِفْقَ قَوَاعِدَ مَرْسُومَةٍ في الشَّرْعِ الإِسْلَامِيِّ؛ وقَدْ وَضَعَ لَهَا العُلَمَاءُ القَوَاعِدَ التَّشْرِيعِيَّةَ بِاسْتِنْبَاطِهِمُ الأَحْكَامَ الجُزْئِيَّةَ مِنَ القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ لِتَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَدَ بِشَأْنِهِ نَصٌّ خَاصٌّ بِهِ، أَوْ نَظِيرٌ يُقَاسُ عَلَيهِ، أَوْ لَمْ يَنْعَقِدْ عَلَيهِ الإِجْمَاعُ، تَحْقِيقاً لِلمَصَالِحِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ بِتَجَدُّدِ صُوَرِ الحَيَاةِ، وقَدْ أَقَرُّوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِهْمَالُ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ أَوِ الأُمَّةِ أَوِ الأَفْرَادِ دُونَ تَحْقِيقِهَا بِوَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْمَصَالِحِ ثَمَّةَ نُصُوصٌ خَاصَّةٌ بِهَا في التَّطْبِيقِ .

وَلَقَدْ غَدَا الاِحْتِسَابُ عِلْماً مِنْ أَدَقِّ العُلُومِ وأَجَلِّهَا، ولَا يُدْرِكُهُ إِلاَّ مَنْ لَهُ فَهْمٌ ثَاقِبٌ، وحَدْسٌ صَائِبٌ، إِذِ الأَشْخَاصُ والأَزْمَانُ والأَحْوَالُ لَيسَتْ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَزْمَانِ وَالأَحْوَالِ سِيَاسَةٌ خَاصَّةٌ؛ وذَلِكَ مِنْ أَصْعَبِ الأُمُورِ .

وَمُنْذُ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ خَاصَّةً، بَرَزَ في التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ مُوَظَّفٌ يُطْلَقُ عَلَيهِ «الْمُحْتَسِبُ»، يَتَوَلَّى دِيوَانَ الحِسْبَةِ، ويُسَاعِدُهُ في عَمَلِهِ أَشْخَاصٌ يُسَمَّوْنَ «الْمُحْتَسِبِينَ»،

www.saida-islam.weebly.com

يَتَفَرَّغُونَ لِهَذَا العَمَلِ، وتُفْرَضُ لَهُم رَوَاتِبُ مِنْ بَيتِ الْمَالِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمُتَطَوِّعِينَ الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالعَمَلِ، تَحتَ إِشْرَافِ وَالِي الحِسْبَةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الحَقُّ فِي رَاتِبٍ مَالِيٍّ، وبِصَلَاحِيَّاتٍ أَقَلَّ مِنْ صَلَاحِيَّاتِ الْمُحْتَسِبِينَ .

ثُمَّ صَارَتِ الحِسْبَةُ بَعدَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وِلَايَةً مِنَ الوِلَايَاتِ، ونِظَاماً مِنَ الأَنْظِمَةِ، فَأَصْبَحَ ضَرُورِيًّا أَنْ يَكُونَ لَهَا وَالٍ مَأْذُونٌ لَهُ مِنْ جِهَةِ الحَاكِمِ، فَهِيَ فَرْضٌ عَلَى القَائِمِ بِأُمُورِ الأُمَّةِ، يُعَيِّنُ لِذَلِكَ مَنْ يَرَاهُ أَهْلاً لَهُ .

وَالحِسْبَةُ فِي حُكْمِهَا الشَّرعِيِّ وَاجِبَةٌ بِقَدْرِ طَاقَةِ الْمُكَلَّفِ، ولَا تَسْقُطُ عَنِ الجَمِيعِ إِلَّا بِالأَدَاءِ، وقَدْ حَدَّ ابْنُ القَيِّمِ مَنَاطَ الوُجُوبِ، فَقَالَ : وهَذَا وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ قَادِرٍ، وهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ .. لِأَن مَنَاطَ الوُجُوبِ هُوَ القُدْرَةُ، فَيَجِبُ عَلَى القَادِرِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى العَاجِزِ .

وَلِلْحِسْبَةِ مَرْتَبَتَانِ : **الأُوْلَى** : دَعْوَةُ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ سَائِرَ الأُمَمِ إِلَى الإِسْلَامِ، وهَذَا الأَمْرُ يَدْخُلُ فِي إِطَارِهِ كُلُّ مُسْلِمٍ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ حَسَبَ إِمْكَانَاتِهِ العِلْمِيَّةِ .

وَالثَّانِيَةُ : الدَّعْوَةُ العَامَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ الحِسْبَةَ تَكُونُ دَعْوَةَ إِرْشَادٍ وتَوْجِيهٍ لِلْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ كَيْ يُحَافِظَ عَلَى قِيَمِهِ وسُلُوكِهِ [١] .

فَالْحِسْبَةُ – بِمَفْهُومِهَا العَامِّ – شُرِعَتْ طَرِيقًا لِلْإِرْشَادِ وَالْهِدَايَةِ، وَالتَّوْجِيهِ إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَمَنْعُ الضَّرَرِ؛ وَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ الْخَيْرَ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَدْعُوَا إِلَيْهِ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْمُنْكَرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِمَنْعِ غَيْرِهِمْ مِنِ اقْتِرَافِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّعَاوُنِ عَلَى هَذَا العَمَلِ الجَلِيلِ، فَقَالَ ﷻ : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] .

وَقَدْ عُنِيَ الْأَئِمَّةُ بِوِلَايَةِ الْحِسْبَةِ عِنَايَةً كَبِيرَةً، وَوَضَعُوا فِيهَا الْمُؤَلَّفَاتِ، مُفَصِّلِينَ أَحْكَامَهَا وَمَرَاتِبَهَا، وَأَرْكَانَهَا، وَشَرَائِطَهَا، وَتَأْصِيلِ مَسَائِلِهَا، وَوَضْعِ الْقَوَاعِدِ فِي مُهِمَّاتِهَا؛ مَعَ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ لَمْ يَرِدْ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ تَفَاصِيلِهِ أَدِلَّةٌ خَاصَّةٌ تَدُلُّ عَلَيهَا، إِلَّا أَنَّ الأُمَّةَ بِأَسْرِهَا مُجْمِعَةٌ

(١) «الحسبة في النظام الإسلامي» لمحمد إدريس عثمان. صفحة (١٢١) وما بعدها .

www.saida-islam.weebly.com

عَلَى ضَرُورَةِ وُجُودِهِ، وعَلَى كَونِهِ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَاتِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الأُمَّةِ إِقَامَتُهَا، لِكَونِهِ وَسِيلَةً مُتَعَيِّنَةً لِحِفْظِ دِينِ الأُمَّةِ مِنَ الضَّيَاعِ والتَّهَاوُنِ، ولإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، في جَمِيعِ شُعَبِ الحَيَاةِ، في ظِلِّ امْتِدَادِ رُقْعَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَاتِّسَاعِهَا، الأَمْرُ الَّذِي يَجْعَلُ القِيَامَ بِهَذَا الوَاجِبِ العَظِيمِ بِصِفَةٍ فَرْدِيَّةٍ تَطَوُّعِيَّةٍ أَمْراً عَسِيراً غَيرَ مُمْكِنٍ فِعْلاً؛ فَلَمَّا وُجِدَتْ دَوَاعِيْ اسْتِحْدَاثِ مِثْلِ هَذَا النِّظَامِ ومُقْتَضَيَاتُهُ، وكَانَتِ الْمَصَالِحُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى ذَلِكَ عَظِيمَةً، تَتَمَاشَى مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، لَا جَرَمَ أَنَّ الأُمَّةَ أَجْمَعَتْ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ؛ وإِجْمَاعُ الأُمَّةِ حُجَّةٌ، لَا يَكُونُ ضَلَالَةً أَبَداً .

ولَكِنْ بَعْدَ سُقُوطِ آخِرِ دَوْلَةٍ إِسْلامِيَّةٍ قَبْلَ مَا يُقَارِبُ قَرْناً مِنَ الزَّمَانِ، لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ أُمَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَعْبَاءِ مَسْؤُولِيَّةِ التَّبْلِيغِ الْمَنُوطَةِ بِهَا، فَصَارَ الْمُسْلِمُونَ مُتَشَرْذِمِينَ مُتَفَرِّقِينَ، لَيسَ لَدَيهِم كِيَانٌ ولَا قُوَّةٌ، ولَمْ تَعُدِ الْوَسِيلَتَانِ الأَسَاسِيَّتَانِ لإِقَامَةِ الدِّيْنِ وَحِفْظِهِ مَوْجُودَتَيْنِ، – أَعْنِي الجِهَادَ في سَبِيلِ اللهِ لِنَشْرِ الإِسْلامِ في الخَارِجِ، وَنِظَامَ الحِسْبَةِ لإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ في الدَّاخِلِ–[1]؛ أَضِفْ إِلى هَذَا انْتِشَارَ الْفَسَادِ في الْبِلادِ، وَشُيُوعَ الشِّرْكِيَّاتِ وَالْبِدَعِ بَيْنَ النَّاسِ، والوُقُوعَ تَحتَ الغَزْوِ الفِكْرِيِّ والعَقَدِيِّ، وَالْمَشْيَ وَرَاءَ طُرُقِ الأَغْيَارِ، وَعُمُومَ الجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَانْحِلالَ الأَخْلاقِ، وَالاسْتِئْثَارَ بِالأَمْوَالِ، وَكَثْرَةَ الْفَواحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَخُرُوجَ كَثِيْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الإِسْلامِ وَارْتِدَادَهِمْ، وَتَسَلُّطَ الأَعْدَاءِ، وَخُرُوجَ الْغَيْرَةِ عَلَى حُرُمَاتِ اللهِ، وَالاِنْهِمَاكَ في عُبُودِيَّةِ الْمَالِ وَالدُّنْيَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوَالِ الَّتِيْ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيْلٌ في أَحَدٍ مِنَ الأَزْمِنَةِ السَّابِقَةِ عَبرَ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ .

---

(١) قلت : إنَّ هاتينِ الوسيلتينِ لإقامةِ الدِّينِ ونشرِه، لم تكونا في زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ على هذا النَّحو من التَّرتيب والنِّظام، كما سبق من أنَّ عُمرَ رضي الله عنه وضع ديوانَ الجُندِ، وجعل مُخصَّصاتٍ للغُزاةِ، ولم يكن الأمرُ كذلك في زمن النُّبوَّة؛ وكذلك الحالُ بالنِّسبةِ لنظامِ الحسبةِ؛ ولكنْ كانتِ المصلحةُ الشَّرعيَّةُ تقتضي ذلك، ولا تَتَحَقَّقُ إلَّا بِهِ؛ وكذلكَ ترتيبُ الخروجِ في سبيلِ اللهِ للدَّعوةِ والتَّبليغِ، وإنْ لم يَكُنْ مَوجُوداً بهذه التَّرتيباتِ في زمنِ النُّبوَّةِ، إلَّا أنَّ المصلحةَ الشَّرعيَّةَ في حفظ الدين وبقائه، ونشره وإشاعته، قد ظهرت وتحقَّقت؛ فأيُّ وجه بَقِيَ لإنكارِ هذا العملِ ؟! وأيُّ فائدةٍ عمليَّةٍ من هذا الإنكارِ إلَّا تعطيلُ هذا الخيرِ الكثيرِ الَّذِي تَحقَّقَ بِسَبَبِهِ ؟! – على ما سيأتي بيانه –.

www.saida-islam.weebly.com

وَلا سَبِيْلَ إلى إعَادَةِ الأُمُورِ إلى نِصَابِهَا، وَدُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا، إلاَّ بِعَوْدَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ إلى أَدَاءِ وَاجِبِهَا، وَإلى سِيْرَتِهَا الأُوْلَى مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ وَتَبْلِيْغِ رِسَالاتِهِ، وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَالشَّهَادَةِ للهِ، والحِسْبَةِ عَلَى الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ. فَلَا بُدَّ أَنْ تَجْتَهِدَ الأُمَّةُ لإِعَادَةِ الدِّينِ إلَى الحَيَاةِ بِالوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ، دُونَ الوُقُوفِ عِنْدَ مَا وَرَدَ فِيهِ النَّصُّ، إذْ كَيفَ يُطْلَبُ دَلِيلٌ خَاصٌّ عَلَى وَاقِعَةٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَظِيرٌ فِي السَّابِقِ ؟!

وفي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : فَالْوَقَائِعُ فِي الْوُجُودِ لَا تَنْحَصِرُ؛ فَلَا يَصِحُّ دُخُولُهَا تَحْتَ الْأَدِلَّةِ الْمُنْحَصِرَةِ، وَلِذَلِكَ احْتِيجَ إِلَى فَتْحِ بَابِ الِاجْتِهَادِ مِنَ القِيَاسِ وغَيرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ حُدُوثِ وَقَائِعَ لَا تَكُونُ مَنْصُوصًا عَلَى حُكْمِهَا، وَلَا يُوجَدُ لِلْأَوَّلِينَ فِيهَا اجْتِهَادٌ، وَعِنْدَ ذَلِكَ؛ فَإِمَّا أَنْ يُتْرَكَ النَّاسُ فِيهَا مَعَ أَهْوَائِهِمْ، أَوْ يُنْظَرَ فِيهَا بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ شَرْعِيٍّ، وَهُوَ أَيْضًا اتِّبَاعٌ لِلْهَوَى، وَذَلِكَ كُلُّهُ فَسَادٌ؛ فَلَا يَكُونُ بُدٌّ مِنَ التَّوَقُّفِ لَا إِلَى غَايَةٍ، وَهُوَ مَعْنَى تَعْطِيلِ التَّكْلِيفِ لُزُومًا، وَهُوَ مؤدٍّ إِلَى تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ؛ **فَإِذًا لَا بُدَّ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي كُلِّ زَمَانٍ؛ لِأَنَّ الْوَقَائِعَ الْمَفْرُوضَةَ لَا تَخْتَصُّ بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ** (١) .

وَالوَاقِعُ أَنَّ تَجَمُّعَ الدُّعَاةِ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ بصُورَةٍ جَمَاعِيَّةٍ يَكُونُ ضَرُورِيّاً كُلَّمَا كَانَتْ مُهِمَّةُ الدَّعْوَةِ جَسِيمَةً، كَمَا لَوْ أُرِيدَ نَشْرُ الدَّعوةِ إلى اللهِ في الْمُجْتَمَعَاتِ الْوَثَنِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي عَشْعَشَ فِيهَا الشَّيْطَانُ وبَيَّضَ، وصَدَّ أَهْلَهَا عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وأَرْكَسَهُمْ في حَمْأَةِ الشِّرْكِ، كَمَا فِي الأَقْطَارِ الوَثَنِيَّةِ في أَفْرِيقْيَا ونَحْوِهَا، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأَقْطَارِ تَحْتَاجُ إلى جُهُودٍ كَبِيرَةٍ جِدّاً ومُنَظَّمَةٍ لِنَشْرِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتَعْلِيمِهِمْ أُمُورَ الإِسْلامِ مِمَّا لا يَقْوَى عَلَيْهِ جُهْدُ فَرْدٍ، ولا جُهُودٌ مُبَعْثَرَةٌ لِبَعْضِ الأَفْرَادِ (٢) .

---

(١) «الموافقات» (٥/٣٨-٣٩) .

(٢) قلت : كما أَنَّ جُهُودَ أَهلِ البَاطِلِ، من أهل التَّنْصِيرِ والعَلْمَنَةِ والبَاطِنِيَّةِ وغيرهم من أَهلِ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، تَمشي بتنظيماتٍ مُحْكَمَةٍ، لإخراج المسلمين من دينهم؛ فلا بُدَّ من تَعَاوُنِ أَهلِ الحَقِّ، وقِيَامِهِم بالنَّفَرِ جَمِيعاً لِصَدِّ أَخْطَرِ عُدوَانٍ يَتَعَرَّضُ له الْمُسْلِمُونَ، وهُوَ العُدوَانُ على عَقِيدَتِهِم وفِكرِهِم؛ ولا يَقوَى على صَدِّ هَذَا العُدْوَانِ جُهْدُ فَرْدٍ أو أَفْرَادٍ، ولا جُهُودٌ مُبَعْثَرَةٌ غَيرُ مُنَظَّمَةٌ؛ كَمَا أَنَّهُ في حَالَةِ العُدوَانِ العَسكَرِيِّ مِنَ الكُفَّارِ على الْمُسلِمِينَ، لا يَصلُحُ جُهْدُ فَرْدٍ أو أَفْرَادٍ، ولا جُهُودٌ مُبَعْثَرَةٌ غَيرُ مُنَظَّمَةٌ، لِصَدِّ هَذَا العُدْوَانِ .

www.saida-islam.weebly.com

ويُؤَيِّدُ هَذَا التَّبْشِيرَ بِالإِسْلامِ عَلَى شَكْلٍ جَمَاعِيٍّ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ مَنْ يُسْلِمُ بِالتَّحَوُّلِ إِلَى دَارِ الهِجْرَةِ، لِيَضُمَّ جُهُودَهُ إِلَى جُهُودِ الْمُسْلِمِينَ وتَوْجِيهِهَا التَّوْجِيهَ السَّلِيمَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا أَنَّنَا نَجِدُ فِي قَولِهِ ﷻ : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، دَلِيْلاً آخَرَ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّجَمُّعِ والدَّعوةِ الجَمَاعِيَّةِ، بَلْ وَوُجُوبِهَا إِذَا كَانَ البِرُّ لا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِدُونِ ذَلِكَ، وقَدْ أَشَارَ الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى مَا رَوَاهُ الْجَصَّاصُ عَنْهُ إِلى ضَرُورَةِ التَّجَمُّعِ عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وتَوْجِيهِ الْجُهُودِ الْجَمَاعِيَّةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصُودِ [١] .

كَمَا ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ البُعُوثَ الدَّعَوِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ وَتَعَلِيمِهِمْ بِحَسَبِ الحَاجَةِ؛ فَأَرْسَلَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيرٍ وَابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَى الْمَدِينَةِ، لِدَعْوَةِ الْمُعْرِضِينَ، وَتَعْلِيمِ الْمُقْبِلِينَ[٢]؛ وَبَعَثَ مُعَاذاً وَأَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَى اليَمَنِ بِالدَّعْوَةِ، وَقَالَ لَهُمَا :" **ادْعُوَا النَّاسَ، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا** "[٣]. وَأَرْسَلَ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي لِدَعْوَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ بَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَسْلَمَتْ هَمْدَانُ[٤].

---

(١) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٣٠٩ - ٣١١) .

(٢) أخرج البخاري (٣٩٢٥) عن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ : أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلاَلٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (٢٠٠١) واللفظ له .

(٤) أخرج البيهقي في سننه (٣٩٣٢) عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقْفُلَ خَالِدٌ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ، إِلَّا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَ خَالِدٍ أَحَبَّ أَنْ يُعَقِّبَ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَلْيُعَقِّبْ مَعَهُ، قَالَ الْبَرَاءُ : فَكُنْتُ مِمَّنْ عَقَّبَ مَعَهُ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْقَوْمِ خَرَجُوا إِلَيْنَا، فَصَلَّى بِنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَصَفَّنَا صَفًّا وَاحِدًا، ثُمَّ تَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِينَا، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَتْ هَمْدَانُ جَمِيعًا، فَكَتَبَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكِتَابَ خَرَّ سَاجِدًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ:" **السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ** ". قال البيهقيُّ : أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ صَدْرَ هَذَا الْحَدِيثِ، .. فَلَمْ يَسُقْهُ بِتَمَامِهِ، وَسُجُودُ الشُّكْرِ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِ .

www.saida-islam.weebly.com

كَمَا أَرْسَلَ ﷺ أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ - وَهُمُ الْقُرَّاءُ - لِلتَّعْلِيمِ [(١)] .

بَلْ إِنَّ الْمَقْصُودَ الأَسْمَى مِنْ بَعْثِ البُعُوثِ وَالسَّرَايَا، وَإِرْسَالِ الجُيُوشِ، هُوَ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ﷻ وَإِلَى دِينِهِ، كَمَا ثَبَتَ يَقِيناً فِي نُصُوصِ القُرْآنِ وَالأَحَادِيثِ الَّتِي تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ الْمَعْنَوِيِّ؛ كَمَا سَيَأْتِي فِي الْمَبْحَثِ الأَوَّلِ مِنَ الفَصْلِ الرَّابِعِ .

وَحَتَّى تَسْتَطِيعَ الأُمَّةُ القِيَامَ بِأَعْبَاءِ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ الكُبْرَى والفَرِيضَةِ العُظْمَى، لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَتَعَاوَنَ وتَتَكَافَلَ وتَتَكَاتَفَ جُهُودُهَا فِي خِدْمَةِ دِينِهَا وحَمْلِ مَسْؤُولِيَّتِهَا، وأَنْ تَعْتَصِمَ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً، وتَتَجَنَّبَ كُلَّ وَسِيلَةٍ تُؤَدِي إلى التَّفَرُّقِ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٥] .

فَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ ﷻ بِأَنْ نَكُونَ أُمَّةً أَوْ تَكُونَ مِنَّا أُمَّةٌ تَدْعُو إِلى الْخَيْرِ وتَأْمُرُ بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَّنَ أَنَّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ دُونَ سِوَاهُمْ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِين يُقِيمُونَ الدِّينَ ويَحْفَظُونَ سِيَاجَهُ، وبِهِمْ تَتَحَقَّقُ الْوِحْدَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنهُ، بَعْدَ هَذَا الأَمْرِ نَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ والاِخْتِلافِ الَّذِي يَذْهَبُ بِتِلْكَ الْوِحْدَةِ، ويَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْقِيَامُ بِتِلْكَ الدَّعْوَةِ الصَّالِحَةِ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾، وهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وكَانُوا شِيَعاً، كُلُّ شِيعَةٍ تَذْهَبُ مَذْهَباً يُخَالِفُ مَذْهَبَ الأُخْرَى، وصَارَ كُلٌّ يَنْصُرُ مَذْهَبَهُ، ويَدْعُو إِلَيْهِ، ويُخَطِّئُ مَا سِوَاهُ، حَتَّى تَعَادَوْا واقْتَتَلُوْا عَلَى ذَلِكَ[(٢)]، فَلَوْ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، أَوْ كَانَ فِيهِم أُمَّةٌ تَدْعُو إِلَى الخَيْرِ، وتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وتَنْهَى عَنِ

---

(١) أخرج البخاري (٣٠٦٤) ومسلم (٦٧٧) عَنْ أَنَسٍ ﷺ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ، وَذَكْوَانُ، وَعُصَيَّةُ، وَبَنُو لَحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ؛ فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ أَنَسٌ : كُنَّا نُسَمِّيهِمُ القُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ، غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَبَنِي لَحْيَانَ .

(٢) قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «مجموع الفتاوى» (٣٢٨/٢٨) : **وَكُلُّ مَا خَرَجَ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ : مِنْ نَسَبٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ طَرِيقَةٍ، فَهُوَ مِنْ عَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ** .

www.saida-islam.weebly.com

الْمُنْكَرِ، مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلٍ وَاحِدٍ لَمَا تَفَرَّقُوا فِي الْمَقَاصِدِ، ولَوْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا لَمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ، ولَمَا تَعَدَّدَتْ فيهِمُ الْمَذَاهِبُ فِي أُصُولِهِ وفُرُوعِهِ، حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُم بَعْضاً، فَلا تَكُونُوا مِثْلَهُم فَيَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ، فَهَذِهِ الآيَةُ مُتَمِّمَةٌ لِقَولِهِ ﷻ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ومَا بَعْدَهَا، فَالاِعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ هُوَ الأَصْلُ، وبِهِ يَكُونُ الاِجْتِمَاعُ وَالاِتِّحَادُ الَّذِي يَجْعَلُ الأُمَّةَ كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ، وَالدَّعوةُ إلى الخَيْرِ هِيَ الَّتِي تَغْذُوا هَذِهِ الْوِحْدَةَ، وتُمِدُّهَا وتُنَمِّيهَا، والأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهَا ويُؤَيِّدُهَا ويَشُدُّ أَزْرَهَا .

وهَذِهِ الآيَةُ كَالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ وِجْهَةُ الأُمَّةِ الدَّاعِيَةِ الآمِرَةِ النَّاهِيَةِ وَاحِدَةً، لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ مَا أَفْلَحُوا لِعَدَمِ وِحْدَتِهِمْ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فيكُمْ أُمَّةٌ لِلدَّعْوَةِ والأَمْرِ وَالنَّهْيِ إلاَّ إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَى مَقْصَدٍ وَاحِدٍ؛ فَالتَّرْتِيبُ فِي الآيَاتِ طَبِيعِيٌّ، إِذْ مِنَ الْبَدِيْهِيِّ أَنَّ الْمُتَّفِقِينَ فِي الْمَقْصَدِ لا يَخْتَلِفُونَ اخْتِلافاً ضَارّاً يُنَافِيهِ، وإِنَّمَا يَقَعُ الاِخْتِلافُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ فِي الْمَقَاصِدِ، وَالتَّبَايُنِ فِي الأَهْوَاءِ، بِذَهَابِ كُلٍّ إلى تَأْيِيْدِ مَقْصَدِهِ وإِرْضَاءِهِ فِيهِ؛ وَالاِخْتِلافُ فِي الرَّأْيِ لِأَجْلِ تَأْيِيْدِ الْمَقْصَدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيهِ لا يَضُرُّ، بَلْ يَنْفَعُ، وهُوَ طَبِيعِيٌّ، ولا مَنْدُوْحَةَ عَنهُ [١] .

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٤/٣٨-٣٩) . قلت : لا بُدَّ في باب خدمة الدِّين والدَّعوة إليه أن تُستثمر جَميعُ الطَّاقات الكامنة في الأمَّة، وتوظَّف في مصلحة الدِّين، وهذا يحتاج لجهد للتَّنقيب عنها، فالنَّاسُ معادنُ، كما أخبر ﷺ، أيْ أنَّ فيهم خيراً كثيراً لخدمة هذا الدِّين. كما أنَّه لا بدَّ من نَبْذِ الخلافات الَّتي يمكن أنْ تؤدِّي إلى تفرُّق الأمَّة وتشتُّتها، لا سيَّما إذا قلَّ أهل الحقِّ الخُلَّصُ، وتَعذَّرَ القيام بمتطلَّبات الدِّين إلَّا بالتَّعاون مع من فيه بعض المخالفات الشرعيَّة، بشرط أنْ تكونَ المصلحةُ المرجوَّةُ من هذا التَّعاون راجحةً على المفسدة، وفي هذا يقول الإمامُ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **فَإِذَا تَعَذَّرَ إقَامَةُ الْوَاجِبَاتِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إلَّا بِمَنْ فِيهِ بِدْعَةٌ، مَضَرَّتُهَا دُونَ مَضَرَّةِ تَرْكِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ، كَانَ تَحْصِيلُ مَصْلَحَةِ الْوَاجِبِ مَعَ مَفْسَدَةٍ مَرْجُوحَةٍ مَعَهُ، خَيْرًا مِنَ الْعَكْسِ.** «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢١٢). فأهل الباطل - على كثرة اختلافهم فيما بينهم - ينبذون الخلافات فيما بينهم، ويجتمعون ويتعاونون على باطلهم، إذا كانت المقابلة مع أهل الحقِّ، فيُشكِّلون قوَّةً مؤثِّرةً، وأهل الحقِّ أولى بهذه الحكمة؛ وهذا التَّدبيرُ لازمٌ إنْ أرادوا قيامَ الحقِّ في زمان قَلَّ أنصارُهُ، وكَثُرَ أعداؤُهُ. واللهُ وليُّ التَّوفيق.

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

بَيَانُ أَنَّ تَرْتِيبَ الأَوْقَاتِ لِلْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، والتَّعلِيمِ والتَّعَلُّمِ هُوَ أَفْضَلُ الوَسَائِلِ، وإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ بِعَيْنِهِ فِي السَّابِقِ، لِكَونِهِ وَسِيلَةً لِتَحقِيقِ أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، وأَنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَ مَقَاصِدِهِ [(١)]:

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ والأَئِمَّةَ الْمَهْدِيِّينَ ذَهَبُوا فِي بَابِ الْوَسَائِلِ مَذْهَبَ النَّظَرِ إِلَى الْمَصْلَحَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الفِعْلِ – وإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيهَا دَلِيلٌ خَاصٌّ –، مَعَ الأَخْذِ بِعَينِ الاِعْتِبَارِ عَدَمَ وُجُودِ الْمُقْتَضِي لِهَذَا الفِعْلِ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الوَسِيلَةُ الْمُسْتَحْدَثَةُ تُحَقِّقُ مَصَالِحَ الأُمَّةِ الْمَقْصُودَةَ شَرْعاً، مَعَ انْعِدَامِ الْمُقْتَضِي لَهَا فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ مَشْرُوعَةً، وَتَأْخُذُ حُكْمَ الْمَقْصَدِ الَّذِيْ تُؤَدِّيْ إِلَيْهِ مِنَ الوُجُوبِ أَوِ النَّدْبِ .

وفِي هَذَا يَقُولُ سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْوَاجِبَاتُ وَالْمَنْدُوبَاتُ ضَرْبَانِ: **أَحَدُهُمَا** : مَقَاصِدُ، **وَالثَّانِي** : وَسَائِلُ؛ وَكَذَلِكَ الْمَكْرُوهَاتُ وَالْمُحَرَّمَاتُ ضَرْبَانِ : **أَحَدُهُمَا** : مَقَاصِدُ، **وَالثَّانِي** : وَسَائِلُ؛ **وَلِلْوَسَائِلِ أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ**؛ فَالْوَسِيلَةُ إِلَى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى أَرْذَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَرْذَلُ الْوَسَائِلِ [(٢)] .

---

(١) يقول العَلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : أَمَّا مسألةُ تحديد الخروج بثلاثة أيام، أو أربعة أيام، أو شهر، أو شهرين، فأَنَا لا أَنْقِمُهُ على جماعة التبليغ، لأَنَّ هذا قد يكونُ من باب الوسائل، أيْ من باب أَنَّهم يَرَونَ أَنَّ تحديد الْمُدَّةِ وسيلةٌ لاسْتِصلاح الرَّجل الخَارِج معهم، **والوَسَائِلُ لَيسَ لَهَا حَدٌّ شَرعِيٌّ، فَكُلُّ مَا أَدَّى إلى الْمَقْصُودِ فَهُو مَقْصُودٌ، مَا لَم يَكُنْ مَنهِيًّا عَنهُ بِعَينِهِ**، فإِنْ كان مَنهِيًّا عَنهُ بِعَينِهِ فَلا نُقِرُّ بِهِ .. لكن إذا كانت وَسِيلَةٌ لَم يُنْهَ عَنهَا ولَهَا أَثَرٌ، فَهَذِهِ لا بَأسَ بها، فالوَسَائِلُ غَيرُ الْمَقَاصِدِ، ولَيسَ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَنُصَّ الشَّرعُ على كُلِّ وَسِيلَةٍ بِعَينِهَا، يَقُولُ هَذه جَائِزَةٌ، وهَذه غَيرُ جَائِزَةٌ، لأَنَّ الوَسَائِلَ لا حَصْرَ لَهَا، ولا حَدَّ لَهَا، فَكُلُّ مَا كَانَ وَسِيلَةً لِخَيرٍ فَهُوَ خَيرٌ. «لقاء الباب المفتوح» رقم (١٥) .

(٢) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/٥٣) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلِلْبِدَعِ الْوَاجِبَةِ أَمْثِلَةٌ : **أَحَدُهَا** : الِاشْتِغَالُ بِعِلْمِ النَّحْوِ الَّذِي يُفهَمُ بِهِ كَلامُ اللهِ وَكَلامُ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ، لِأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيْعَةِ وَاجِبٌ، وَلا يَتَأَتَّى حِفْظُهَا إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَمَا لا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .. [١] .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَمَّا كَانَتِ الْمَقَاصِدُ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِأَسْبَابٍ وَطُرُقٍ تُفْضِي إِلَيْهَا، كَانَتْ طُرُقُهَا وَأَسْبَابُهَا تَابِعَةً لَهَا، مُعْتَبَرَةً بِهَا، فَوَسَائِلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَعَاصِي فِي كَرَاهَتِهَا وَالْمَنْعِ مِنْهَا بِحَسْبِ إِفْضَائِهَا إِلَى غَايَاتِهَا وَارْتِبَاطَاتِهَا بِهَا، وَوَسَائِلُ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ فِي مَحَبَّتِهَا وَالْإِذْنِ فِيهَا بِحَسْبِ إِفْضَائِهَا إِلَى غَايَتِهَا؛ **فَوَسِيلَةُ الْمَقْصُودِ تَابِعَةٌ لِلْمَقْصُودِ، وَكِلَاهُمَا مَقْصُودٌ، لَكِنَّهُ مَقْصُودٌ قَصْدَ الْغَايَاتِ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ قَصْدَ الْوَسَائِلِ** [٢] .

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّاهُ وَلِيُّ اللهِ الدِّهْلَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَإِذَا كَانَ لِلْوَاجِبِ طُرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَجَبَ تَحْصِيْلُ طَرِيقَةٍ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ مِنْ غَيرِ تَعْيِيْنٍ، وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ وَجَبَ ذَلِكَ الطَّرِيقُ بِخُصُوصِهِ؛ وَكَانَ السَّلَفُ لا يَكْتُبُونَ الحَدِيثَ، ثُمَّ صَارَ يَومَنَا هَذَا كِتَابَةُ الحَدِيثِ وَاجِبَةً، لأَنَّ رِوَايَةَ الحَدِيثِ لا سَبِيْلَ لَهَا الْيَومَ إِلاَّ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الْكُتُبِ، وَكَانَ السَّلَفُ لا يَشتَغِلُونَ بِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ، وَكَانَ لِسَانُهُمْ عَرَبِيّاً لا يَحْتَاجُونَ إِلى هَذَا، ثُمَّ صَارَ يَومَنَا هَذَا مَعْرِفَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاجِبَةً، لِبُعْدِ الْعَهْدِ عَنِ الْعَرَبِ الأُوَلِ، وَشَوَاهِدُ مَا نَحْنُ فِيهِ كَثِيْرَةٌ جِدّاً [٣] .

وَبَعْدَ هَذَا نَقُولُ : إِنَّ تَبْلِيغَ الدِّيْنَ وَنَقْلَهُ إِلى النَّاسِ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَمَا كَانَ وَاجِباً عَلَى نَبِيِّهَا ﷺ، وَالسَّفَرَ وَبَعْثَ البُعُوثِ لِلْقِيَامِ بِمُهِمَّةِ الدَّعْوَةِ والتبليغ، هِيَ مَسْؤُولِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ؛ «فَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يُبَلِّغُوا عَنْهُ ﷺ مَا أَخْبَرَهُم بِهِ وَأَمَرَهُمْ بِفِعْلِهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ مَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُبَلِّغَ جَمِيعَ النَّاسِ، وَمَا كَانَ يَبْقَى عَلَى الأَبَدِ حَتَّى يُبَلِّغَ أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ؛ فَإِذَا بَلَّغَ الحَاضِرَ لَزِمَهُ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى الغَائِبِ، وَإِذَا بَلَغَ أَهْلَ عَصْرٍ لَزِمَهُم أَنْ يَنْقُلُوهُ إِلَى أَهْلِ كُلِّ عَصْرٍ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُم، لِيَنْقُلُوهَا إِلَى أَهْلِ العَصْرِ الَّذِي يَتْلُوهُم، فَيَنْقُلَ كُلُّ سَلَفٍ

---

(١) «المصدر السابق» (٢/٢٠٤) .

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/١٠٨) .

(٣) «الإنصاف» ص (٩٦) .

www.saida-islam.weebly.com

إِلَى خَلَفِهِ، فَيَدُومَ عَلَى الأَبَدِ نَقْلُ سُنَّتِهِ، وَحِفْظُ شَرِيعَتِهِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ** ". وَقَالَ ﷺ :" **بَلِّغُوا عَنِّيْ وَلَوْ آيَةً** ". وَقَالَ أَيْضاً :" **نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، وَبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنهُ** "»[١]. فَيَجِبُ عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَتَّخِذَ جَمِيْعَ الْوَسَائِلِ الَّتِي مِنْ خِلالِهَا يَتِمُّ تَأْدِيَةُ هَذَا الْوَاجِبِ مَا دَامَت غَيرَ مُحَرَّمةٍ بِذَاتِهَا، وَلَا تَقِفَ فِي هَذَا الْبَابِ مَعَ مَا ثَبَتَ فِعْلُهُ فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ، لأَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ وَسَائِلَ تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ، وَوَسَائِلُ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ لا تَتَقَيَّدُ بِكَيْفِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، لأَنَّهَا مِنْ قَبِيْلِ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلى مَقَاصِدَ مَعْلُومَةِ الْمَعْنَى وَالْغَرَضِ، وَلَيْسَتْ مِنْ قَبِيْلِ الْعِبَادَاتِ التَّوْقِيْفِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْوَسَائِلَ تَأْخُذُ حُكْمَ الْمَقْصَدِ الَّذِيْ تُؤَدِّي إِلَيْهِ، فَإِذَا تَأَدَّى الْمَقْصَدُ بِهَا وَبِغَيْرِهَا، كَانَ الأَخْذُ بِمَا يَتَأَدَّى بِهِ الْوَاجِبُ وَاجِباً، وَمَندُوباً فِي غَيْرِهَا، **أَمَّا إِذَا لَمْ يَتَأَدَّ الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهَا، فَإِنَّهَا تَجِبُ بِعَيْنِهَا** .

وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الَّتِي لَا يَتَأَدَّى هَذَا الوَاجِبُ العَظِيمُ إِلَّا بِهَا – بَلْ هِيَ أَهَمُّهَا – : تَرتِيبُ أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ لِلْخُرُوجِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ، عَلَى شَكْلِ جَمَاعَاتٍ مُرَتَّبَةٍ، تَخْرُجُ إِلَى أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ، لإِقَامَةِ الدِّينِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ؛ وَقَدْ تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيْحِهِ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بَاباً يَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ مِثْلِ هَذَا التَّرْتِيبِ لِلدَّعْوَةِ والتَّعْلِيمِ والوَعْظِ والإِرْشَادِ؛ فَقَالَ : «**بَاب مَنْ جَعَلَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَيَّاماً مَعْلُومَةً**»، ثُمَّ أَوْرَدَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِيْ وَائِلٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ؛ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ ؟ قَالَ : **أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا، مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا** [٢] .

قَالَ الْعَلاَّمَةُ الْكَشْمِيرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ مُرَادِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ : **يُرِيْدُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّعْيِيْنَاتِ لَا تُعَدُّ بِدْعَةً** [٣] . وَتَقَدَّمَ قَولُ الحَافِظِ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِيمَا

---

(١) «قواطع الأدلة في الأصول» لأبي المظفر السمعاني (١/٣٢٢) .

(٢) رواه البخاري برقم (٧٠) .

(٣) «فيض الباري» (١/٢٥٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَعَ فِي كَلامِ السَّلَفِ مِنِ اسْتِحْسَانِ بَعْضِ البِدَعِ – بِمَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ –، وأَنَّ مُرَادُهُم أَنَّ هَذَا الفِعْلَ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَذَا الوَجْهِ قَبلَ هَذَا الوَقْتِ، ولَكِنْ لَهُ أُصُولٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ يَرْجِعُ إِلَيهَا، وذَكَرَ مِنْهَا القَصَصَ؛ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُم إِنَّمَا عَنَوْا بِأَنَّهُ بِدْعَةٌ : الهَيْئَةَ الاِجْتِمَاعِيَّةَ عَلَيهِ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ؛ ثُمَّ قَالَ : **ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ اجْتَمَعُوْا عَلَى تَعْيِيْنِ وَقْتٍ لَهُ، كَمَا سَبَقَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه : **أَنَّهُ كَانَ يُذَكِّرُ أَصْحَابَهُ كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ**. وفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : **حَدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلَاثاً، وَلَا تُمِلَّ النَّاسَ**(١). وفِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا وَصَّتْ قَاصَّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ(٢). ورُوِيَ عَنْهَا رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِعُبَيدِ بْنِ عُمَيرٍ : **حَدِّثِ النَّاسَ يَوْماً، ودَعِ النَّاسَ يوماً، لَا تُمِلَّهُمْ** (٣). ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبدِ العَزِيزِ رحمه الله أَنَّهُ : **أَمَرَ القَاصَّ أَنْ يَقُصَّ كُلَّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مَرَّةً**(٤). ورُوِيَ عَنْهُ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ لَهُ : **رَوِّحِ النَّاسَ ولَا تُثْقِلْ عَلَيهِمْ، ودَعِ القَصَصَ يَومَ السَّبْتِ ويَومَ الثُّلَاثَاءِ**(٥) .

قُلْتُ : كَمَا أَوْرَدَ البُخَارِيُّ رحمه الله أَثَرَ ابْنِ مَسْعُودٍ السَّابِقَ قَبْلُ بِحَدِيثَيْنِ، وتَرْجَمَ عَلَيهِ بِقَولِهِ: «**بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ** ﷺ **يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالعِلْمِ كَيْ لاَ يَنْفِرُوا**». وقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ : وَعَطْفُ الْعِلْمِ عَلَيْهَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، لِأَنَّ الْعِلْمَ يَشْمَلُ الْمَوْعِظَةَ وَغَيْرَهَا، وَإِنَّمَا عَطَفَهُ لِأَنَّهَا مَنْصُوصَةٌ فِي الْحَدِيثِ، وَذَكَرَ الْعِلْمَ اسْتِنْبَاطًا.. ثُمَّ قَالَ : وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ تَرْكِ الْمُدَاوَمَةِ فِي الْجِدِّ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ خَشْيَةَ الْمَلَالِ؛ **وَإِنْ كَانَتِ الْمُوَاظَبَةُ مَطْلُوبَةً، لَكِنَّهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : إِمَّا كُلَّ يَوْمٍ، مَعَ عَدَمِ**

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٣٣٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨٢٠) عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ لِابْنِ أَبِي السَّائِبِ قَاصِّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : .. **وَقُصَّ عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَثِنْتَيْنِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَثَلَاثًا، فَلَا تَمَلُّ النَّاسُ هَذَا الْكِتَابَ**. وقال الهيثمي : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى بنحوه.

(٣) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٦/١٦) .

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «القُصَّاص والْمُذَكِّرين» (٣٩) عَنْ أَسْمَاءَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى صَاحِبِ الْحِجَازِ أَنْ : **مُرْ قَاصَّكَ أَنْ يَقُصَّ عَلَيَّ كُلَّ ثَلَاثَة أَيَّام مرّة**. أَو قَالَ : قَاصَّكُم.

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/١٣٠) .

www.saida-islam.weebly.com

التَّكَلُّفِ؛ وَإِمَّا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ فَيَكُونُ يَوْمُ التَّرْكِ لِأَجْلِ الرَّاحَةِ لِيُقْبِلَ عَلَى الثَّانِي بِنَشَاطٍ، وَإِمَّا يَوْمًا فِي الْجُمُعَةِ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ، وَالضَّابِطُ الْحَاجَةُ مَعَ مُرَاعَاةِ وُجُودِ النَّشَاطِ. وَاحْتَمَلَ عَمَلُ ابْنِ مَسْعُودٍ مَعَ اسْتِدْلَالِهِ أَنْ يَكُونَ اقْتَدَى بِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فِي الْيَوْمِ الَّذِي عَيَّنَهُ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ اقْتَدَى بِمُجَرَّدِ التَّخَلُّلِ بَيْنَ الْعَمَلِ وَالتَّرْكِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّخَوُّلِ، وَالثَّانِي أَظْهَرُ [(١)] .

قُلْتُ : قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ : **الْمُوَاظَبَةُ مَطْلُوبَة، لَكِنَّهَا عَلَى قِسْمَيْنِ .. وَالضَّابِطُ الْحَاجَةُ مَعَ مُرَاعَاةِ وُجُودِ النَّشَاطِ.** يُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ الْمُوَاظَبَةِ عَلَى أَعْمَالِ الوَعْظِ والإِرْشَادِ والدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ؛ فَقَدْ تَدْعُو الحَاجَةُ إِلَى يَومٍ فِي الجُمُعَةِ، أَوْ يَومَينِ أَوْ أَكْثَرَ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَوْ إِلَى يَومٍ فِي الشَّهْرِ أَوْ يَومَينِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَكْثَرَ، **والضَّابِطُ** – كَمَا قَالَ الحَافِظُ – هُوَ **الْحَاجَةُ مَعَ مُرَاعَاةِ وُجُودِ النَّشَاطِ**؛ وذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأَشْخَاصِ والأَحْوَالِ، فَمِثْلُ هَذِهِ التَّعْيِينَاتِ وَسِيلَةٌ تُعِينُ عَلَى الاِسْتِقَامَةِ عَلَى هَذَا العَمَلِ الجَلِيلِ العَظِيمِ، حَيثُ لَا سَبِيلَ لِلاِسْتِقَامَةِ عَلَيهِ إِلَّا بِتَعْيِينِ أَوْقَاتٍ لِلْقِيَامِ بِهِ بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ مُنَظَّمَةٍ، **وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ**؛ وأَمَّا الجُهُودُ الْمُبَعْثَرَةُ الْمُشَتَّتَةُ فَلَا تُخْرِجُ ثَمَرَةً فِي أَيٍّ مِنْ مَيَادِينِ العِلْمِ والعَمَلِ، فَمَا مِنْ جَامِعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ ولَا مَعْهَدٍ شَرْعِيٍّ، إِلَّا وأَهْلُهَا يُحَدِّدُونَ أَوْقَاتاً مُعَيَّنَةً، وأَمَاكِنَ مُخَصَّصَةً، بِشُرُوطٍ وضَوَابِطَ مُحَدَّدَةٍ وثَابِتَةٍ، لِتَعْلِيمِ العِلْمِ وتَخْرِيجِ الدُّعَاةِ وتَأْهِيلِ طَلَبَةِ العِلْمِ؛ بَلْ وَتَسْتَعْمِلُ كَثِيرٌ مِنَ الجَامِعَاتِ الدِّينِيَّةِ دِرَاسَةَ الشَّرِيعَةِ بِنِظَامِ البَكَالُوْرْيُوسِ وَالْمَاجِسْتِيرِ وَالدُّكْتُورَاه، وَهُوَ فِي الأَصْلِ نِظَامٌ أَحْدَثَهُ غَيرُ الْمُسْلِمِينَ؛ ومَا مِنْ عَمَلٍ دَعَوِيٍّ فَرْدِيٍّ أَوْ جَمَاعِيٍّ، إِلَّا وهُوَ قَائِمٌ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ التَّعْيِينَاتِ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ جَامِعَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ ولَا عَمَلٌ دَعَوِيٌّ مُنَظَّمٌ يَأْخُذُ عَلَى عَاتِقِهِ تَحْقِيقَ مُتَطَلَّبَاتِ الدَّعْوَةِ والتَّعْلِيمِ فِي الدَّاخِلِ والخَارِجِ إِلَّا بِتَرْتِيبِ أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِهَا، كَمَا يَجْعَلُونَ لِهَذَا بَرَامِجَ مُعَيَّنَةً ومَنَاهِجَ مُحَدَّدَةً لِتَحْقِيقِ مَقْصِدِهَا الْمَشْرُوعِ بِأَصْلِهِ، وإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الوَسِيلَةُ مَنْصُوصاً عَلَيهَا بِعَينِهَا .

ومِنْ هَذَا أَيْضاً تَخْصِيصُ وَزَارَةٍ مَسْؤُولَةٍ عَنِ الأَوْقَافِ، والدَّعْوَةِ والإِرْشَادِ، وَشُؤُونِ الزَّكَاةِ والحَجِّ، وتَرْتِيبِ أُمُورِ الْمَسَاجِدِ وعَمَلِ الأَئِمَّةِ والْمُؤَذِّنِينَ والخُطَبَاءِ والوُعَّاظِ، بِتَرْتِيبِ أُمُورِ

---

(١) «فتح الباري» (١/١٦٢-١٦٣) .

www.saida-islam.weebly.com

تَوْظِيفِهِمْ وتَأْهِيلِهِمْ، وتَرْتِيبِ أَوْقَاتِ دَوَامِهِم وإِجَازَاتِهِم وغَيرِ ذَلِكَ؛ وكَذَلِكَ تَخْصِيصُ دَائِرَةٍ لِلإِفْتَاءِ، تَضُمُّ لَجْنَةً مِنَ الْمُفْتِينَ، وأُخْرَى لِلْقَضَاءِ، وتَشْكِيلُ الْمَجَامِعِ الفِقْهِيَّةِ، وَالْمُؤْتَمَرَاتِ العَالَمِيَّةِ لِلدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ[١]؛ وغَيرِهَا مِنَ الدَّوَائِرِ وَاللِّجَانِ الْمُخْتَصَّةِ بِالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، بِحَيثُ يَكُونُ لَهَا لِقَاءَاتٌ دَورِيَّةٌ مُنْتَظِمَةٌ، بِآلِيَّاتٍ مُعَيَّنَةٍ لِلعَمَلِ، وتَرْتِيبَاتٍ مُنَظَّمَةٍ ومُسْتَمِرَّةٍ لَا تُخَالَفُ، وشُرُوطٍ لِلْقَبُولِ فِيهَا لَمْ يَرِدْ فِيهَا دَلِيلٌ خَاصٌّ، وإِنَّمَا الضَّابِطُ فِيهَا تَحْقِيقُ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ مُقْتَضِيهِ مَوْجُوداً فِي السَّابِقِ؛ ولَا يُقَالُ إِنَّ الْتِزَامَ مَا لَمْ يَلْتَزِمْهُ الشَّارِعُ يُعَدُّ بِدْعَةً؛ فَإِنَّ البِدْعَةَ الْمَذْمُومَةَ شَرْعاً إِنَّمَا تَكُونُ فِي العِبَادَاتِ التَّوْقِيفِيَّةِ ومَا يَجْرِيْ مَجْرَاهَا كَمَا تَقَدَّمَ، أَمَّا الْتِزَامُ وَسِيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِهَا مَصْلَحَةٌ لِلْأُمَّةِ فِي دِيْنِهَا ودُنْيَاهَا وعَاقِبَةِ أَمْرِهَا، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ[٢]، كَمَا قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي فِعْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : **وَاحْتَمَلَ عَمَلُ ابْنِ مَسْعُودٍ مَعَ اسْتِدْلَالِهِ أَنْ**

---

(١) وللاستزادة يقرأ كتاب «المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة» والذي كان يَترأَّسُهُ الشيخ ابن باز؛ فمنه يتبيَّن للقارئ الحاجة الملحَّة لمثل هذه الترتيبات التي بدونها لا يمكن القيام بمتطلبات الدعوة.

(٢) قلت : تقدَّمَ قولُ ابن تيمية رحمه الله : **السُّنَّةُ : هِيَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، سَوَاءٌ فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ فُعِلَ عَلَى زَمَانِهِ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ وَلَمْ يُفْعَلْ عَلَى زَمَانِهِ، لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهِ، أَوْ وُجُودِ الْمَانِعِ مِنْهُ** . قلت : قيامُ الدَّليل الشَّرعيِّ على مشروعيَّة الفعل الَّذي لم يفعله ﷺ ولم يُفعَل في زمانه يكون بأمر الشارع به : **إمَّا على سبيل الخصوص** (وهو الدَّليل الخاص)، كالأمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب؛ **وإمَّا على سبيل العموم** (وهو الدَّليل العامُّ)، كالأمر بحفظ الشَّريعة من التَّحريف، والأمر بتعليم العلم ونشره وتبليغ الدِّين وغيره؛ فهذه أوامرُ تتعلَّق بالأمَّة على اختلاف أزمنتها وأحوالها، فيجب على الأمَّة أن تقوم بامتثالها بالقيام بها بما يتوافق مع الزمان والمكان والحال الَّذي تعيشه الأمة، فلكلِّ زمانٍ ومكانٍ وحالٍ من الوسائل لتحقيق هذه المقاصد المأمور بها ما يناسبها ويحقِّقها، ولا يناسب أزمنة وأمكنة وأحوالاً أخرى؛ وليس أدلّ على هذا من تشريع الجهاد على مراحل بما يتوافق مع أحوال الأمة من القوَّة والضَّعف، فما يصلح في العهد المدني لإقامة الدين من الوسائل كان منهيّاً عنه في العهد المكيِّ؛ فالشارع الحكيم حينما يأمر بتحقيق أمر مقصود لذاته، فإنه يَدخُلُ في ضمن هذا الأمرِ الوسائلُ الموصلةُ إلى هذا المقصود، ولا يشترط أن ينصَّ عليها بعينها، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال كما تقدم، «**وَالدَّلِيلُ العَامُّ حُجَّةٌ عِندَ الجَمِيعِ عِندَ عَدَمِ المُعَارِضِ**». «تمام المنة للعلَّامة الألباني» ص (١٦٦). وقد مرَّ بعضٌ من هذا، وسيأتي كلامٌ للشاطبيِّ يبيِّن هذه الحقيقة الشرعيَّة بما لا يَدَعُ مجالاً للشكِّ .

www.saida-islam.weebly.com

يَكُونَ اقْتَدَى بِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فِي الْيَوْمِ الَّذِي عَيَّنَهُ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ اقْتَدَى بِمُجَرَّدِ التَّخَلُّلِ بَيْنَ الْعَمَلِ وَالتَّرْكِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّخَوُّلِ، وَالثَّانِي أَظْهَرُ .

فَالظَّاهِرُ مِنْ فِعْلِهِ رضي الله عنه أَنَّهُ اقْتَدَى بِفِعْلِهِ ﷺ بِالتَّخَوُّلِ فِي الْمَوْعِظَةِ والعِلْمِ وتَحْدِيدِ الوَقْتِ لِذَلِكَ، دُونَ التَّقَيُّدِ بِنَفْسِ الوَقْتِ الَّذِي كَانَ يُخَصِّصُهُ النَّبِيُّ ﷺ لِذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُخَصِّصُ أَيَّاماً لِلْوَعْظِ والعِلْمِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ فِي كِتَابِ العِلْمِ، «**بَاب هَلْ يُجْعَلُ لِلنِّسَاءِ يَوْمٌ عَلَى حِدَةٍ فِي العِلْمِ؟**» ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ [(١)]. وفِي رِوَايَةٍ قَالَ : جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، قَالَ : "**اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا** ". فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ [(٢)]. والأَمْرُ فِي تَخْصِيصِ هَذِهِ الأَيَّامِ وتَحْدِيدِهَا – كَمَا قَالَ الحَافِظُ – **يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ، .. وَالضَّابِطُ الْحَاجَةُ** . فَرَأَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ الأَمْرَ فِي هَذَا وَاسِعٌ، يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى تَحْقِيقِ الْمَصْلَحَةِ؛ وتَعَلُّمُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وإِلَى دِينِهِ والقِيَامُ بِهَا عَمَلِيّاً مِنْ أَعْظَمِ العُلُومِ الَّتِي تَنْفَعُ صَاحِبَهَا وَالأُمَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ [(٣)] .

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠١) .

(٢) رواه البخاري (٧٣١٠) ومسلم (٢٦٣٣) .

(٣) قلت : المراد الحقيقيُّ من العلم : هو معرفةُ ما جاء به رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعال والتقريرات، وامتثال ما فيها من الأوامر، واجتناب ما فيها من النواهي، فكما أنَّ الصَّلاة لابدَّ من تعلُّمها عمليّاً، وغيرها من العبادات العمليّة؛ كذلك الدَّعوة إلى الدِّين، لا بدَّ من تعلُّمها عمليّاً بمصاحبة أهل البصيرة في الدَّعوة، فتعلُّم المسلم كيفيةَ الصَّلاة أمرٌ لازم، ولا بدَّ من أخذها عمليّاً من أهل البصيرة في ذلك، كما أنَّ تعلُّم كيفيَّة دعوة النَّاس إلى الصَّلاة علمٌ أصعب من تعلُّم كيفيَّة الصَّلاة نفسها، لأنَّ تعليمَ الطالب أسهلُ بكثير من تذكير الغافل ودعوة الْمُعْرِضِ، لأنَّ دعوةَ الْمُعْرِضِ بمثابة حراثة الأرض وتهيئتها لقبول البذار، وتعليم الطالب بمثابة بذر الحبِّ، ولا شكَّ أنَّ الأول أشدُّ على النَّفس وأعظمُ في الثَّمرة ومُقَدَّمٌ في الرُّتْبَةِ؛ ولولا الدَّعوةُ لَمَا كان هناك طلبٌ للعلم؛ كما أَنَّ الدَّعوةَ تختلفُ باختلافِ مَراتِبِ النَّاس وأَحوالِهم، كما ذكره العلماء؛ وانظر «مفتاح دار=

www.saida-islam.weebly.com

فَتَرْتِيْبُ مِثْلِ هَذِهِ الأَوْقَاتِ لأَهْلِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ لِحِفْظِ الدِّيْنِ وتَعَلُّمِهِ وتَعْلِيمِهِ وَتَبْلِيْغِهِ، خَاصَّةً وَأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ – عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ الْبَالِغَةِ – قَدْ تُرِكَ وَنُسِيَ أَكْثَرُهُ مُنْذُ أَزْمِنَةٍ طَوِيْلَةٍ، كَمَا قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) : **إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ القُطْبُ الأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وهُوَ الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ النَّبِيِّيْنَ أَجْمَعِيْنَ، وَلَوْ طُوِيَ بِسَاطُهُ وَأُهْمِلَ عِلْمُهُ وعَمَلُهُ، لَتَعَطَّلَتِ النُّبُوَّةُ، وَاضْمَحَلَّتِ الدِّيَانَةُ، وعَمَّتِ الفَتْرَةُ، وفَشَتِ الضَّلالَةُ، وشَاعَتِ الْجَهَالَةُ، وَاسْتَشْرَى الفَسَادُ، واتَّسَعَ الْخَرْقُ، وخَرِبَتِ البلادُ، وهَلَكَ العِبَادُ، ولَمْ يَشْعُرُوا بِالهَلاكِ إِلاَّ يَوْمَ التَّنَادِ، وقَدْ كَانَ الَّذِي خِفْنَا أَنْ يكونَ، فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، إِذْ قَدِ انْدَرَسَ مِنْ هَذَا القُطْبِ عَمَلُهُ وعِلْمُهُ، وَانْمَحَقَ بِالْكُلِّيَّةِ حَقِيقَتُهُ ورَسْمُهُ** [١] .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : **وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْبَابَ – أَعْنِي بَابَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ – قَدْ ضُيِّعَ أَكْثَرُهُ مِنْ أَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ إِلَّا رُسُومٌ قَلِيلَةٌ جِدّاً، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ بِهِ قِوَامُ الأَمْرِ وَمِلَاكُهُ** [٢] .

=السعادة» (١/١٩٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥). فالدعوةُ ليست مجرَّدَ معلوماتٍ يحفظها الإنسان ويلقيها على مسامع الناس، ولكنَّها همٌّ وشفقةٌ ورحمةٌ في قلب الداعي تُجاه المدعوِّ لإنقاذه مِمَّا هو غارقٌ فيه مِنَ الظُّلمات، يدفعه للتَّصرُّفِ مع المدعوِّ بما يُلائمُ حَالَهُ من الأفعال والأقوال؛ وهذا لَا يُدرِكُهُ الإنسانُ بالقراءة النَّظريَّةِ الْمُجَرَّدَةِ، بل لا بدَّ – كما تقدَّم – من مصاحبة أهل الحكمة في الدَّعوة، والَّذين قَضَوا أعمارَهم في سبيلها، للأخذ عنهم. كما أنَّ لكلِّ علم ميداناً يُتَعَلَّمُ فيه، وبيئةً يُفْهَمُ فيها، فلا بُدَّ من تكوين هذه البيئة لتعليم المسلم كيف يدعو الغافلين والمعرضين إلى الله وإلى أوامره، بالرَّحمةِ والشَّفقةِ والأخلاق الحسنة، مع احتمال أذاهم، والصبر على مخالفتهم، والدعاء لهم بالهداية؛ وهذا لا يكون إلَّا بمصاحبة أهل هذه الصِّفات الدَّعَوِيَّةِ، ولا يكفي دراستها وتدريسها نظريّاً، كغيرها من العلوم العمليَّة. وكما قال الإمامُ مالكٌ : **يُرْجَعُ فِي كُلِّ فَنٍّ إِلَى أَهْلِهِ**.

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٣٢) .

(٢) «شرح مسلم للنووي» (١/٢١٤) .

www.saida-islam.weebly.com

فَكَيفَ سَيَقُومُ هَذَا العَمَلُ العَظِيمُ الثَّقِيلُ بِدُونِ مِثْلِ هَذِهِ التَّرْتِيبَاتِ ؟! وقَدْ عُلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ أَيُّ عَمَلٍ دَعَوِيٍّ أَوْ تَعْلِيمِيٍّ يُؤْتِيْ أُكُلَهُ، بِدُونِ تَرْتِيبِ الأَوْقَاتِ لَهُ .

فَخُلَاصَةُ القَولِ فِي هَذَا : أَنَّ الإِحْدَاثَ فِي الدِّينِ يُقْصَدُ بِهِ عِندَ العُلَمَاءِ : التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ ﷻ بِعِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا؛ وَهِيَ البِدَعُ الَّتِي عَظُمَ نَكِيْرُ السَّلَفِ عَلَى فَاعِلِهَا، وَاشْتَدَّ تَحْذِيرُهُمْ مِنهَا، حَتَّى عَدُّوهَا أَشَدَّ خَطَراً مِنَ الكَبَائِرِ؛ أَمَّا الوَسَائِلُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا لِأَدَاءِ الوَاجِبِ الْمُطْلَقِ – وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَأْتِ الشَّرْعُ بِتَحْدِيدِ كَيفِيَّةِ أَدَائِهِ عَلَى صُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ، مِثلَ الجِهَادِ وَقِيَامِ الإِمَامَةِ بِإِصْلَاحِ شُؤُونِ الرَّعِيَّةِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، وَبِرِّ الوَالِدَينِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ –، أَوِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالعِبَادَةِ تَعَلُّقَ الوَسَائِلِ فَحَسْبُ، فَلَا تَدْخُلُ فِي الإِحْدَاثِ فِي الدِّينِ، لِأَنَّهَا لَا يُقْصَدُ بِهَا التَّقَرُّبُ بِهَا بِخُصُوصِهَا، وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِأَدَاءِ الوَاجِبِ أَوْ غَيرِهِ مِنْ بَابِ الوَسَائِلِ، فَلَوْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ أَوِ الْمَكَانُ تَغَيَّرَتْ، فَهِيَ غَيرُ مَقْصُودَةٍ لِذَاتِهَا.

وفِي هَذَا البَابِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ، فَفِي **أَحْكَامِ الأَذَانِ** مَثَلاً : اسْتِعْمَالُ مُكَبِّرَاتِ الصَّوْتِ وَرَفْعُهَا عَلَى الْمَآذِنِ لِإِسْمَاعِ النَّاسِ، بَعْدَ أَنْ عَلَتِ الدُّورُ وَتَبَاعَدَتْ وَاحْتِيجَ إِلَى تَبْلِيغِ الصَّوْتِ؛ وفِي **الصَّلَاةِ** : مِثْلُ اسْتِعْمَالِ البُوصَلَةِ الحَدِيثَةِ لِمَعْرِفَةِ القِبْلَةِ، وَكَمَا وُضِعَتْ خُطُوطٌ قَوسِيَّةٌ مُؤَخَّراً فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ، يَسْتَدِلُّ بِهَا الَّذِي لَا يَرَى الكَعْبَةَ عَلَى اتِّجَاهِ القِبْلَةِ، لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيهِ اسْتِقْبَالُ عَينِهَا فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ؛ وفِي **الزَّكَاةِ** : حِسَابُهَا بِالوَسَائِلِ العَصْرِيَّةِ، وَإِخْرَاجُهَا بِهَا مِثلَ الخَصْمِ الحِسَابِيِّ بِالأَقْسَاطِ قَبلَ الحَولِ شَهْرِيّاً، تَيْسِيراً عَلَى مُخْرِجِهَا، لِأَنَّهُ يَجُوزُ تَعْجِيلُ إِخْرَاجِهَا عَلَى الصَّحِيحِ؛ وفِي **الحَجِّ** : مِثلُ إِنْشَاءِ الطَّابِقِ الثَّانِي فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ، لِلطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَرَمْيِ الجَمَرَاتِ؛ وفِي **الجِهَادِ** : مِثلُ وَسَائِلِ الجِهَادِ العَصْرِيَّةِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ، كَالوَسَائِلِ العَسْكَرِيَّةِ الْمُتَطَوِّرَةِ، وَالسِّلَاحِ، وَنُظُمِ إِدَارَةِ الجُيُوشِ، وَمَرَاتِبِ الجُنْدِ، وَنَحْوِهَا، لِلقِيَامِ بِالجِهَادِ فِي أَكْمَلِ صُوَرِهِ.

وفِي **بَابِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ** ﷻ : مِثْلُ اسْتِعْمَالِ الإِعْلَامِ وَالصَّحَافَةِ، وَوَسَائِلِ الِاتِّصَالَاتِ الإِلِكْتُرُونِيَّةِ وَغَيرِهِ؛ وفِي **طَلَبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ** : مِثْلُ مُسَابَقَاتِ تَحْفِيظِ القُرْآنِ، وَغَيرِهَا، مِمَّا

www.saida-islam.weebly.com

يُقْصَدُ بِهِ حَثُّ النَّاسِ عَلَى العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَمِثْلُ جَعْلِ طَلَبِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى نِظَامِ الكُلِّيَّاتِ الحَدِيثَةِ وَالطُّرُقِ العَصْرِيَّةِ، الَّتِي لَمْ تُعْرَفْ فِي العَصْرِ الأَوَّلِ؛ وَالأَمْثِلَةُ لَا تُحْصَى فِي هَذَا البَابِ، وَكُلُّ هَذِهِ الوَسَائِلِ لَمْ تَكُنْ فِي العَصْرِ الأَوَّلِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ فِي الإِحْدَاثِ الْمَذْمُومِ فِي الدِّينِ، وَلَا يُفْتِي بِذَلِكَ مَنْ يَعْرِفُ مَقَاصِدَ الشَّرِيعَةِ، وَلَا مَنْ يَعْلَمُ قَوَاعِدَ الفِقْهِ وَأُصُولِهِ الَّتِي تَنْبَنِي عَلَيهَا الأَحْكَامُ؛ وَلِهَذَا يُفَرِّقُ العُلَمَاءُ بَيْنَ الزِّيَادَةِ عَلَى أَلْفَاظِ الأَذَانِ لِأَنَّهَا بِدْعَةٌ، وَبَيْنَ اسْتِعْمَالِ الْمَآذِنِ العَالِيَةِ وَسِيلَةً لِتَبْلِيغِ الصَّوتِ، كَمَا فِي الحَرَمَيْنِ، فَهُوَ مَشْرُوعٌ؛ وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ الزِّيَادَةِ عَلَى خُطْبَتَيِ الجُمُعَةِ خُطْبَةً ثَالِثَةً، فَهِيَ بِدْعَةٌ، وَبَيْنَ جَعْلِ الْمِنْبَرِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، إِنِ احْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ، لِكَثْرَةِ النَّاسِ، فَهُوَ مَشْرُوعٌ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ – البِدْعَةِ الْمَذْمُومَةِ، وَالوَسَائِلِ الَّتِي لَهَا حُكْمُ مَقَاصِدِهَا–، لَا بُدَّ مِنْهُ شَرْعاً وَعَقْلاً؛ فَإِنَّهُ لَوْ حَرُمَتْ كُلُّ وَسِيلَةٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى أَدَاءِ مَا أَمَرَ اللهُ ﷻ بِهِ، أَوْ نَدَبَ إِلَيهِ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ، وَالجِنَايَةِ عَلَى الدِّينِ، وَالصَّدِّ عَنِ سَبِيلِ اللهِ القَوِيمِ .

وَالقَاعِدَةُ فِي هَذَا البَابِ : أَنَّ الوَسَائِلَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ الشَّرْعِ لَا تُمْنَعُ لِمُجَرَّدِ كَونِهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ عَصْرِ السَّلَفِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ لَا تَوْجَدُ لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهَا فِي عَهْدِهِ ﷺ : إِمَّا لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَصْلاً، أَوْ لِعَدَمِ الحَاجَةِ إِلَيهَا فِي ذَلِكَ العَصْرِ، أَوْ لِوُجُودِ مَانِعٍ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ عَنِ الإِمَامِ ابْنِ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ [(١)] .

فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَوْضُوعِ بَحْثِنَا، وَهُوَ الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، نَجِدُ مِنْ دُونِ أَدْنَى شَكَّ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي تَرْتِيبِ الأَوْقَاتِ وَإِخْرَاجِ الْجَمَاعَاتِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ ظَاهِرَةٌ لَا تَخْفَى [(٢)]؛

---

(١) من مقدمة تحقيق كتاب «الحسبة لابن تيمية» لعلي بن نايف الشحود. ص (١٤٤-١٤٦) بتصرف.

(٢) سيأتي الكلام على بعضِ هذه المصالح الشَّرعيَّة التي تحقَّقت بهذا العمل في أنحاء العالم المختلفة، ممَّا بَيَّنَهُ أهلُ العلم، ممَّن رأى نتائج هذا العمل عن كثبٍ، لا ممَّن قرأ عنهم أو بَلَغَهُ من غيرهم . وذلك في الفصل الخامس .

www.saida-islam.weebly.com

كَمَا أَنَّ الضَّرُورَةَ لَمْ تَكُنِ تَقْتَضِيْ إِحْدَاثَ مِثْلِ هَذَا الخُرُوجِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ، لَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا فِي أَحَدٍ من أَزْمِنَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتِيْ مَرَّتْ عَبْرَ ثَلاثَةَ عَشَرَ قَرْناً مِنْ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، كَمَا تَقَدَّمَ؛ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ خِلافَةٌ إِسْلامِيَّةٌ، تَتَبَنَّى الْقِيَامَ بِوَاجِبِ تَبْلِيْغِ الدِّيْنِ، عَنْ طَرِيْقِ إِرْسَالِ الجُيُوشِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلى اللهِ ﷻ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِمُ الْعُلَمَاءُ لِلتَّعْلِيمِ، وَالْقُضَاةُ لِفَصْلِ النِّزَاعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِقامةِ الحُدُودِ وَالْقِصَاصِ وَالتَّعَازِيْرِ، وَيُقَامُ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ خِلالِ نِظَامِ الْحِسْبَةِ، حَيْثُ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ بِالتَّرْغِيبِ فِيهِ، والإِلْزَامِ بِهِ، والعُقُوبَةِ عَلَى تَرْكِهِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ بالتَّرْهِيبِ مِنهُ، والعُقُوبَةِ عَلَى فِعْلِهِ .

❖❖❖❖❖

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ :

سُنَّتُهُ ﷺ وَسَبِيلُهُ فِي تَجوَالُهُ لِدَعوَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، وَتَذكِيرِ الْمُؤمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَاتِّخَاذُهُ دَلِيلاً فِي جَولاتِهِ عِندَ الحَاجَةِ :

لَمْ يَكُنْ مِنْ دَأْبِهِ ﷺ فِي مَكَّةَ أَنْ يَنتَظِرَ قُدُومَ النَّاسِ إِلَيهِ لِيُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ ﷻ، بَل كَانَ ﷺ هُوَ الَّذِي يَذهَبُ بِنَفْسِهِ بِمَقَالَتِهِ إِلى النَّاس؛ فَكَانَ ﷺ يَتَجَوَّلُ عَلَى الْمُشْرِكِين، يَتْبَعُهُم فِي مَنَازِلِهِم وأَسْوَاقِهِم، يَدْعُوهُم إِلَى الإِيْمَانِ بِاللهِ ﷻ، ونُصْرَتِهِ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ ﷻ؛ كَمَا قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما : مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمِجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ :" **مَنْ يُؤْوِينِي ؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ وَلَهُ الْجَنَّةُ** ". حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أَوْ مِنْ مُضَرَ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ : احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ [(١)] .

وَعَنْ مُدْرِكَةَ بْنِ الحَارِثِ رضي الله عنه قَالَ : حَجَجْتُ مَعَ أَبِي، فَلَمَّا نَزَلْنَا مِنىً، إِذَا نَحْنُ بِجَمَاعَةٍ، فَقُلْتُ لأَبِي : مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ ؟ قَالَ : هَذَا الصَّابِئُ . فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا** " [(٢)] .

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عُبَادَةَ مِنْ بَنِي الدِّيلِ – وَكَانَ جَاهِلِيّاً فَأَسْلَمَ – قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِيْ الْمَجَازِ، وَهُوَ يَقُوْلُ :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا** ". وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُول : إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٤٥٦) و(١٤٦٥٣) والبيهقي في سننه (١٧٥١٣) وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» : هذا إسناد جيِّد على شرط مسلم، ولم يخرِّجوه. وقال الحافظ في «فتح الباري» : إسناده حسن، وصحَّحه الحاكم وابن حبان؛ وقال الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨٠٦) وقال الهيثمي : رجاله ثقات .

www.saida-islam.weebly.com

يَتَّبِعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْت عَنهُ، فَقَالُوا : هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ [١] . وعَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا، يَقُولُ :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا** ". قَالَ : وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ، وَيَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسِ لَا يُغْوِيَنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى . قَالَ : وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [٢] .

وَكَانَ ﷺ يَأْخُذُ مَعَهُ دَلِيلاً يَدُلُّهُ عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ؛ فعَنْ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، والزُّهْرِيِّ قَالَ : لَمَّا اشْتَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : يَا عَمِّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَاصِرٌ دِينَهُ بِقَوْمٍ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ رَغْمَ قُرَيْشٍ عِزًّا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَامْضِ بِي إِلَى عُكَاظٍ، فَأَرِنِي مَنَازِلَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَأَنْ يَمْنَعُونِي وَيُؤْوُونِي حَتَّى أُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ ﷻ مَا أَرْسَلَنِي بِهِ . قَالَ : فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا ابْنَ أَخِي امْضِ إِلَى عُكَاظٍ فَأَنَا مَاضٍ مَعَكَ، حَتَّى أَدُلُّكَ عَلَى مَنَازِلِ الْأَحْيَاءِ، فَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَقِيفٍ، ثُمَّ اسْتَقْرَأَ الْقَبَائِلَ فِي سَنَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، وَذَلِكَ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعْلِنَ الدُّعَاءَ، لَقِيَ السِّتَّةَ نَفَرٍ الْخَزْرَجِيِّينَ وَالْأَوْسِيِّينَ .. فَلَقِيَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَيَّامِ مِنًى عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ لَيْلًا، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ وَالْمُؤَازَرَةِ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ .. [٣] .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَدَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَكَانَ مُقَدَّمًا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ رَجُلاً نسَّابَةً فَسَلَّمَ، وَقَالَ : مِمَّنِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده من رقم (١٦٠٦٣) إلى (١٦٠٧٠) والطبراني في الكبير من رقم (٤٥٨٢) إلى (٤٥٩٠) وقال الهيثمي : رواه أحمد وابنه والطبراني في الكبير والأوسط باختصار بأسانيد، وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٦٠٣) وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. قال في البداية: كذا قال في هذا السياق أبو جهل. وقد يكون وهماً، ويحتمل أن يكون تارةً يكون ذا، وتارةً يكون ذا، وأنَّهما كانا يتناوبان على أذاته ﷺ .

(٣) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في «دلائل النبوة» (٢٢٦) .

www.saida-islam.weebly.com

الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ رَبِيعَةَ . قَالَ : وَأَيُّ رَبِيعَةَ أَنْتُمْ ؟ .. فَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ؛ قَالَ : فَدَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَمَا نَهَضْنَا حَتَّى بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ سُرَّ بِمَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعْرِفَتِهِ بِأَنْسَابِهِمْ [١] .

ثُمَّ إِنَّهُم لَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِه، يُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ، وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ.؛ فَبَعَثَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ، فَكَانَ يَنْزِلُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وَكَانَ مُصْعَبٌ يُسَمَّى بِالْمَدِينَةِ «الْمُقْرِئَ»، **وَكَانَ أَبُو أُمَامَةَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى دُورِ الْأَنْصَارِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُفَقِّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ** [٢] .

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٢-٤٢٧). قال ابن حجر في الفتح : أخرج الحاكم وأبو نُعيم والبيهقي في الدلائل بإسنادٍ حسنٍ، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : حدثني علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذكر شيئاً من هذا الحديث . وفي هذه الرواية بيانٌ لكيفيَّة التجوال على الناس، حيث يستحبُّ أن يكون هناكَ دليلٌ للجولة، له معرفةٌ بالمدعوِّين أو بأنسابهم، يُعَرِّفُهُم بالداعي المتكلِّم، وبقصدِهِ من دعوته، ويكونَ مِنَ المعروفين بالعدالة لدى المدعوين، ليكونَ أَدْعَى لقَبُولِ دَعوَتِهِ، وكُلَّمَا كَانَ العَدَدُ أَكبَرَ كَانَ أَحْسَنَ، تَكثِيراً لِسَوادِ الدُّعَاةِ إلى اللهِ، وتَعْزِيزاً لجُهْدِهِم، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ** ﴾ [يس:١٤]. كما أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَخَيَّرُ الدَّلِيلَ الْمُنَاسِبَ العَارِفَ، فعَنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **لَا أَرَى لِي عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَخِيكَ مَنَعَةً، فَهَلْ أَنْتَ مُخْرِجِي إِلَى السُّوقِ غَدًا، حَتَّى نقر فِي مَنَازِلَ قَبَائِلِ النَّاسِ** ؟" وَكَانَتْ مَجْمَعَ الْعَرَبِ. قَالَ : فَقُلْتُ: هَذِهِ كِنْدَةُ وَلَفُّهَا، وَهِيَ أَفْضَلُ مَنْ يَحُجُّ الْبَيْتَ مِنَ الْيَمَنِ، وَهَذِهِ مَنَازِلُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، وَهَذِهِ مَنَازِلُ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ . قَالَ : فَبَدَأَ بِكِنْدَةَ فَأَتَاهُمْ، فَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ. قَالَ : مِنْ أَيِّ الْيَمَنِ ؟ قَالُوا : مِنْ كِنْدَةَ . قَالَ : مِنْ أَيِّ كِنْدَةَ؟ قَالُوا : مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ مُعَاوِيَةَ . قَالَ : فَهَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ ؟ قَالُوا : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : "**تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** ".. أخرجه الحافظ أبو نعيم كما في البداية (٣/١٤٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٤٣٨) . قلت : فهذه جولة دعوية مقامية، قام بها مصعب بن عمير ودليله فيها أسعد بن زرارة، حيث تسبَّبت هذه الجولات الدعوية بإسلام دور الأنصار، حتى لم يبق دار من دورهم إلَّا ودخلها الإسلام؛ وبهذه الجولات أسلم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وغيرهم من خيار الأنصار، فأسلم بهم أقوامهم . وانظر القصة بتمامها في الدلائل (٢/٤٣٨-٤٤٣).

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ، كُلّمَا اجْتَمَعَ لَهُ النّاسُ بِالْمَوْسِمِ، أَتَاهُمْ يَدْعُو الْقَبَائِلَ إِلَى اللهِ وَإِلَى الإِسْلامِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ مِنَ الْهُدَى وَالرّحْمَةِ، وَهُوَ لا يَسْمَعُ بِقَادِمٍ يَقْدَمُ مَكّةَ مِنَ الْعَرَبِ، لَهُ اسْمٌ وَشَرَفٌ إلاَّ تَصَدّى لَهُ فَدَعَاهُ إِلَى اللهِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا عِنْدَهُ [١] .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَالْمَقْصُودُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَمَرَّ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجِهَارًا، لَا يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ صَارِفٌ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ صَادٌّ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي أَنْدِيَتِهِمْ، وَمَجَامِعِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ وَفِي الْمَوَاسِمِ، وَمَوَاقِفِ الْحَجِّ، يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ حُرٍّ وَعَبْدٍ، وَضَعِيفٍ وَقَوِيٍّ، وَغَنِيٍّ وَفَقِيرٍ، جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ شَرَعٌ سَوَاءٌ[٢].

فَكَانَتْ هَذِهِ الجَولَاتُ الدَّعوِيَّةُ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ هِيَ السَّبِيلَ لِخَلَاصِ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّا كَانُوا يُلَاقُونَهُ مِنْ صُنُوفِ العَذَابِ، كَمَا كَانَتْ جَولَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرعَونَ وَقَومِهِ الكَافِرِينَ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ العُصَاةِ الْمُذْنِبِينَ سَبَباً لِخَلَاصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الذِّلَّةِ إِلَى العِزَّةِ، وَمِنَ الِاسْتِعْبَادِ وَالِاسْتِضْعَافِ إِلَى السِّيَادَةِ وَالِاسْتِخْلَافِ، بَعْدَ أَنِ اجْتَهَدَ عَلَيهِم لِيُخْرِجَهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ وَهَكَذَا هِيَ السُّنَنُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ عَلَى مَرِّ العُصُورِ وَكَرِّ الدُّهُورِ؛ فَقَدْ تَسَبَّبَتْ هَذِهِ الجَولَاتُ الدَّعوِيَّةُ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ – بَعْدَ صَبْرٍ وَثَبَاتٍ واسْتِقَامَةٍ عَلَيهَا، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ كَالجِبَالِ عَلَى مَوعُودِ اللهِ عَلَيهَا، – تَسَبَّبَتْ بِإِسْلَامِ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الأَنْصَارِ، الَّذِينَ وَلَّوْا إِلَى قَومِهِمْ مُنْذِرِينَ، ثُمَّ قَامَتْ دَولَةُ الإِسْلَامِ عَلَى أَرْضِهِم، وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيهَا؛ فَصَارَتِ الْمَنَارَةَ الَّتِي أَضَاءَتْ بِنُورِهَا الأَرْضُ بَعْدَ الظُّلُمَاتِ، وَاجْتَمَعَ فِيهَا كُلُّ خَيرٍ بَعْدَ الشَّتَاتِ، وَانْتَشَرَ مِنهَا النُّورُ وَالهُدَى حَتَّى بَلَغَ طِبَاقَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا هَاجَرَ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَدَعْ هَذَا التَّجْوَالَ أَيْضاً، فَكَانَ ﷺ يَتَجَوَّلُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ واللَّيلِ، يَدْعُوهُم للإِيْمَان، ويُذَكِّرُهُم بِالآخِرَةِ والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، مِنْ قِيَامِ اللَّيلِ

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٣/٥٤).

www.saida-islam.weebly.com

وَغَيرِهِ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي رُبَّمَا حَصَلَ التَّقْصِيرُ بِشَأْنِهَا، أَوْ لِبَيَانِ أَهَمِّيَّتِهَا ونَحْوِ ذَلِكَ؛ فعَنْ أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ .. حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ، فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، .. فَسَلَّمَ عَلَيْهِمِ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَنَزَلَ **فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ**، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ : أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ : اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ : فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .. [(١)] .

وعَنْ أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ :"**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ** "..[(٢)] .

فَالقِيَامُ بِمِثْلِ هَذِهِ الجَولَاتِ الدَّعوِيَّةِ والتَّذْكِيرِيَّةِ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ عَنِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَسَبِيلٌ قَوِيمٌ لِإِقَامَةِ الدِّينِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِرْجَاعِهِم إِلَيهِ حَالَ ابْتِعَادِهِم عَنهُ، وَخُرُوجِهِ مِنْ حَيَاتِهِم؛ وَيؤيِّدُ هَذَا قِيَامُ بِعْضِ الصَّحَابَةِ بِالتَّجْوَالِ عَلَى إِخْوَانِهِ، ودَعْوَتِهِم إِلَى الْمَسْجِدِ لِلْجُلُوسِ فِي مَجَالِسِ الإِيْمَانِ والعِلْمِ، والَّتِي تُمَثِّلُ مِيرَاثَ النَّبِيِّ ﷺ .

فَمِنْ ذَلِكَ، مَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ : يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ ؟ قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ : ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَسَّمُ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا، أَلَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ ؟ قَالُوا : وَأَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ : فِي الْمَسْجِدِ . فَخَرَجُوا سِرَاعًا، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ : مَا لَكُمْ ؟ قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقَسَّمُ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَمَا

---

(١) رواه البخاري (٤٥٥٦) ومسلم (١٧٩٨) .

(٢) رواه الترمذي في سننه عن الطفيل بن أبي عن أبيه (٢٤٥٧) وقال : حديث حسن صحيح. والحاكم في المستدرك (٣٥٧٨) وقال : صحيح الإسناد؛ ووافقه الذهبي .

www.saida-islam.weebly.com

رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا ؟ قَالُوا : بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ . فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ (١) .

كَمَا ثَبَتَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : **اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً**(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ عَبدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : **تَعَالَ نُؤْمِنْ بِرَبِّنَا سَاعَةً** . فَقَالَ ذَاتَ يَومٍ لِرَجُلٍ، فَغَضِبَ الرَّجُلُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَرَى إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ يَرْغَبُ عَنْ إِيْمَانِكَ إِلَى إِيْمَانِ سَاعَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **يَرحَمُ اللهُ ابْنَ رَوَاحَةَ إِنَّهُ يُحِبُّ المَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَى بِهَا المَلَائِكَةُ**"(٣).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : **كَانَ عُمَرُ مِمَّا يَأْخُذُ بِيَدِ الرَّجُلِ والرَّجُلَينِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ: قُمْ بِنَا نَزْدَدْ إِيْمَاناً؛ فَيَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ** (٤) .

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ فِي بَابِ الحِسْبَةِ أَنَّ عَلَى الْمُحْتَسِبِ : «أَنْ يُلَازِمَ الْأَسْوَاقَ، وَيَدُورَ عَلَى الْبَاعَةِ، وَيَكْشِفَ الدَّكَاكِينَ وَالطَّرَقَاتِ، وَأَنْ يَتَّخِذَ أَعْوَانًا يَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ دَائِمًا، إِنْ كَانَ جَالِسًا أَوْ رَاكِبًا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِحُرْمَتِهِ، وَأَوْفَرُ لِهَيْبَتِهِ؛ وَيُشْتَرَطُ فِيهِمُ الْعِفَّةُ وَالصِّيَانَةُ، وَيُؤَدِّبُهُمْ وَيُهَذِّبُهُمْ، وَيُعَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ إِلَّا بَعْدَ مَشُورَتِهِ. وَيُبَاشِرُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، فَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى الْوَزِيرَ وَقَعَ إِلَى مُحْتَسِبٍ كَانَ فِي

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٤٢٩) وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في أول كتاب الإيمان. ص (١٠) . وأخرج أبو نعيم في الحلية (٢٣٥/١) عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ، قَالَ : كُنَّا نَمْشِي مَعَ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فقال لنا : **اجْلِسُوا بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً**.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد حسن كذا في الترغيب، وقال الحافظ ابن كثير في البداية : هذا حديث غريب جداً، وقال البيهقي بإسناده عن عطاء بن يسار : أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له : **تَعَالَ حَتَّى نُؤْمِنَ سَاعَةً**. قال : أولسنا بمؤمنين ؟ قال : **بَلَى ولَكِنَّا نَذْكُرُ اللهَ فَتَزْدَادُ إِيْمَاناً**. وعند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١١/٢٨) عنه قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال لي : **يَا عُوَيمِرُ اجْلِسْ نَتَذَاكَرْ سَاعَةً، فَنَجْلِسُ فَنَتَذَاكَرُ. ثم يقول : هَذَا مَجْلِسُ الإِيْمَانِ، مَثَلُ الإِيْمَانِ مَثَلُ قَمِيصِكَ، بَينَا أَنَّكَ قَدْ نَزَعْتَهُ إِذَا لَبِسْتَهُ، وبَينَا أَنَّكَ قَدْ لَبِسْتَهُ إِذْ نَزَعْتَهُ، القَلْبُ أَسْرَعُ تَقَلُّباً مِنَ القِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانَهَا**. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٩٥) مختصراً.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٣٦٦) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقْتِ وَزَارَتِهِ يُكْثِرُ الْجُلُوسَ فِي دَارِهِ بِبَغْدَادَ : **الْحِسْبَةُ لَا تَحْتَمِلُ الْحَجَبَةَ، فَطُفِ الْأَسْوَاقَ تَحِلَّ لَك الْأَرْزَاقُ، وَاَللَّهِ إنْ لَزِمْت دَارَك نَهَارًا لَأُضْرِمَنَّهَا عَلَيْك نَارًا وَالسَّلَامُ»** [(١)] .

فَهَذِهِ أُصُولٌ مُهِمَّةٌ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّذْكِيرِ وَالحِسْبَةِ : أَنْ يَخْرُجَ أَهْلُ الحَقِّ إِلَى بِيئَاتِ الفَسَادِ، وَيَجْتَهِدُوا فِي الإِصْلَاحِ، وَأَنْ يَجْتَمِعُوا وَيَتَعَاوَنُوا عَلَى ذَلِكَ، وَيَكُونَ عِنْدَهُمُ الشُّورَى لِتَرْتِيبِ الأَعْمَالِ وَالأَوْقَاتِ، وَيَكُونَ هُنَاكَ مَسْؤُولٌ يَفْصِلُ فِي هَذِهِ الأَعْمَالِ، إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَاجَدَ فِي عَمَلِ الدَّعْوَةِ وَالحِسْبَةِ، وَالْمُسْتَفَادَةُ مِنَ الآثَارِ السَّلَفِيَّةِ، وَالأَعْرَافِ الَّتِي لَا تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ؛ وَتَخْتَلِفُ بَيْنَ الْمُحْتَسِبِ الْمُتَطَوِّعِ وَالْمُتَوَلِّي مِنَ السُّلْطَانِ؛ لَكِنَّ الخُرُوجَ لِلإِصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ مَطْلُوبٌ مِنَ الجَمِيعِ مَا دَامَ الْمُنْكَرُ قَائِماً؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ نِظَامُ الحِسْبَةِ قَائِماً كَمَا يَنْبَغِيْ، وَجَبَ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ أَنْ يَنْظُرُوا فِيمَا يَقُومُ مَقَامَهُ، بِحَسَبِ مَا تَيَسَّرَ لَهُم مِنَ الأَسْبَابِ وَالقُدْرَةِ؛ كَمَا كَانَ عَلَيهِ الأَمْرُ قَبلَ أَنْ يُسْتَحْدَثَ هَذَا النِّظَامُ بِتَرْتِيبَاتِهِ وَتَنْظِيمَاتِهِ؛ وَمَا لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ جُلُّهُ؛ وَالْمَيْسُورُ لَا يَسْقُطُ بِالْمَعْسُورِ .

فَالسَّبَبُ فِي كَونِ الْقَرْنِ الأَوَّلِ خَيرَ الْقُرُونِ، أَنَّهُمْ حَقَّقُوا صِفَاتِ الخَيرِيَّةِ وَالفَلَاحِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ، فَآمَنُوا بِاللهِ حَقَّ الإِيْمَانِ، وَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى هَذَا الإِيْمَانِ، وَضَحَّوْا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ، فَتَرَكُوا مَحْبُوبَاتِهِم وَبَذَلُوهَا لِأَجْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ؛ فَكَانُوا غُرَبَاءَ فِي إِيْمَانِهِم، وَدَعْوَتِهِم، وَصَبْرِهِم، وتَمَسُّكِهِم، وَاسْتِقَامَتِهِم حَتَّى عَمَّ الهُدَى أَرْجَاءَ الدُّنْيَا؛ فَكَذَلِكَ أَوَاخِرُهُم، إِذَا قَامُوا بِمِثْلِ مَا قَامَ بِهِ الأَوَّلُونَ، وَصَبَرُوا عَلَى ذَلِكَ، حِينَ ظُهُورِ الْمَعَاصِي والْفِتَنِ، وَقِلَّةِ الْمُعِينِ وَالنَّصِيرِ، وَكَثْرَةِ العَدُوِّ وَالنَّكِيرِ، كَانُوا أَيْضاً عِنْدَ ذَلِكَ غُرَبَاءَ، وزَكَتْ أَعْمَالُهُم فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَمَا زَكَتْ أَعْمَالُ أُوْلَئِكَ، كَمَا قَالَ ﷺ :

---

(١) «معالم القربة في طلب الحسبة» لضياء الدين ابن أبي زيد القرشي. ص (٢١٩ – ٢٢١) بتصرف .
قلت : كَونُ المسلم لا يَقْدِرُ على تَغيِيرِ الْمُنكرِ بِيَدِهِ لا يَعذُرُهُ في تركِ الحركةِ والخروجِ لِلتَّذكِيرِ بِالحَقِّ، ودَعوةِ النَّاسِ إليهِ بالحكمة والموعظة الحسنةِ، كَمَا كان عليه الأَمْرُ بِمَكَّةَ؛ فَلِكُلِّ زَمانٍ وحَالٍ لِلأُمَّةِ ما يُنَاسِبُهُ من الوَسَائِلِ، وبِهذا تَتَحَقَّقُ الحِكْمَةُ الَّتِي أُمِرْنَا أَنْ نَدعُوَ إلى سَبِيلِ اللهِ بِهَا؛ كما أنَّ هناك فروقاً بين الْمُحْتَسَبِ الْمُتَوَلِّي مِنْ السُّلْطَان وَبَيْن الْمُتَطَوِّع، فليس للمتطوِّع من الصَّلاحيَّات مثل ما للمتولِّي من السُّلطان. وانظرها في «الأحكام السلطانية للماوردي» ص(٣٤٩).

www.saida-islam.weebly.com

"**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً، وسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** "(١)؛ وَنَالَهُم وَعْدُ اللهِ ﷻ بِالتَّمْكِينِ وَالِاسْتِخْلَافِ وَغَيرِ ذَلِكَ، كَمَا نَالَ الأَوَّلِينَ .

وَقَدْ بَيَّنَ ﷺ عِظَمَ أُجُورِ الثَّابِتِينَ عَلَى الحَقِّ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْفِتَنِ، الْمُجْتَهِدِينَ لِإِقَامَةِ الدِّينِ، والَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُم إِلَّا إِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللهِ، فَقَالَ :" **فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً، الصَّبْرُ فِيْهِنَّ مِثلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيْهِنَّ أَجْرُ خَمْسِيْنَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثلَ عَمَلِكُمْ** ". قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنَّا أَوْ مِنهُمْ ؟ قَالَ :" **بَلْ أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنْكُمْ** " (٢) .

وَقَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : هَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ ﷺ فِي آخِرِهِ :" **لأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيرِ أَعْوانًا، ولا يَجِدُونَ** "(٣).

وَقَالَ ابنُ العَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ سَبَبِ هَذِهِ الفَضِيلَةِ : وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ بَابٌ عَظِيمٌ هُوَ ابْتِدَاءُ الدِّينِ وَالإِسْلامِ، وَهُوَ أَيْضًا انْتِهَاؤُهُ؛ وَقَدْ كَانَ قَلِيلاً فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلامِ، صَعْبَ الْمَرَامِ لِغَلَبَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْحَقِّ؛ وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ أَيْضًا يَعُودُ كَذَلِكَ بِوَعْدِ الصَّادِقِ ﷺ بِفَسَادِ الزَّمَانِ، وَظُهُورِ الْفِتَنِ، وَغَلَبَةِ الْبَاطِلِ، وَاسْتِيلاءِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الْخَلْقِ، وَرُكُوبِ مَنْ يَأْتِي سَنَنَ مَنْ مَضَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فَلا بُدَّ – وَاللهُ أَعْلَمُ – بِحُكْمِ هَذَا الْوَعْدِ الصَّادِقِ أَنْ يَرْجِعَ الإِسْلامُ إِلَى وَاحِدٍ كَمَا بَدَأَ مِنْ وَاحِدٍ، وَيَضْعُفَ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا قَامَ بِهِ قَائِمٌ مَعَ احْتِوَاشِهِ بِالْمَخَاوِفِ، وَبَاعَ نَفْسَهُ مِنَ اللهِ ﷻ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهِ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ أَضْعَافُ مَا كَانَ لِمَنْ كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ، مُعَانًا عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ :" **لأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى**

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٣٨٩) .

(٢) رواه أبو داوود عن أبي ثعلبة الخشني برقم (٤٣٤١) ورواه الترمذي برقم (٣٠٥٨) وقال حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤٠١٤) و الحاكم في المستدرك (٧٩١٢) وقال : صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني بنحوه – عن ابن مسعود – إلاَّ أَنَّه قال : "**لِلْمُتَمَسِّكِ أَجْرُ خَمْسِيْنَ شَهِيْداً**. فقال عُمَرُ : يا رسول **اللهِ**! مِنَّا أَوْ مِنهُمْ؟ قال :" **مِنْكُمْ** ". ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثَّقه ابن حبان.

(٣) «المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم» (٤٥٢/١) .

www.saida-islam.weebly.com

الْخَيْرِ أَعْوَانًا، وَهُمْ لا يَجِدُونَ إِلَيْهِ أَعْوَانًا ". حَتَّى يَنْقَطِعَ ذَلِكَ انْقِطَاعًا بَاتًّا، لِضَعْفِ الْيَقِينِ، وَقِلَّةِ الدِّينِ [١] .

وَقَالَ ﷺ :" **إِنَّكُمُ الْيَومَ فِي زَمَانٍ، كَثِيرٌ عُلَمَاؤُهُ، قَلِيلٌ خُطَبَاؤُهُ، مَنْ تَرَكَ عُشَيرَ مَا يَعْرِفُ فَقَدْ هَوَى، ويَأْتِي مِنْ بَعْدُ زَمَانٌ، كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ، قَلِيلٌ عُلَمَاؤُهُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِعُشَيرِ مَا يَعْرِفُ فَقَدْ نَجَا** "[٢]. وَقَالَ ﷺ أَيضاً :" **إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ، مَنْ تَرَكَ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ هَلَكَ، ثُمَّ يَأْتِيْ زَمَانٌ، مَنْ عَمِلَ مِنْهُم بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا** " [٣] .

قَالَ الشُّرَّاحُ : هَذَا فِي الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِذْ لا يَجُوزُ صَرْفُ هَذَا الْقَولِ إِلى عُمُومِ الْمَأْمُورَاتِ، لأَنَّهُ عُرِفَ أَنَّ مُسْلِماً لا يُعْذَرُ فِيمَا يُهْمِلُ مِنَ الْفَرْضِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْهَلاكُ لِلأَوَّلِينَ بِتَرْكِ الْعُشْرِ، لأَنَّ الدِّيْنَ عَزِيزٌ، وَالْحَقَّ ظَاهِرٌ، وفِي أَنْصَارِهِ كَثْرَةٌ، فَالتَّرْكُ يَكُونُ تَقْصِيراً مِنْكُم، فَلا يُعْذَرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي التَّهَاوُنِ، ثُمَّ يَأْتِيْ زَمَانٌ، يَضْعُفُ فِيهِ الإِسْلامُ، ويَكْثُرُ الظَّلَمَةُ وَالْفُسَّاقُ، ويَقِلُّ أَنْصَارُهُ، فَيُعْذَرُ الْمُسْلِمُونَ فِي التَّرْكِ إِذْ ذَاكَ، لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ، لا لِلتَّقْصِيرِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُم بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا، لِانْتِفَاءِ تِلْكَ الْمَعَانِيْ الْمَذْكُورَةِ [٤] .

❖❖❖❖❖

(١) «أحكام القرآن» (٢/٢٢٩) .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي ذر (٢١٣٧٢) والهروي في «ذم الكلام وأهله» برقم (٩٧) وروى البخاري في «الأدب المفرد» نحوه عن ابن مسعود بإسناد حسن (٧٨٩) والحاكم في المستدرك (٨٤٨٧) وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الترمذي في سننه عن أبي هريرة (٢٢٦٧) وقال : حديث غريب . ورواه الطبراني في الصغير (١١٥٦) وأبو نعيم في الحلية (٧/٣١٦) وحَسَّنَهُ الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» وذكر له شاهداً مرسلاً (١/١٤٦) ويشهد لمعناه ما قبله .

(٤) «مرقاة المفاتيح» بتصرف يسير (١/٣٨٧) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ

بَيَانُ أَنَّ أَفْضَلَ الأَوْقَاتِ الَّتِي تُرَتَّبُ لِلْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ هِيَ مَا كَانَ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ، وإِنْ كَانَ غَيْرُهُ جَائِزاً [(١)]:

إِنَّ تَرْتِيْبَ الأَوْقَاتِ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ العَظِيمَةِ وَسِيْلَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ لِلاِسْتِقَامَةِ عَلَى هَذَا الْجُهْدِ، كَمَا تُرَتِّبُ الجَامِعَاتُ الإِسْلامِيَّةُ – بَلْ تُحَدِّدُ – سِنِينَ لِلدِّرَاسَةِ الشَّرعِيَّةِ، وَكَمَا يُرَتِّبُ الْعُلَمَاءُ وَالوُعَّاظُ أَيَّاماً وَأَوْقَاتاً مُعَيَّنَةً لِدُرُوسِهِمْ، كَمَا سَبَقَ عَنِ ابْنِ مَسعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ ﭫ؛ وَكَمَا يُرَتَّبُ لِلْمُرَابِطِينَ الأَوْقَاتُ لِلرِّبَاطِ عَلَى ثُغُورِ الْبِلادِ؛ وَلَا إِشْكَالَ فِي شَيءٍ مِنْ هَذِهِ

---

(١) **تنبيه مهم** : لم أُرِدْ من ذكر هذا البابِ الاستدلالَ على سنِّيَّة الخروج لهذه المدد بالتَّحديد، فلا أَحَدَ يَدَّعِي أنَّ رسول الله ﷺ خرج ثلاثة أيَّام، أو أربعين يوماً، أو أربعة أشهر، بنحو هذا التَّرتيب أو بغيره، وقد سبق أنْ ذَكَرتُ مراراً أن هذا من باب المصالح المرسلة، وإنَّما ذَكَرْتُ هذا الباب استئناساً لهذه المدد، ولبيان أنَّها ممَّا ورد اعتبارُ الشرع لها في تحديد كثير من المقدَّرات الشرعيَّة، فحينما تكون التَّقديرات في الوسائل الغير المنصوص عليها ممَّا ثبتت مشروعيَّته بدليله العام – وهو الدخول تحت قواعد الشَّرع العامَّة كما تقدَّم مراراً – موافقةً للتَّقديرات في الأمور المنصوص عليها، فإنَّ ذلك – واللهُ أعلم – يكون أقربَ إلى فعل الشَّارع، حينما ربط أفعالاً كثيرة بمثل هذه التقديرات، وهذا يبقى استئناساً مقبولاً وليس استدلالاً، وهو أيضاً لا يَعْدُو أن يكونَ مفهومَ عددٍ، لا اعتبار له عند جماهير الأصوليين، بمعنى أنَّ العَدد باعتبار ذاته لا يدلُّ على حُكْمٍ في الزَّائد ولا في النَّاقِصِ، وإنَّمَا الدَّلَالَةُ تَأْتِي من القرائن الخارجيَّة؛ ومَنْ عرف عملَ التبليغ عن قُربٍ يَعلَمُ تمامًا أنَّ مفهومَ العددِ غَيرُ مُرادٍ، بمعنى أنَّ مَنْ خَرجَ معهم يوماً أو يومينِ، أو أسبوعاً أو أسبوعينِ، أو شهراً أو شهرينِ، فلا حرج عليه، ولا يُلزمونَ بهذه الْمُدَدِ، وإنما وُضِعَتْ لتسهيل ترتيب العمل الدَّعويِّ وتنظيمه؛ وَهُنَاكَ أَوْقَاتٌ أُخْرَى تُرَتَّبُ لِخُرُوجِ الجَمَاعَاتِ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَأُسْبُوعٍ، وَأُسْبُوعَينِ، وَأَرْبَعِينَ يَوماً وَأَرْبَعِينَتَينِ، وَسَبْعَةِ أَشْهُرٍ، وَسَنَةٍ كَامِلَةٍ . كما أنَّ الْمُدَدَ الَّتِي ترسل لها الجماعات (مدَّة التشكيل) مختلفة : فتكون ثلاثة أيام، وأسبوعاً، وعشرة أيام، وأسبوعين، وسبعة عشر يوماً، وواحداً وعشرين يوماً، وشهراً، وأربعين تامَّةً، وشهرين، وأربعينَتَين، وغير ذلك؛ فَالغَرَضُ من هذا التَّرتيبِ لهَذِهِ الأيَّام تَنظِيمِيٌّ بَحْتٌ، فَهُوَ من الأحكام المعقولة المعنى، والزِّيَادَةُ والنُّقصَانُ فِيهِ غَيرُ معتبرةٍ، والعِبرَةُ بالاِسْتِفَادَةِ، قَلَّتِ الْمُدَّةُ أم كَثُرَتْ، فَهُوَ اجتهاديٌّ تَوفِيقِيٌّ، وليسَ تَوقِيفِيّاً . واللهُ أَعلَمُ، وعِلْمُهُ أَتمُّ وأَحْكَمُ .

www.saida-islam.weebly.com

التَّرْتِيبَاتِ، لِأَنَّهَا مُجَرَّدُ تَقْدِيرَاتٍ اتِّفَاقِيَّةٍ، تَمَّ اسْتِحْسَانُهَا لِتَحْقِيقِ الْمَصْلَحَةِ، وذَلِكَ نَتِيجَةَ الخِبْرَةِ فِي هَذَا البَابِ، أَوِ البَحْثِ والتَّحَرِّيْ فِي ذَلِكَ، **دُونَ أَنْ يُعْتَقَدَ سُنِّيَّتَهَا** .

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَولُ الشَّاطِبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا الْعَادِيَّاتُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ أَيْضًا، فَلَهَا مَعْنًى مَفْهُومٌ، وَهُوَ ضَبْطُ وُجُوهِ الْمَصَالِحِ؛ إِذْ لَوْ تُرِكَ الناسُ والنظرَ لَانْتَشَرَ وَلَمْ يَنْضَبِطْ، وَتَعَذَّرَ الرُّجُوعُ إِلَى أَصْلٍ شَرْعِيٍّ، وَالضَّبْطُ أَقْرَبُ إِلَى الِانْقِيَادِ مَا وُجِدَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، فَجَعَلَ الشَّارِعُ لِلْحُدُودِ مَقَادِيرَ مَعْلُومَةً، وَأَسْبَاباً مَعْلُومَةً لَا تُتَعَدَّى .. [١] .

وَمِثْلُ هَذِهِ التَّحْدِيدَاتِ وَالضَّوَابِطِ يَلْجَأُ إِلَيهَا الْمُجْتَهِدُونَ فِي فَتَاوِيهِمْ، وَيَلْجَأُ إِلَيهَا الحُكَّامُ فِي تَقْنِينَاتِهِم، بَلْ يَلْجَأُ إِلَيهَا النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ، فِي شَكْلِ أَعْرَافٍ وَتَقَالِيدَ يَخْتَرِمُونَهَا، وَيَنْقَادُونَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا تَضْبِطُ مُعَامَلَاتِهِمْ فِي خَطٍّ مَا؛ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ عُرْفًا، كَالْمَشْرُوطِ شَرْطًا، بَلْ كَالْمَشْرُوعِ شَرْعًا، إِذَا لَمْ يَتَنَافَ مَعَ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَقَاصِدِهَا؛ فَالضَّبْطُ وَالتَّقْنِينُ وَالتَّحْدِيدُ مَصْلَحَةٌ مَعْلُومَةٌ، يَحْتَاجُ إِلَيهَا جُمْهُورُ النَّاسِ؛ فَهَذَا جَانِبٌ مَعْقُولٌ مُنَاسِبٌ [٢] .

وَأَفْضَلُ هَذِهِ الأَوْقَاتِ الْمُقَدَّرَةِ فِي هَذِهِ التَّرْتِيبَاتِ وأَوْلَاهَا اعْتِبَارًا، مَا كَانَ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَقِّ قَاطِعِ الطَّرِيْقِ الَّذِيْ قَتَلَ وَسَرَقَ : **إِنَّهُ يُقْتَلُ، ويُصلَبُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ**. وَلا دَلِيْلَ عَلَى هَذِهِ الثَّلاثَةِ الأَيَّامِ، إِلاَّ أَنَّ أَصْحَابَهُ عَلَّلُوْا ذَلِكَ، بِأَنَّ لِهَذا العَدَدِ اعْتِبَاراً فِي الشَّرْعِ [٣] .

وقَدْ جَاءَ اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِبَعْضِ الأَعْدَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُقَدَّرَاتِ الشَّرْعِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ، ولَا شَكَّ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا الاِعْتِبَارِ لِهَذِهِ الأَعْدَادِ حِكْمَةً بَالِغَةً، قَدْ تُدْرَكُ وقَدْ لَا تُدْرَكُ، لَكِنَّها تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِهَذَا العَدَدِ خُصُوصِيَّةً عِندَ الشَّارِعِ، لَا تُوجَدُ فِي غَيرِهِ .

وفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ بَيَانِهِ عَنْ خَاصِّيَّةِ عَدَدِ السَّبْعَةِ : وَأَمَّا خَاصِّيَّةُ السَّبْعِ فَإِنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ قَدَرًا وَشَرْعًا، فَخَلَقَ اللَّهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا، وَالْأَرَضِينَ سَبْعًا،

---

(١) «الموافقات» (٢/٥٢٦) .

(٢) «نظرية المقاصد عند الشاطبي» للدكتور أحمد الريسوني ص (١٩٧ - ١٩٩) .

(٣) «مغني المحتاج» (٤/٢٣٨) وانظر «المجموع شرح المهذب» (٢٢/١٦٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَالْأَيَّامَ سَبْعًا، وَالْإِنْسَانُ كَمُلَ خَلْقُهُ فِي سَبْعَةِ أَطْوَارٍ، وَشَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ الطَّوَافَ سَبْعًا، وَالسَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعًا، وَرَمْيَ الْجِمَارِ سَبْعًا سَبْعًا، وَتَكْبِيرَاتِ الْعِيدَيْنِ سَبْعًا فِي الْأُولَى. وَقَالَ ﷺ :" **مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ** ". وقَالَ :" **وَإِذَا صَارَ لِلْغُلَامِ سَبْعُ سِنِينَ خُيِّرَ بَيْنَ أَبَوَيْهِ** ". وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ، وَسَخَّرَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ سَبْعَ لَيَالٍ، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعِينَهُ اللَّهُ عَلَى قَوْمِهِ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، وَمَثَّلَ اللَّهُ ﷻ مَا يُضَاعِفُ بِهِ صَدَقَةَ الْمُتَصَدِّقِ بِحَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَالسَّنَابِلَ الَّتِي رَآهَا صَاحِبُ يُوسُفَ سَبْعًا، وَالسِّنِينَ الَّتِي زَرَعُوهَا دَأَبًا سَبْعًا، وَتُضَاعَفُ الصَّدَقَةُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ سَبْعُونَ أَلْفًا.

فَلَا رَيْبَ أَنَّ لِهَذَا الْعَدَدِ خَاصِّيَّةً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ، .. وَلِلْأَطِبَّاءِ اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِالسَّبْعَةِ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْبَحَّارِينَ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحِكْمَتِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ فِي تَخْصِيصِ هَذَا الْعَدَدِ، هَلْ هُوَ لِهَذَا الْمَعْنَى أَوْ لِغَيْرِهِ ؟ [(١)] .

وقَدْ ثَبَتَ اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِعِدَّةٍ مِنَ الأَعْدَادِ، وذَلِكَ بِكَثْرَةِ رَبْطِ أُمُورٍ بِهَا شَرْعاً وقَدَراً :

أَوَّلاً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِعَدَدِ الثَّلَاثَةِ :

فَقَدْ جَاءَ اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِهَذَا العَدَدِ فِي كَثِيرٍ مِنَ العِبَادَاتِ، كَالوُضُوءِ ثَلَاثًا، ومُدَّةُ الْمَسْحِ لِلمُسَافِرِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وشُرِعَتْ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ، والتَّسْبِيحُ فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثًا، وكَثِيرٌ مِنَ الأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ قُرِنَتْ بِعَدَدِ الثَّلَاثَةِ؛ وَقَدْ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ يَصُومُونَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ؛ وَقَدْ رُوِي أَنَّ الصِّيَامَ كَانَ أَوَّلًا كَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا، مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، عَنْ مُعَاذٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ [(٢)]. كَمَا صَحَّ أَنَّ صِيَامَ الثَّلَاثَةِ الأَيَّامِ البِيضِ كَصِيَامِ الدَّهْرِ[(٣)]؛ وأَيَّامُ

---

(١) «زاد المعاد» (٤/٩١ - ٩٢) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٤٩٧) .

(٣) رواه البخاري (٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو .

www.saida-islam.weebly.com

التَّشْرِيقِ فِي الحَجِّ أَيْضًا ثَلَاثَةٌ، وهِيَ الأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ، الَّتِي قَالَ فِيهَا ﷻ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ [البقرة:٢٠٣]. والفِدْيَةُ فِيمَنِ ارْتَكَبَ مَحْظُوراً مِنْ مَحْظُورَاتِ الحَجِّ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ إِطْعَامُ ثَلَاثَةِ آصُعٍ لِسِتَّةٍ مِنْ مَسَاكِينِ الحَرَمِ، أَوِ النُّسُكِ . والجِمَارُ الَّتِي تُرمَى أَيَّامَ مِنًى ثَلَاثٌ . وفِي كَفَّارَةِ اليَمِينِ التَّخْيِيرُ بَيْنَ ثَلَاثِ خِصَالٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ ﴾ [المائدة:٨٩].

كَمَا جَاءَ اعْتِبَارُ الثَّلَاثَةِ فِي غَيرِهَا مِنَ الْمُقَدَّرَاتِ، كَعَدَدِ الطَّلَقَاتِ، وفِي النِّكَاحِ أَيضاً، فَمُدَّةُ الإِقَامَةِ عِندَ الثَّيِّبِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ . وهِيَ أَقَلُّ مُدَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقْرَأَ فِيهَا القُرآنُ بِوَعيٍ وفِقْهٍ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ** " [(١)] .

وهِيَ أَيْضاً مُدَّةُ الْمُهْلَةِ الَّتِي يُعْطَاهَا الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَخْتَارُوا بَيْنَ الإِسْلَامِ والجِزْيَةِ، وبَعْدَهَا تَكُونُ الْمُنَابَذَةُ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه : أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى حِصْنٍ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: دَعُونِي أَدْعُوهُمْ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ، فَقَالَ : إِنَّمَا كُنْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَهَدَانِي اللَّهُ ﷻ لِلْإِسْلَامِ، فَإِذَا أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَدُّوا الْجِزْيَةَ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابَذْنَاكُمْ عَلَى سَوَاءٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾، يَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ غَدَا النَّاسُ إِلَيْهَا فَفَتَحُوهَا بِعَوْنِ اللَّهِ [(٢)]. وعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [(٣)] . وهِيَ أَيضًا مُدَّةُ الضِّيَافَةِ الوَاجِبَةُ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ** "[(٤)].

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١٣٤٧) وابن حبان في صحيحه (٧٦٠) بإسناد صحيح .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٣٧٢٦) والترمذي في سننه (١٥٤٨) وحسَّنه.

(٣) رواه الترمذي في سننه (١٥٥١) وقال : حديث حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري عن أبي شريح الخزاعي (٦٤٧٦) ومسلم (٤٨) .

www.saida-islam.weebly.com

وهِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي اشْتَرَطَها أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ في كِتَابِهِ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، .. وفِيهِ : وَأَنْ يَنْزِلَ مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نُطْعِمُهُمْ[١] . وقَدْ عَرَضَ ﷺ الإِسْلَامَ عَلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ ﷺ في الْمَسْجِدِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً في هِدَايَتِهِ [٢] . وهِيَ مُدَّةُ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّ وتَارِكِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ تَابُوا ورَجَعُوا وإِلَّا قُتِلُوا؛ وقَالَ عُمَرُ ﷺ لِمَنْ قَتَلَ مُرْتَدًّا قَبلَ اسْتِتَابَتِهِ : أَفَلَا أَدْخَلْتُمُوهُ بَيْتًا، ثُمَّ طَيَّنْتُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَمَيْتُمْ إِلَيْهِ بِرَغِيفٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ أَوْ يُرَاجِعَ أَمْرَ اللهِ ؟ [٣] . ورَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مُتْعَةِ النِّسَاءِ عَامَ أَوْطَاسٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ نَهَى عَنْهَا [٤] .

وهِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي كَانَ يُسْمَحُ لِلْمُهَاجِرِ أَنْ يُقِيمَهَا في مَكَّةَ بَعدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ:" **يُقِيمُ الْمُهَاجِرُ بِمَكَّةَ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ ثَلَاثًا** "[٥] . وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ جَاءَ الْمَدِينَةَ مِنْهُمْ سَفْرًا لَا يَقِرُّونَ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ [٦] . وهِيَ مُدَّةُ الهُجْرَانِ الْمَأْذُونِ فِيهِ لِحَظِّ النَّفْسِ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **لَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ** "[٧] . كَمَا أَنَّهَا مُدَّةُ الإِحْدَادِ الْمَأْذُونِ فِيهَا لِلمَرْأَةِ عَلَى غَيرِ الزَّوجِ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ** "[٨] . وحِينَمَا جَاءَتِ الدَّافَّةُ إِلَى الْمَدِينَةِ نَهَى ﷺ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ [٩] . ومَشْرُوعِيَّةُ خِيَارِ الشَّرْطِ بَعْدَ الْعَقْدِ إِلَى ثَلَاثَةِ

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه عن عبد الرحمن بن غنم (٣٦٥) وانظر «تفسير ابن كثير» (١٢٣/٤).

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة (٤٣٧٢) ومسلم (١٧٤٦) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الرحمن بن محمد بن عبدٍ القاري عن أبيه (٢٧٢٨) .

(٤) رواه مسلم (١٤٠٥) وأحمد في مسنده (١٦٥٥٢) واللفظ له .

(٥) رواه مسلم (١٣٥٢) .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٩٧٩) .

(٧) رواه البخاري عن ابن عمر (٦٠٦٥) ومسلم (٢٥٦١) .

(٨) رواه البخاري عن أم حبيبة بنت أبي سفيان (١٢٨٠) ومسلم (١٤٨٦) .

(٩) رواه مسلم عن عبد الله بن واقد (١٩٧١) .

www.saida-islam.weebly.com

أَيَّامٍ، وقَالَ ﷺ :" **مَنِ اشْتَرَى مُصَرَّاةً فَهُوَ بِالْخِيَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ** "[١]. ومُدَّةُ مُكْثِ النَّبِيِّ ﷺ في غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ .

وهِيَ مُدَّةُ العَلَامَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ ﷻ لِزَكَرِيَّا عليه السلام عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِهِ، وهِيَ أَيضًا مُدَّةُ إِمْهَالِ قَومِ صَالِحٍ بَعدَ تَكْذِيبِهِم لِرَسُولِهِم، وعَقْرِهِمُ النَّاقَةَ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ** ﴾. كَمَا جَاءَ أَنَّهَا مُدَّةُ إِمْهَالِ قَومِ يُونُسَ عليه السلام قَبلَ نُزُولِ العَذَابِ بِهِم، فَكُشِفَ عَنهُم بَعدَ تَوبَتِهِم فِيهَا؛ فَعَنِ ابْنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه : **أَنَّ يُونُسَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَدَ قَوْمَهُ الْعَذَابَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ خَرَجُوا وَصَارُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرُوا، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ** [٢]. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : **وَلَمْ يَعِشْ مَسْخٌ قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ** [٣] . وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : **إِذَا رَابَطَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلْيَتَعَبَّدِ الْمُتَعَبِّدُونَ مَا شَاؤُوا** [٤]؛ وقَالَ رضي الله عنه : **وَمَنْ رَابَطَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ رَابَطَ، وَمَنْ رَابَطَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الرِّبَاطَ** [٥]. وعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها تَرْفَعُ الحَدِيثَ، قَالَتْ :" **مَنْ رَابَطَ فِي شَيْءٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَجْزَأَتْ عَنْهُ رِبَاطَ سَنَةٍ** " [٦] .

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **إِنَّ اللَّهَ ﷻ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ** " [٧] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (١٥٢٤) وهو عند البخاري (٢١٥١) بدون ذكر الثَّلاثة الأيام .

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/٢١٠) و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٥٩٧) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/٢٨٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤٥٢) .

(٥) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢٤١٠) .

(٦) رواه أحمد في مسنده عن أم الدرداء مرفوعاً (٢٧٠٨٥) والطبراني في الكبير (٢٠١١٥) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين، وبقية رجاله ثقات .

(٧) رواه أحمد في مسنده (١٨٤١٤) والطبراني في الكبير (٧١٤٦) وقال الهيثمي : رجاله ثقات . ورواه الحاكم في المستدرك (٣٠٣١) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

www.saida-islam.weebly.com

وَعَنْ خَارِجَةَ بْنِ الصَّلْتِ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ : أَقْبَلْنَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيْنَا عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالُوا : نُبِّئْنَا أَنَّكُمْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ بِخَيْرٍ، فَهَلْ عِنْدَكُمْ دَوَاءٌ أَوْ رُقْيَةٌ ؟ فَإِنَّ عِنْدَنَا مَعْتُوهًا فِي الْقُيُودِ . قَالَ : فَقُلْنَا : نَعَمْ. قَالَ : فَجَاءُوا بِالْمَعْتُوهِ فِي الْقُيُودِ، قَالَ : فَقَرَأْتُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ **ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ** غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، أَجْمَعُ بُزَاقِي، ثُمَّ أَتْفُلُ، قَالَ : فَكَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ : فَأَعْطَوْنِي جُعْلًا، فَقُلْتُ : لَا حَتَّى أَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ :" **كُلْ لَعَمْرِي مَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ، لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ** " [(١)] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا، فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ** " [(٢)]. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **شِفَاءُ عِرْقِ النَّسَا أَلْيَةُ شَاةٍ عَرَبِيَّةٍ تُذَابُ، ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَتُشْرَبُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ** " [(٣)] . وغير هذا كثير، ولم أرد الاستقصاء .

كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَئِمَّةِ اعْتَبَرَ هَذَا الأَمْرَ فِي تَحْدِيدِ بَعْضِ الْمُدَدِ لِبَعْضِ الأَحْكَامِ الغَيرِ الْمُحَدَّدَةِ شَرعاً؛ اسْتِحْسَانًا مِنهُمْ، وَمُوَافَقَةً لِتَحْدِيدِ الشَّارِعِ هَذِهِ الْمُدَّةَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ؛ فَفِي بَابِ «كَيْفَ يَبْتَدِئُ الِاسْتِسْقَاءُ» قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَبَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ كَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَسْقِيَ أَمَرَ النَّاسَ فَصَامُوا **ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ** مُتَتَابِعَةً، .. وَأَنَا أُحِبُّ ذَلِكَ لَهُمْ، وَآمُرُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ صِيَاماً، مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوجِبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، .. وَأُحِبُّ كُلَّمَا أَرَادَ الْإِمَامُ الْعَوْدَةَ إلَى الِاسْتِسْقَاءِ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يَصُومُوا قَبْلَ عَوْدَتِهِ إلَيْهِ ثَلَاثًا [(٤)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٨٣٦) وأبو داوود في سننه (٨٣٩٧) وقال الصنعاني في «فتح الغفار» : وسكت عنه هو والمنذري، ورجال إسناده رجال الصحيح إلَّا خارجة، وقد وثَّقه ابن حبَّان، وأخرجه أيضًا ابن حبَّان والحاكم وصحَّحاه.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٢٣٦) .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه (٣٤٦٣) والحاكم في المستدرك (٥٤٧٩) وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) «الأم» (٢٨٣/١) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُدَّةِ إِمْكَانِ الِانْتِفَاءِ مِنَ الْوَلَدِ : فَالْمُدَّةُ الَّتِي يَنْقَطِعُ فِيهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ نَفْيُهُ فِيهَا **ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ** ..؛ لِمَا وَصَفْنَا مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَ مَنْ قَضَى بِعَذَابِهِ ثَلَاثًا؛ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لِلْمُهَاجِرِ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ بِمَقَامِهِ ثَلَاثًا بِمَكَّةَ [١]. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَقِّ الشُّفْعَةِ: إِنَّهُ يُؤَجَّلُ ثَلَاثًا، وَذَلِكَ اسْتِحْسَانٌ مِنِّي وَلَيْسَ بِأَصْلٍ[٢]. كَمَا ذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مُدَّةَ إِمْهَالِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ لِلْقَدْحِ فِي عَدَالَةِ الشُّهُودِ **ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ**، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ الْقَلِيلِ وَأَقَلُّ الْكَثِيرِ [٣]. كَمَا قَالَ فِي أَكْثَرِ مُدَّةِ إِنْظَارِ الْمَرْأَةِ الكَبِيرَةِ حَتَّى تُسَلِّمَ نَفْسَهَا لِزَوجِهَا : إِنَّهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ؛ وَقَالَ: لِأَنَّ لَهَا فِي الشَّرْعِ أَصْلًا، وَأَنَّهَا أَكْثَرُ الْقَلِيلِ وَأَقَلُّ الْكَثِيرِ [٤] . كَمَا ذَكَرَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ أَنَّ الْمُدَّةَ الَّتِي يُمْهَلُهَا الْمُدَّعِي إِذَا امْتَنَعَ مِنْ رَدِّ اليَمِينِ، وَبَعْدَهَا يُحْكَمُ بِنُكُولِهِ : ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بِلَا مَزِيدٍ؛ ثُمَّ قَالَ : وَهِيَ مُدَّةٌ ثَابِتَةٌ فِي قَوَاعِدِ مِنَ الشَّرِيعَةِ؛ وَمُدَّةُ إِمْهَالِ الْمُرْتَدِّ إِذَا رَأَيْنَا إِمْهَالَهُ : ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَهِيَ مُدَّةُ الخِيَارِ، وَمَقَامُ الْمُسَافِرِينَ [٥] .

فَهَذِهِ الأُمُورُ الشَّرْعِيَّةُ والقَدَرِيَّةُ وغَيرُهَا كَثِيرٌ، والَّتِي رُبِطَتْ بِهَذَا العَدَدِ، تُبَيِّنُ أَنَّ لِهَذَا الْعَدَدِ خَاصِّيَّةً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي عَدَدِ السَّبْعَةِ : وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحِكْمَتِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ فِي تَخْصِيصِ هَذَا الْعَدَدِ اه. لَكِنْ مِنَ اليَقِينِيِّ الَّذِي لَا رَيبَ فِيهِ أَنَّ هَذَا الِاخْتِيَارَ لَمْ يَأْتِ عَبَثاً، وإِنَّمَا جَاءَ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ تُمَيِّزُ هَذَا العَدَدَ عَنْ غَيرِهِ، وتَجْعَلُ لَهُ الْمُقَدَّمِيَّةَ عَلَى بَاقِي الأَعْدَادِ الَّتِي يُرَادُ رَبْطُ مَنَاهِجَ وبَرَامِجَ دِينِيَّةٍ قَصِيرَةٍ بِهَا، كَوَسَائِلَ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَقَاصِدَ مَشْرُوعَةٍ، مَعَ جَوَازِ غَيرِهَا مِنَ الأَوْقَاتِ [٦] .

---

(١) «الأم» (٥/٣١١) .

(٢) «الحاوي الكبير» (١٦/١٦٦) .

(٣) «المصدر السابق» (١٧/٢٤١) .

(٤) «المصدر السابق» (٩/٥٣٢) .

(٥) «نهاية المطلب في دراية المذهب» (١٨/٦٦٤) .

(٦) قلت : سبق أنْ بَيَّنَّا أَنَّ مِثلَ هذا الترتيبِ لا يدخلُ تحت مفهوم البدعة الإضافية – فضلاً عن البدعة الحقيقية–، لأن البدعة إنما تكون في العبادات المقدرة شرعاً وما يجري مجراها من المقدرات الشرعية؛ أمَّا تعيينُ أوقاتٍ للمناهج الدعويَّة والتعليميَّة ونحوها، لغَاياتٍ مصلحيَّةٍ، دونَ اعتقادِ سُنيَّتها، فلا يدخل في ذلك كما سبق بيانه؛ وإلَّا لَلَزِمَ من ذلك : القولُ ببدعية جميع التعيينات في الجامعات والمعاهد والوزارات الدينية؛ وكذلك تبديعُ تعييناتِ العلماءِ أوقاتاً دوريةً للدروس والامتحانات ونحوها؛ وهو قول معلوم الفساد والبطلان .

www.saida-islam.weebly.com

ثانياً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِعَدَدِ الأَرْبَعِينَ [١]:

فَهِيَ مُدَّةُ تَمَامُ مِيقَاتِ كُلِّ طَوْرٍ مِنَ الأَطْوَارِ الَّتِي يَمُرُّ فِيهَا الإِنْسَانُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، قَبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ : اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ..**"[٢]. وهِيَ مُدَّةٌ تَتَغَيَّرُ فِيهَا طِبَاعُ الإِنْسَانِ غَالِبًا، ويَتَطَبَّعُ فِيهَا بِصِفَاتِ مَنْ يُخَالِطُهُ، حَتَّى قِيلَ فِي الْمَثَلِ السَّائِرِ : **مَنْ خَالَطَ قَومًا أَرْبَعِينَ يَومًا صَارَ مِنْهُم**. بِمَعْنَى تَطَبَّعَ بِطِبَاعِهِم غَالِباً؛ وهِيَ أَيضًا الْمُدَّةُ الَّتِي وَاعَدَ اللهُ ﷻ كَلِيمَهُ مُوسَى عليه السلام لِيُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ بَعْدَهَا [٣].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ، بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**"[٤] .

---

(١) قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله : وَمِنْ تَجْرِيبَاتِ السَّالِكِينَ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَأَلْفَوْهَا صَحِيحَةً أَنَّ مَنْ أَدْمَنَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ. وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ شَدِيدَ اللَّهْجِ بِهَا جِدًّا، وَقَالَ لِي يَوْمًا : لِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ وَهُمَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَنْ وَاظَبَ عَلَى **أَرْبَعِينَ مَرَّةً** كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ : **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**، حَصَلَتْ لَهُ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ . «مدارج السالكين» (١/٤٦٦) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨) و(٣٣٣٢) ومسلم (٢٦٤٣) .

(٣) قال الْحَرَالِّي : وفيه إشعارٌ بأنَّ المناجاةَ إنَّما يُتَهَيَّأُ لَهَا لِمِيقَاتِ حَبْسِ النَّفْسِ عَمَّا به قِوَامُهَا، وكَمَالُ ذَلِكَ إنَّما هُوَ الصوم، وكَمَالُ العَدَدِ الَّذِي هو طَوْرُ الْمَصِيرِ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، هُوَ الأَرْبَعُونَ. «تراث أبي الحسن الحرالِّي المراكشيِّ» ص (٢١٤).

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٢٦٠٥) والترمذي (٢٤١) وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات . وقال النوويُّ رحمه الله : روينا عن السيد الجليل الإمام التابعي مكحول رضي الله عنه قال : **مَا أَخْلَصَ عَبدٌ قَطُّ أَربَعِينَ يَومًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلبِهِ عَلَى لِسَانِهِ**. وروينا عن سَهلٍ التَّسْتُرِيِّ رحمه الله قال : **مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنيَا أَربَعِينَ يَومًا صَادِقاً مِنْ قَلبِهِ مُخلِصًا فِي ذَلِكَ ظَهَرَتْ لَهُ الكَرَامَاتُ** .. «بستان العارفين» ص (٢٧) . وقال ابْنَ عُيَيْنَةَ : **مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا أَنْبَتَ اللهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ نَبَاتًا، وَأَنْطَقَ لِسَانَهُ بِهَا، وَبَصَّرَهُ عيوبَ الدُّنْيَا : دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا**. «حلية الأولياء» (٧/٢٨٧) .

www.saida-islam.weebly.com

فَفِيهَا أَيْضاً تَمَامُ مِيقَاتِ التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، فَيَنْخَلِعُ الإِنْسَانُ فِيهَا مِنَ الصِّفَاتِ البَهِيمِيَّةِ والسَّبُعِيَّةِ والبَشَرِيَّةِ إِلَى الصِّفَاتِ الْمَلَكِيَّةِ .

وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَكَذَلِكَ لَمَّا فَرَغَ ﷺ مِنْ قِتَالِ هَوازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ وتَحَصَّن فَلُّهُم بِالطَّائِفِ، عَدَل ﷺ إِلَيْهَا، فحاصَرَها، وَدَخَلَ ذُو القَعْدَةِ وَهُوَ مُحاصِرُهَا بِالْمَنْجَنِيقِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَى كَمَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ[١] .

وعَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : **رِبَاطُ لَيْلَةٍ إِلى جَانِبِ الْبَحْرِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَن أُوَافِقَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي أَحَدِ الْمَسْجِدَيْنِ، مَسْجِدِ الكَعْبَةِ وَمَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَرِبَاطُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ عِدْلُ سَنَةٍ، وَتَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ لَيلَةً**[٢] . وقَالَ رضي الله عنه : **مَنْ رَابَطَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ أَكْمَلَ الرِّبَاطَ** [٣] . وكَانَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ يُرَابِطُ بِعَسْقَلَانَ كُلَّ عَامٍ أَرْبَعِين يَوْمًا حَتَّى مَاتَ [٤] . وقَالَ الْفِرْيَابِيُّ : قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَقَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، .. وَرَابَطَ بِعَسْقَلَانَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا [٥] . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **تَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا** [٦] .

وَقَالَ يَزِيْدُ بْنُ أَبِيْ حَبِيْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ : **أَيْنَ كُنْتَ** ؟ قَالَ : فِي الرِّبَاطِ . قَالَ : **كَمْ رَابَطْتَ** ؟ قَالَ : ثَلاثِيْنَ يَوْماً. قَالَ : **فَهَلاَّ**

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٥٢٧) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٦١٦) وأخرج ابن أبي شيبة قوله : **تَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ لَيلَةً** . برقم (١٩٤٥٦) . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل بهذا الأثر، كما نقله صاحب الفروع من الحنابلة (١٠/٢٣٥) وغيره، واستدلوا بهذا الأثر، وقال ابن قدامة في المغني (٩/٢٠٤) عقب قول الخرقي : (**وَتَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا**) : رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عُمَرَ..

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٦١٤) .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٤١٥) .

(٥) «حلية الأولياء» (٧/٢٥) .

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/٣٥٥) وروي مرفوعاً من حديث أبي أمامة، ولا يصحُّ .

www.saida-islam.weebly.com

أَتْمَمْتَهَا أَربَعِينَ يوماً ؟ [١]. وَرَابَطَ ابْنٌ لِعَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ثَلاثِيْنَ لَيلَةً، وَلَمَّا رَجَعَ قَالَ لَهُ أَبُوهُ : **أَعْزِمُ عَلَيكَ لَترجِعَنَّ وَلَتُرَابِطَنَّ عَشْراً حَتَّى تُتِمَّ الأَرْبَعِينَ** [٢]. وفي هَذَا تَمَامُ مِيقَاتِ التَّرْبِيَةِ الجِهَادِيَّةِ .

ومِنَ الأُمُورِ الَّتِي وُقِّتَتْ بِالأَرْبَعِينَ، مَا جَاءَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ : **وَقَّتَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَرَّةً**[٣]. وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ : **كَانَتْ النُّفَسَاءُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَقْعُدُ بَعْدَ نِفَاسِهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا** [٤].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ :" **اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي أَرْبَعِينَ** "[٥]. وقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللهُ : وَلاَ نُحِبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَمْ يَقْرَأِ القُرْآنَ [٦].

وعَنِ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ رَحِمَهُمَا اللهُ قَالَا : إِذَا أَقَامَ الْغَرِيبُ بِمَكَّةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَانَتِ الصَّلَاةُ أَفْضَلَ لَهُ مِنَ الطَّوَافِ [٧].

وعَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** " [٨] .

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٦١٥) . ورجاله ثقات، رجال الشيخين، غير ابن مكمل، وقد ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، ويزيد لم يدرك عمر بن الخطاب.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤٥٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥) وأحمد في مسنده (١٢٢٣٢) واللفظ له .

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٦٥٦١) وأبو داوود في سننه (٣١١) وحسَّنه النوويُّ في الخلاصة .

(٥) رواه الترمذي في سننه (٢٩٤٧) وقال : حديث حسن غريب .

(٦) «تفسير ابن كثير» (١/٧٣) .

(٧) رواه أحمد في مسنده (٤٩١٧) وأبو داوود في سننه (٣٦٨٠) بإسناد حسن.

(٨) رواه مسلم برقم (٢٢٣٠) .

www.saida-islam.weebly.com

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :" **مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** "(١).

كَمَا مَكَثَ ﷺ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ وَبَنِي عُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، والَّذِينَ قَتَلُوا القُرَّاءَ فِي بِئْرِ مَعُونَةَ (٢).

وأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ مُدَّةَ لَبْثِ الدَّجَّالِ فِي الأَرْضِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا (٣). وأَنَّ **مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**(٤). وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : **إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَدْعُونَ مَالِكًا، فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** (٥).

ثَالِثاً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِلأَرْبَعَةِ الأَشْهُرِ :

فَهِيَ مُدَّةٌ إِمْهَلَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ لِيَنْظُرُوا فِي شَأْنِهِم، فَيَعِيشُوا فِيهَا بَيْنَ الْمُسلِمِينَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم وأَمْوَالِهِم وأَعْرَاضِهِم؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُم : ﴿ **فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ [التوبة: ٢]؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً بِالِغَةً فِي تَحْدِيدِ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ الأَشْهُرِ لِأَمَانِ الْمُشْرِكِينَ، وأَنَّ لَهَا أَثَراً بَالِغاً فِي تَغْيِيرِ فِكْرَةِ الكَافِرِ عَنِ الإِسْلَامِ، إِذَا عَاشَ فِي بِيئَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ نَقِيَّةٍ، يَتَعَامَلُ فِيهَا مَعَ أَهْلِ الإِسْلَامِ، وَيَرَى أَخْلَاقَهُمْ وَإِيْثَارَهُم وَتَوَاضُعَهُمْ فِيمَا بَينَهُم، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَافِعاً وَمُرَغِّباً لَهُم لِقَبُولِ الإِسْلَامِ، وَالدُّخُولِ فِيهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ وَقَنَاعَةٍ لَا تَتَزَعْزَعُ .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٩١٧) والترمذي في سننه (١٨٦٢) وقال : حديث حسن. وقال ابن القيِّم في «زاد المعاد» (٢٩/٤) : إِنَّ أَثَرَ الْخَمْرِ يَبْقَى فِي جَوْفِ الْعَبْدِ وَعُرُوقِهِ وَأَعْضَائِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٨٠١) .

(٣) رواه مسلم برقم (٢٩٣٧) .

(٤) رواه البخاري برقم (٤٨١٤) ومسلم برقم (٢٩٥٥) .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣٤٩٢) وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

www.saida-islam.weebly.com

كَمَا أَنَّ مِنَ الْمَقْصُودِ مِنْ هَذَا التَّأْجِيلِ «أَنْ يَتَفَكَّرُوا ويَحْتَاطُوا لِأَنْفُسِهِم، ويَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيسَ لَهُم بَعدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ إِلَّا الإِسْلَامُ أَوِ القَتْلُ، فَيَصِيرُ هَذَا دَاعِياً لَهُم إِلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ» [(١)]. وقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ ولله الحَمْدُ، فَقَدْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ فَاتِحًا فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، ومَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَهُ بِسَنَةٍ جَهَّزَ جَيشًا إِلَى تَبُوكَ، تَعْدَادُهُ ثَلَاثُونَ أَلْفًا [(٢)].

فَحِينَمَا دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ أَطْلَقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ، فَسُمُّوا الطُّلَقَاءَ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ، وَمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ : مِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وعِكْرِمة بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمَا، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِّ، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ ويفعله [(٣)].

---

(١) «تفسير الخازن» (٢/٣٣٣).

(٢) قلت : فإذا عاش المسلمُ الَّذي نَشَأَ بعيدًا عن بيئة الإسلام الصَّافية، في بيئةٍ إيمانيَّةٍ صَالحةٍ، مع صحبةٍ صالحةٍ تَدُلُّهُ على الخير وتعينُهُ عليه، بالقيام بالأعمال الصَّالحة، كان لذلك أعظمُ الأثر في تغيير شخصيَّته وفكره ومنهجه في الحياة، ممَّا يكرهه اللهُ ﷻ من حياة الأغيار وعبوديَّة الهوى والنَّفس والشَّيطان، إلى حياة الهدى وعبوديَّةِ اللهِ ﷻ وَحْدَهُ واتِّباعِ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ ونُصرَتِهِ في دَعوَتِهِ؛ وهذا مُشَاهَدٌ مُجَرَّبٌ في الَّذِينَ يَخْرُجُونَ في سَبِيلِ اللهِ أربَعَةَ أَشهُرٍ، في الغالب. وقال النَّيسَابُورِيُّ في «غرائب القرآن» (٣/٤٣٣) في تَفسِيرِ قَولِهِ ﷻ : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ شَرْعِ الْقَتْلِ قَبُولُ الدِّينِ وَالْإِقْرَارُ بِالتَّوْحِيدِ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ النَّظَرَ فِي دِينِ اللَّهِ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ وَأَعْلَى الدَّرَجَاتِ، فَإِنَّ الْكَافِرَ الَّذِي صَارَ دَمُهُ مُهْدَرًا لَمَّا أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ كَوْنَهُ طَالِبًا لِلنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ زَالَ ذَلِكَ الْإِهْدَارُ، وَوَجَبَ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ. أَمَّا زَمَانُ مُهْلَةِ النَّظَرِ، فَلَيسَ فِي الآيةِ مَا يَدُلُّ على ذَلِكَ، ولعلَّهُ مُفَوَّضٌ إلى اجتهادِ الإمَامِ، فَمَتَى ظَهَرَ عَلَى الْمُشْرِكِ عَلَامَاتُ كَوْنِهِ طَالِبًا لِلْحَقِّ بَاحِثًا عَنْ وَجْهِ الِاسْتِدْلَالِ أُمْهِلَ، وَتُرِكَ وَمَتَى ظَهَرَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ مُعْرِضًا عَنِ الْحَقِّ دَافِعًا لِلزَّمَانِ بِالْأَكَاذِيبِ لَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ وأُبْلِغَ الْمَأْمَنَ، ويُشْبِهُ أَنْ يُقَالَ : **الْمُدَّةُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ**، وهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/١١٤).

www.saida-islam.weebly.com

كَمَا أَنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الأَشْهُرَ الحُرُمَ أَرْبَعَةً؛ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ ﴾ [التوبة : ٣٦] (١) .

كَمَا أَنَّهَا أَقْصَى مُدَّةٍ تَصْبِرُ فِيهَا الْمَرْأَةُ عَلَى فِرَاقِ زَوجِهَا فِي الغَالِبِ، لِذَلِكَ قَيَّدَ الشَّارِعُ مُدَّةَ الإِيْلَاءِ الْمَأْذُونِ فِيهِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾[البقرة:٢٢٦]. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ : **وَهُوَ الرَّجُلُ يَحْلِفُ لِامْرَأَتِهِ بِاللهِ لَا يَنْكِحُهَا، فَيَتَرَبَّصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَإِنْ هُوَ نَكَحَهَا كَفَّرَ يَمِينَهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ، أَوْ كِسْوَتِهِم، أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ** (٢) .

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ وَغَيْرُهُمْ – فِي مُنَاسَبَةِ تَأْجِيلِ الْمُولِي بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ – الْأَثَرَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رحمه الله فِي الْمُوَطَّأِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ : خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنَ اللَّيْلِ، فَسَمِعَ امْرَأَةً تَقُولُ : تطاوَلَ هَذَا الليلُ وَاسْوَدَّ جانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي أَلَّا خَلِيلَ أُلَاعِبُهْ ... فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِّي أراقبهْ ... لحرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ . فَسَأَلَ عُمَرُ رضي الله عنه ابْنَتَهُ

---

(١) وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٠٠٠) عَنِ ابْنِ عباس قوله ﷺ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾الآيَةَ، ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ **فِي كلِّهن، ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَجَعَلَهُنَّ حَرَامًا، وعظم حُرُماتهن، وَجَعَلَ الذَّنْبَ فِيهِنَّ أَعْظَمَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْأَجْرَ أَعْظَمَ**. وقال الشَّافِعِي رحمه الله فِي حَقِّ الكِتَابِيِّ الَّذِي بَدَّلَ دِينَهُ لِغَيرِ الإِسْلَامِ : فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ بِالْحِجَازِ، قِيلَ : وَكِّلْ بِهِ وَلَمْ يُتْرَكْ يُقِيمُ إِلَّا ثَلَاثًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ بِغَيْرِ الْحِجَازِ لَمْ يُتْرَكْ يُقِيمُ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَجْمَعُ مَالَهُ، فَإِنْ أَبْطَأَ فَأَكْثَرُ مَا يُؤَجَّلُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مُدَّةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِغَيْرِ الذِّمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَكْثَرُ مُدَّةٍ جَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ، قال اللَّه ﷺ : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[التوبة: ١]، فَأَجَّلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَا أَجَّلَهُمُ اللَّهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. «الأم» (٤/١٩٤). قال : وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، لَمْ أَعْلَمْهُ زَادَ أَحَدًا بَعْدَ أَنْ قَوِيَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. «الأم» (٤/٢٠١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٥٥٠) .

www.saida-islam.weebly.com

حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : **كَمْ أَكْثَرَ مَا تَصْبِرُ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا** ؟ فَقَالَتْ : سِتَّةُ أَشْهُرٍ أَوْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **لَا أَحْبِسُ أَحَدًا مِنَ الْجُيُوشِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ** [١] .

وَقَدْ ذَكَرَ سعيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُمَا : أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِ عِدَّةِ الْوَفَاةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؛ لِاحْتِمَالِ اشْتِمَالِ الرَّحِمِ عَلَى حَمْلٍ، فَإِذَا انْتَظَرَ بِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ ظَهَرَ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا :" **إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ** ". فَهَذِهِ ثَلَاثُ أَرْبَعِينَاتٍ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَالِاحْتِيَاطُ بِعَشْرٍ بَعْدَهَا لِمَا قَدْ يَنْقُصُ بَعْضُ الشُّهُورِ، ثُمَّ لِظُهُورِ الْحَرَكَةِ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [٢] .

❖❖❖❖❖

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٤٥٦) ثم قال : وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ طُرُقٍ، وَهُوَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ. والأثر رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٥٩٣) وزاد في آخره : فَكَتَبَ عُمَرُ : **أَلَّا تُحْبَسَ الْجُيُوشُ فَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**. كما رواه البيهقي في سننه (١٧٨٥٠) بإسناد متصل قابل للتّحسين.

(٢) قَالَ قَتَادَةُ : سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ : مَا بَالُ الْعَشْرَةِ ؟ قَالَ : فِيهِ يُنْفَخُ الرُّوحُ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : قُلْتُ لِأَبِي الْعَالِيَةِ : لِمَ صَارَتْ هَذِهِ الْعَشْرُ مَعَ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُ يُنْفَخُ فِيهَا الرُّوحُ. رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ . «تفسير ابن كثير» (١/٦٣٧) .

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الرَّابِعُ

بَيَانُ الْمَقْصُودِ الأَعْلَى مِنْ تَشْرِيعِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَدَى مَسْؤُولِيَّةِ الأُمَّةِ عَنْهُ، وَحُكْمِ هَذَا الخُرُوجِ :

إِنَّ الْمَقْصُودَ الأَعْلَى مِنْ تَشْرِيعِ الجِهَادِ وَالخُرُوجِ وَالنَّفَرِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِحَسَبِ مَا تَدُلُّ عَلَيهِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ هُوَ : إِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللهِ، وَإِقَامَةُ دِينِهِ، وَدَعْوَةُ الخَلْقِ إِلَيهِ، لِإِخْرَاجِهِم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَإِنْقَاذِهِم مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ؛ كَمَا شُرِعَ لِأَجْلِ كَسْرُ شَوْكَةِ الْكُفْرِ والْكُفَّارِ، الَّتِي لَمْ تَزَلْ فِي التَّارِيخِ أَقْوَى سَبَبٍ لِشُيُوعِ الظُّلْمِ والْفِتْنَةِ والْفَسَادِ، فَيَسْتَعْبِدُوْنَ عِبَادَ اللهِ بِأَحْكَامِهِمْ وقَوَانِينِهِمُ الْمُنْبَعِثَةِ مِنْ آرَائِهِمْ، ويَأْبَوْنَ أَنْ يُقَامَ حُكْمُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، كَمَا أَنَّهَا أَكْبَرُ مَانِعٍ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ والإِصْغَاءِ إِلَى الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ؛ ولَمْ يُشْرَعِ الجِهَادُ لِإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ؛ ولَوْ كَانَ الجِهَادُ هَدَفُهُ الإِكْرَاهُ عَلَى الدِّينِ لَمَا شُرِعَتِ الجِزْيَةُ لِإِنْهَاءِ الْحَرْبِ؛ ولَمْ يَرِدْ فِي شَيْءٍ مِنْ حُرُوبِ الجِهَادِ عَلَى كَثْرَتِهَا عَبْرَ التَّارِيخِ، أَنَّ أَحَداً مِنَ الْكُفَّارِ أُكْرِهَ عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ، بَعْدَمَا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بَلَداً مِنَ الْبِلادِ؛ وإِنما جَاءَتِ الدعوةُ الإِسْلامِيَّةُ مَصْحُوبَةً بِالْحُجَّةِ والبُرْهَانِ، وبِالسِّيَرِ الْفَاضِلَةِ والأَخْلاقِ الْكَرِيمَةِ وَالأَعْمَالِ الْجَاذِبَةِ، فَتَسَارَعَ الْكُفَّارُ إِلى الإِسْلامِ بَعْدَ اقْتِنَاعِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ، وَاسْتِيْقَانِهِمْ بِحُسْنِ تَعَالِيْمِهِ، دُوْنَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ؛ وهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الَّذِي بَاحَ بِهِ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه أَمَامَ رُسْتُمَ حِينَ هَجَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِيْرَانَ وسَأَلَهُ رُسْتُمُ : مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ فَقَالَ : **اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ** [(١)] .

وَلِبَيَانِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ جَلِيَّةً وَاضِحَةً، نَذْكُرُ مَبْحَثَيْنِ :

---

(١) «تكملة فتح الملهم» للمفتي محمد تقي العثماني (٣/٣ - ١٤) بتصرف يسير. وقول ربعي بن عامر ذكره الطبري في تاريخه (٥١٨/٣) وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣٩/٧) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ

بَيَانُ أَنَّ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَالبُغَاةِ وَنَحْوِهِم، كَذَلِكَ يَكُونُ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ:

مِنَ الأُمُورِ الْمُهِمَّةِ مَعْرِفَةُ أَنَّ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَالبُغَاةِ وَنَحْوِهِم، كَذَلِكَ يَكُونُ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وفِي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ قَولِهِ ﷺ :" **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ** ".

قَالَ : قَالُوا – يَعنِي العُلَمَاءَ – : وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ **خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ **وَفِي إِقَامَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ** وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ [(١)] .

فَذَكَرَ النَّوَوِيُّ هُنَا قَولَ العُلَمَاءِ وَأَقَرَّهُ فِي : إِثْبَاتِ مَشْرُوعِيَّةِ «**الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**»؛ وَأَنَّ هَذَا الحَدِيثَ وَأَمْثَالَهُ مِمَّا يَكُونُ ظَاهِرُهُ فِي بَيَانِ حُكْمٍ أَوْ فَضِيلَةٍ لِلخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَنَحْوِهِم، فَإِنَّ هَذَا الحُكْمَ وَالفَضِيلَةَ يَدْخُلُ فِيهَا الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وَلَا أَدَلَّ عَلَى هَذَا مِنْ حَدِيثِ البُخَارِيِّ، فِيمَا رَوَاهُ بِسَنَدِهِ، عَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ، قَالَ : أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الجُمُعَةِ، فَقَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :" **مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ** " [(٢)]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيرُهُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ، قَالَ : لَحِقَنِي عَبَايَةُ ابْنُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ، وَأَنَا مَاشٍ إِلَى الجُمُعَةِ، فَقَالَ : أَبْشِرْ، فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ [(٣)] . قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : قَالَ ابن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ : .. وَالْمُرَادُ فِي

---

(١) «شرح مسلم للنووي» (١٣/٢٢).

(٢) رواه البخاري (٩٠٧).

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٢) وقال : حديث حسن صحيح، وأبو عبس اسمه عبد الرحمن بن جبر .

www.saida-islam.weebly.com

«سَبِيلِ اللَّهِ» جَمِيعُ طَاعَاتِهِ اه. وَهُوَ كَمَا قَالَ، إِلَّا أَنَّ الْمُتَبَادَرَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ مِنْ لَفْظِ «سَبِيلِ اللَّهِ» الْجِهَادُ؛ وَقَدْ أَوْرَدَهُ الْمُصَنِّفُ فِي فَضْلِ الْمَشْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ اسْتِعْمَالًا لِلَّفْظِ فِي عُمُومِهِ .. وَقَالَ ابن الْمُنِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَكَذَلِكَ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، سَوَاءٌ بَاشَرَ قِتَالًا أَمْ لَا [(١)] .

قُلْتُ : فَهَذَا الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ أَبُو عَبْسٍ ﷺ قَدْ فَهِمَ أَنَّ الخُرُوجَ وَالْمَشْيَ لِصَلَاةِ الجُمُعَةِ يَدْخُلُ فِي قَولِهِ ﷺ : «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وَتَابَعَهُ عَلَيهِ التَّابِعِيُّ عَبَايَةُ بْنُ رِفَاعَةَ، وَذَكَرَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الجُمُعَةِ، بَابِ الْمَشْيِ إِلَى الجُمُعَةِ . وَلَا يُعْلَمُ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابِيِّ فِي فَهْمِهِ هَذَا، بَلْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ الْمَرْفُوعِ وَالْمَوْقُوفِ وَالْمَقْطُوعِ مَا يُوَافِقُهُ وَيُؤَيِّدُ مَا ذَهَبَ إِلَيهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ إِجْمَاعاً؛ وَمُخَالِفُهُ يَكُونَ مُتَّبِعاً غَيرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَالخُرُوجُ وَالْمَشْيُ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِيْمَانِ، وَإِقَامَةِ الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَضْلَ الخُرُوجِ وَالْمَشْيِ وَالهِجْرَةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **وَتَبلِيغُ سُنَّتِهِ إِلَى الْأُمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ تَبْلِيغِ السِّهَامِ إِلَى نُحُورِ الْعَدُوِّ**؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّبْلِيغَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَبْلِيغُ السُّنَنِ فَلَا تَقُومُ بِهِ إِلَّا وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاؤُهُم فِي أُمَمِهِمْ؛ جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهُم بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ [(٢)]. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضاً : **وَالْمَقْصُودُ أَنَّ «سَبِيلَ اللهِ» هِيَ : الْجِهَادُ، وَطَلَبُ الْعِلْمِ، وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ بِهِ إِلَى اللهِ** .. [(٣)] .

وَيُبَيِّنُ حَقِيقَةَ فَهْمِ الصَّحَابَةِ ﷺ لِمَقْصُودِ القِتَالِ، مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ :" **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ** ". قَالَ : فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ :" **أَيْنَ**

---

(١) «فتح الباري» (٦/٢٩) .

(٢) «جلاء الأفهام» ص (٤١٥) .

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٧٠-٧١) .

www.saida-islam.weebly.com

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟" فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ :" **انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [(١)] .

فَقَولُ عَلِيٍّ رضي الله عنه : «**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**» فِيهِ أَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم كَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ الْمَقْصُودَ الأَعْلَى لِلْقِتَالِ هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ إلى مَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم مِنَ الإِيْمَانِ باللهِ عز وجل والْعَمَلِ بِشَرَائِعِ الإِسْلامِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى : ﴿**فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟**﴾ **[البقرة: ١٣٧]**، وأَنَّ الْقِتَالَ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، بَلِ الْمَقْصُودُ هُوَ الْهِدَايَةُ إِلى الدِّينِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى : ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ**﴾ **[البقرة: ١٩٣]**، قَالَ الطِّيْبِيُّ رحمه الله : وَكَأَنَّهُ ﷺ اسْتَحْسَنَ قَولَهُ : (**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**) وَاسْتَحْمَدَهُ عَلَى مَا قَصَدَهُ مِنْ مُقَاتَلَتِهِ إِيَّاهُم حَتَّى يَكُونُوا أَمْثَالَنَا مُهْتَدِينَ لإِعْلاءِ دِينِ اللهِ، وَمِنْ ثَمَّ حَثَّهُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَولِهِ :" **فَوَ اللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [(٢)] .

وفي قَولِهِ ﷺ :" **ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ** ". بَيَانُ أَنَّهُ لا يَجُوزُ ابْتِدَاءُ الْكُفَّارِ بِالْقِتَالِ إِلاَّ بَعْدَ دَعْوَتِهِم إِلى الإِسْلام، كَمَا قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : **مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْماً حَتَّى دَعَاهُمْ**[(٣)]. وَقَدْ كَانَ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيْراً عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْراً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةِ الْعَدُوِّ قَبْلَ قِتَالِهِم [(٤)]؛

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢) و(٣٧٠١) و(٤٢١٠) ورواه مسلم برقم (٦٣٧٦) .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٠٥٣) والحاكم في المستدرك (٣٣) وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. ورواه الطبراني في الكبير (١١٢٧٠) وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح .

(٤) رواه مسلم عن بريدة برقم (٤٦١٩) وأبو داود برقم (٢٦١٢) واللفظ له .

www.saida-islam.weebly.com

وأَرْسَلَ ﷺ عَلِيّاً رضي الله عنه إِلى قَوْمٍ وَأَمَرَهُ أَنْ لا يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ [١]؛ وكَذَلِكَ قَالَ لِفَرْوَةَ الْغُطَيْفِيِّ حِيْنَمَا بَعَثَهُ إِلى قَوْمِهِ[٢]؛ وجَاءَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا بَعَثَ بَعْثاً قَالَ :" **تَأَلَّفُوا النَّاسَ وَلا تُغيرُوْا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوهُمْ، فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلاَّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِيْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَتَقْتُلُوْا رِجَالَهُمْ** "[٣]؛ وحِيْنَمَا قِيلَ لَهُ : ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ، قَالَ ﷺ :" **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**"[٤]؛ ولَمَّا حَاصَرَ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ جَاءَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ ﷺ :" **اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا** "[٥]. وَلَمَّا قَتَلَ أُسَامَةُ بْنُ زيدٍ رضي الله عنهما رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا قَتَلَ عِدَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ ثُمَّ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . أَغْلَظَ ﷺ لَهُ القَوْلَ، ومَا زَالَ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ :" **أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ ؟!**" وقَالَ :" **فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟**"[٦]؛ ولَمَّا قَالَ ﷺ لأَهْلِ مَكَّةَ :" **اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ** ". خَرَجُوا فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلامِ .

وَقَولُهُ ﷺ :" **فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا** ". تَأْكِيْدٌ لِمَا أَرْشَدَهُ مِنْ دُعَائِهِم إِلى الإِسْلامِ أَوَّلاً، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَباً لإِيْمَانِهِمْ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إِلى قِتَالِهِمُ الْمُتَفَرِّعِ عَلَيْهِ حُصُولُ الْغَنَائِمِ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ وغَيرِهَا، «فَإِنَّ إِيْجَادَ مُؤْمِنٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ إِعْدَامِ أَلْفِ كَافِرٍ» [٧] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك برقم (٨٢٦٥) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عثمان بن يحيى القرقساني وهو ثقة .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن فروة الغطيفي (٢٤٣٠٦) والترمذي وحَسَّنَهُ (٣٢٢٢) وحَسَّنَهُ ابن كثير في التفسير (٥٣٥/٣) .

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن عبد الرحمن بن عائذ (٧٠٥٧) و(٧٠٥٨) وأبو نعيم في «المعرفة» (٤٦٨٢) وقال الحافظ في «الإصابة» : أخرجه ابن شاهين والبغوي .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم (٢٥٩٩) .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله (١٤٧٠٢) والترمذي في سننه (٣٩٤٢) وقال: حديث حسن صحيح غريب .

(٦) رواه مسلم بعدَّة رواياتٍ، عن أسامة بن زيد برقم (١٥٨-١٦٠) .

(٧) «مرقاة المفاتيح» (٢٤٤/١١) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : وَأَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْجِهَادِ مِنْ حِينِ بَعَثَهُ، وَقَالَ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الْفُرْقَانُ : ٥٢]. فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ أَمَرَ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا هُوَ بِتَبْلِيغِ الْحُجَّةِ، وَإِلاَّ فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِ أَهْلِ الإِسْلامِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣] (١) .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : لَا رَيْبَ أَنَّ الأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُطْلَقِ – أَيْ مَا يَعُمُّ الْجِهَادَ بِاليَدِ واللِّسَانِ وغَيْرِهِ – إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فَأَمَّا جِهَادُ الْحُجَّةِ فَأُمِرَ به في مَكَّةَ بِقَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أَيْ بِالْقُرْآنِ؛ فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَالجِهَادُ فِيهَا هُوَ التَّبْلِيْغُ وجِهَادُ الْحُجَّةِ، وأَمَّا الجِهَادُ الْمَأْمُورُ به في سُورَةِ الْحَجِّ فَيَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ بِالسَّيْفِ (٢) .

قُلتُ : قَولُهُ : «فَيَدْخُلُ فِيْهِ الجِهَادُ بالسَّيف» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ الجِهَادِ إِذَا أُطْلِقَ أُرِيدَ بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ في مَكَّةَ مِنَ التَّبْلِيْغِ لأَوَامِرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا أُمِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ في الْمَدِيْنَةِ مِنِ اسْتِعْمَالِ السَّيْفِ؛ لأَنَّ الْمَقْصِدَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِقَامَةُ دِيْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وإِعْلاءُ كَلِمَتِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فَهَذِهِ الأَحَادِيثُ وأَمْثَالُهَا مِمَّا يُرَغِّبُ الشَّارِعُ فِيهَا بِالجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ، يَدْخُلُ فِيهَا الجِهَادُ الْمَكِّيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ وإِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِاللِّسَانِ، كَمَا يَدْخُلُ الْجِهَادُ الْمَدَنِيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ .

وَقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ مِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ بِالْيَدِ، ومِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الْفُرْقَانُ : ٥٢]؛ فَأَمَرَهُ

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/٣) .
(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٢) .

www.saida-islam.weebly.com

اللهُ ﷻ أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِالْقُرْآنِ جِهَاداً كَبِيراً؛ وهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ وقَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ، ولَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْجِهَادُ بِالْعِلْمِ وَالْقَلْبِ وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ لَا بِالْقِتَالِ، .. وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما مُقَدَّمَانِ فِي أَنْوَاعِ الْجِهَادِ غَيْرِ قِتَالِ الْبَدَنِ. قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ حَزْمٍ رحمه الله : .. الْجِهَادُ يَنْقَسِمُ أَقْسَاماً ثَلاثَةً : **أَحَدُهَا** : الدُّعَاءُ – أَيِ الدَّعْوَةُ – إِلَى اللهِ ﷻ بِاللِّسَانِ؛ **وَالثَّانِيْ** : الْجِهَادُ عِنْدَ الْحَرْبِ بِالرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ؛ **وَالثَّالِثُ** : الْجِهَادُ بِالْيَدِ فِي الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ فَوَجَدْنَا الْجِهَادَ بِاللِّسَانِ لا يَلْحَقُ فِيهِ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ رضي الله عنهما؛ أَمَّا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَإِنَّ أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ أَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ، **فَهَذَا أَفْضَلُ عَمَلٍ**؛ .. وأَمَّا عُمَرُ فَإِنَّهُ مِنْ يَوْمِ أَسْلَمَ عَزَّ الإِسْلامُ، وعُبِدَ اللهُ عَلانِيَةً، وهَذَا أَعْظَمُ الْجِهَادِ، وقَدِ انْفَرَدَ هَذَانِ الرَّجُلانِ بِهَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا نَظِيرَ لَهُمَا .. [(١)] .

وَقَالَ ابْنُ تَيمِيَةَ رحمه الله أَيضاً عَنْ جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ : وَالْمُعَاوِنُ عَلَى كَفِّ شَرِّهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ ﷻ؛ فَإِنَّ **الْمَقْصُودَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ هُوَ هِدَايَتُهُمْ**، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : **كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ مِنَ الْقُيُودِ وَالسَّلَاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمْ الْإِسْلَامَ** [(٢)]. فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، هِدَايَةُ الْعِبَادِ لِمَصَالِحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ كَفَّ اللَّهُ ضَرَرَهُ عَنْ غَيْرِهِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ .. [(٣)] .

وَقَالَ رحمه الله أَيْضاً : وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ بِاللِّسَانِ فَمَا زَالَ مَشْرُوعاً مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ إِلَى آخِرِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شُرِعَ جِهَادَهُم بِالْيَدِ، فَبِاللِّسَانِ أَوْلَى؛ وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **جَاهِدُوا**

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/٤٣١-٤٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٧) ولفظه : **خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ** .

(٣) «الفتاوى الكبرى» (٣/٥١٢) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ "[١]. ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ القِتَالَ إِنَّمَا شُرِعَ لِلضَّرُورَةِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ آمَنُوا بِالبُرْهَانِ والآيَاتِ لَمَا احْتِيْجَ إِلى الْقِتَالِ، فَبَيَانُ آيَاتِ الإِسْلامِ وبَرَاهِيْنِهِ وَاجِبٌ مُطْلَقاً وُجُوباً أَصْلِيّاً، وأَمَّا الْجِهَادُ فَمَشْرُوعٌ لِلضَّرُورَةِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ ﷻ وَعَدَ بِإِظْهَارِهِ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ ظُهُورَ عِلْمٍ وَبَيَانٍ، وظُهُورَ سَيْفٍ وسِنَانٍ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. وقَدْ فَسَّرَ العُلَمَاءُ ظُهُورَهُ بِهَذَا وهَذَا، ولَفْظُ الظُّهُورِ يَتَنَاوَلُهُمَا، فَإِنَّ ظُهُورَ الْهُدَى بِالعِلْمِ والبَيَانِ وظُهُورَ الدِّيْنِ بِاليَدِ والعَمَلِ، وَاللهُ ﷻ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ؛ ومَعْلُومٌ أَنَّ ظُهُورَ الإِسْلامِ بالعِلْمِ والبَيَانِ قَبْلَ ظُهُورِهِ باليَدِ والقِتَالِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُظْهِرُ الإِسْلامَ بِالعِلْمِ والبَيَانِ والآيَاتِ والبَرَاهِينِ، فَآمَنَتْ بِهِ الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ طَوعاً وَاخْتِيَاراً بِغَيْرِ سَيْفٍ، لِمَا بَانَ لَهُمْ مِنَ الآيَاتِ والبَيِّنَاتِ والبَرَاهِيْنِ والْمُعْجِزَاتِ، ثُمَّ أَظْهَرَهُ بِالسَّيْفِ، فَإِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا جِهَادُ الكُفَّارِ بالسَّيْفِ ابْتِدَاءاً ودَفْعاً، فَلَئَنْ يَجِبَ عَلَيْنَا بَيَانُ الإِسْلامِ وإِعْلامُهُ ابْتِدَاءاً ودَفْعاً لِمَنْ يَطْعَنُ فِيهِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، فَإِنَّ وُجُوبَ هَذَا قَبْلَ وُجُوبِ ذَاكَ، وَمَنْفَعَتَهُ قَبْلَ مَنْفَعَتِهِ [٢] .

وَقَالَ الخَطِيْبُ الشِّرْبِيْنِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وُجُوبُ الْجِهَادِ - أَيِ القِتَالِ - وُجُوبُ الوَسَائِلِ لا الْمَقَاصِدِ، إِذِ الْمَقْصُودُ بالقِتَالِ إِنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ ومَا سِوَاهَا مِنَ الشَّهَادَةِ، وأَمَّا قَتْلُ الكُفَّارِ فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ، حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهِدَايَةُ بِإِقَامَةِ الدَّلِيْلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ كَانَ أَوْلَى مِنَ الْجِهَادِ [٣] .

وَقَالَ الشَّيخُ رَشِيدُ رِضَا رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]. قَالَ : وَقَدْ عَطَفَ

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٢٤٦) وأبو داوود (٢٥٠٦) والنسائي في سننه (٣٠٩٦) والحاكم في المستدرك (٢٤٢٧) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/١٤٧) .

(٣) «مغني المحتاج» (٤/٢٧٧) .

www.saida-islam.weebly.com

عَلَيْهِمَا - أَيْ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ - الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ مُنْكِرًا؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ آيَاتِهِمَا؛ وَنُكْتَةُ تَنْكِيرِهِ وَإِبْهَامِهِ: إِفَادَةُ أَنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ تَارِكَهُ لِأَجْلِ حُبِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَيْهِ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الَّذِي فِي الْآيَةِ .. [(١)].

قُلْتُ : وَلَا شَكَّ أَنَّ جِهَادَ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الجِهَادِ؛ فَهُوَ جِهَادُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الأَوَّلُ مِنْ بِعْثَتِهِم، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ بِعْثَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَى بَاقِي الأُمَمِ؛ فَمَنْ تَرَكَهُ لِأَجْلِ حُبِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الَّذِي فِي الْآيَةِ . نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

وَقَدْ قَرَّرَ الْمَجْمَعُ الفِقْهِيُّ بِرَابِطَةِ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ومَا يُعِينُ عَلَيهَا، وَيَدعَمُ أَعْمَالَهَا، كُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ وذَلِكَ لِعِدَّةِ وُجُوهٍ :

١. نَظَراً إِلى أَنَّ هَذَا القَولَ قَدْ قَالَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وأَنَّ لَهُ حَظّاً مِنَ النَّظَرِ فِي بَعْضِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ، مِثْلَ قَولِهِ ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]؛ وَمِنَ الأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ، مِثْلَ مَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُودَ، أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ نَاقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَرَادَتِ امْرَأَتُهُ الحَجَّ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ :" **ارْكَبِيهَا، فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ اللهِ** ". رَوَاهُ أَبُو دَاوُودَ، عَنْ أُمِّ مَعْقِلٍ الأَسَدِيَّةِ بِرَقَمِ (١٩٩١) وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ (٢٣٧٦)، وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيحَينِ مُخْتَصَراً .

٢. وَنَظَراً إِلى أَنَّ القَصْدَ مِنَ الجِهَادِ بِالسِّلاحِ هُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ ﷻ، وأَنَّ إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ يَكُونُ أَيْضاً بِالدَّعْوَةِ إِلى اللهِ ﷻ ونَشْرِ دِينِهِ بِإِعْدَادِ الدُّعَاةِ، ودَعْمِهِم ومُسَاعَدَتِهِم عَلَى أَدَاءِ مُهِمَّتِهِم فَيَكُونُ كِلا الأَمْرَينِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللهِ، لِمَا رَوَى

(١) «تفسير المنار» (١٠/٢١٠) .

www.saida-islam.weebly.com

أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :" **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** ".

٣. وَنَظَراً إلى أَنَّ الإِسْلامَ مُحَارَبٌ بِالغَزْوِ الفِكْرِيِّ وَالْعَقَدِيِّ مِنَ الْمَلاحِدَةِ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى وسَائِرِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وأَنَّ لِهؤُلاءِ مَنْ يَدْعَمُهُمُ الدَّعْمَ الْمَادِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُم بِمِثْلِ السِّلاحِ الَّذِي يَغْزُونَ بِهِ الإِسْلامَ، وبِمَا هُوَ أَنْكَى مِنْهُ.

٤. وَنَظَراً إلى أَنَّ الحُرُوبَ في البِلادِ الإِسْلامِيَّةِ أَصْبَحَ لَهَا وَزَارَاتٌ خَاصَّةٌ بِهَا، ولَهَا بُنُودٌ مَالِيَّةٌ في مِيزَانِيَّةِ كُلِّ دَولَةٍ، بِخِلافِ الجِهَادِ بِالدَّعْوَةِ، فَإِنَّهُ لا يُوجَدُ في مِيزَانِيَّاتِ غَالِبِ الدُّوَلِ مُسَاعَدَةٌ وَلَا عَونٌ، لِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْمَجْلِسَ يُقَرِّرُ بِالأَكْثَرِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومَا يُعِينُ عَلَيهَا ويَدْعَمُ أَعْمَالَهَا في مَعْنى ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الآيَةِ الكَرِيمَةِ [(١)].

وَقَالَ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : فَمَنْ كَانَ مُجَاهِداً في سَبِيلِ اللهِ بِاللِّسَانِ : بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ والْخَبَرِ، وبَيَانِ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ بِالْيَدِ : كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِذَا أُوْذِيَ عَلَى جِهَادِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ أَوْ لِسَانِهِ، فَأَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللهِ [(٢)] .

قُلْتُ : فَهَذَا الإِمَامُ الهُمَامُ ابْنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يُثْبِتُ أَنَّ هُنَاكَ جِهَادًا في سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاللِّسَانِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَبَرِ؛ فَمَنْ خَرَجَ لِأَجْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الجِهَادِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى خَارِجاً وَمُجَاهِداً في سَبِيلِ اللهِ؛ فَيَنَالُهُ مَا وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأُجُورِ وَالدَّرَجَاتِ عَلَى الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ؛ وَإِذَا

---

(١) «قرار المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة المنعقدة في مكة المكرمة فيما بين ٢٧ ربيع الآخرة ١٤٠٥هـ و٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ» . **تنبيه** : لَمْ أَنْقُلْ هَذِهِ الفَتْوَى لِلاسْتِدْلالِ عَلَى الْحُكْمِ الْمُقَرَّرِ فِيهَا، فَإِنَّهَا مَسأَلَةٌ خِلافِيَّةٌ بَينَ العُلَمَاءِ؛ وإِنَّمَا أَرَدْتُ الاسْتِشْهَادَ بِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللهِ والجِهَادَ في سَبِيلِهِ مَقْصُودُهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرُ دِينِهِ، وأَنَّ كُلاً مِنْهُمَا يُسَمَّى جِهَاداً في سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ القَائِمَ بِهِمَا يَتَحَصَّلُ عَلَى مَوعُودِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الجِهَادِ في سَبِيلِهِ .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/٢٠١) .

www.saida-islam.weebly.com

رَبَطَ نَفْسَهُ عَلَى هَذَا العَمَلِ مُحْتَسِباً أَجْرَهُ عَلَى اللهِ ﷻ، كَانَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى ثُغْرَةٍ هِيَ أَعْظَمُ الثُّغْرَاتِ خَطَراً عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ وَإِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الأَذَى فِي طَرِيقِهِ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ؛ وَإِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ كَانَ مَوتُهُ أَوْ قَتْلُهُ شَهَادَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَقَعُ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﷻ .

وَمَا جَاءَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ وَالآثَارِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَضْلَ الجِهَادِ وَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، فَإِنَّ جِهَادَ الدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ يَدْخُلُ فِيهَا دُخُولاً أَوَّلِيًّا بِالقَصْدِ الأَوَّلِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ تَيمِيَةَ وَابْنِ القَيِّمِ وَغَيرِهِمْ؛ كَمَا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا جِهَادُ الكُفَّارِ بِالسَّيفِ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ مِنهَا جِهَادُ الدَّعْوَةِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الأَسَاسِيُّ مِنْ جِهَادِ السَّيفِ، وَمُقَدَّمٌ عَلَيهِ فِي الرُّتْبَةِ والفَضِيلَةِ؛ «وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجِهَادِ هُوَ حِرْفَةُ النَّبِيِّ ﷺ، .. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الجِهَادِ[١]». وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ الجِهَادُ الكَبِيرُ؛ فَمَا كَانَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ أَعْلَى رُتْبَةً وَفَضِيلَةً مِمَّا هُوَ مَقْصُودٌ لِغَيرِهِ؛ فَإِخْرَاجُ الجِهَادِ الكَبِيرِ – جِهَادِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ – مِنْ فَضَائِلِ الجِهَادِ العَامِّ الْمُطْلَقِ، هُوَ تَخْصِيصٌ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ العَامَّةِ بِلَا مُخَصِّصٍ، وَتَقْيِيدٌ لِلنُّصُوصِ الْمُطْلَقَةِ بِلَا مُقَيِّدٍ؛ وَهَذَا اعْتِدَاءٌ عَلَى نُصُوصِ الشَّرْعِ الْمُحْكَمَةِ؛ وَقَدْ ثَبَتَ دُخُولُهُ بِنَصِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ وَخَلَفِهَا [٢] .

❖❖❖❖❖

(١) «التفسير الكبير للرازي» (١١/١٩٥) .

(٢) قلت : وللعبد الفقير رسالة خاصة في هذا الشأن، تبيِّن حقيقة الخروج في سبيل الله للجهاد باللسان والسِّنان، والمقصودَ الأساسيَّ من مشروعيته، مع بيان مهمات كثيرة حول هذا الموضوع المهمِّ والخطير؛ يسَّرَ اللهُ إتمامها على النَّحو الذي يحبُّه ويرضاه. فمن أراد أنْ تتجلَّى له هذه الحقيقة بما لا مزيد عليه، فعليه بها؛ كما ينصح بقراءة كتاب «**إتحاف السادة المبلغين**» للعبد الفقير، ففيه ما يشفي ويكفي لمن أراد الحقَّ المغني. والله الموفِّقُ والهادي إلى صراط مستقيم.

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

كَلامُ الإِمَامَينِ الرَّازِيِّ وَالغَزَالِيِّ فِي وُجُوبِ الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ والتَّبلِيغِ، والتَّعلِيمِ والتَّعَلُّمِ، خَاصَّةً عِندَ انتِشَارِ الجَهلِ، وإِعرَاضِ النَّاسِ عَن دِينِهِمْ تَعَلُّماً وعَمَلاً، وأَنَّهُ لا يَسقُطُ الحَرَجُ عَنِ الأُمَّةِ مَا دَامَ عَلَى وَجهِ الأَرضِ جَاهِلٌ بِفَرْضٍ مِن فُرُوضِ دِينِهِ :

قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ وُجُوبِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ وَالإِرشَادِ : اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ قَاعِدٍ فِيْ بَيْتِهِ – أَيْنَمَا كَانَ – فَلَيسَ خَالِياً فِي هَذَا الزَّمَانِ عَنْ مُنْكَرٍ، مِنْ حَيثُ التَّقَاعُدُ عَنْ إِرْشَادِ النَّاسِ وتَعْلِيمِهِم وحَمْلِهِم عَلَى الْمَعْرُوفِ، فأَكْثَرُ النَّاسِ جَاهِلُونَ بِالشَّرعِ فِي شُرُوطِ الصَّلاةِ وفِي الْبِلادِ، فكَيفَ فِي القُرَى والبَوَادِي ؟ وَمِنْهُمُ الأَعْرَابُ والأَكْرَادُ وَالتُّرْكُمَانِيَّةُ وسَائِرُ أَصْنَافِ الخَلْقِ . ووَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ فِي مَسْجِدٍ ومَحَلَّةٍ مِنَ الْبَلَدِ فَقِيهٌ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُم، وكَذَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ، ووَاجِبٌ عَلَى كُلِّ فَقِيهٍ فَرَغَ مِنْ فَرْضِ عَيْنِهِ وتَفَرَّغَ لِفَرْضِ كِفَايَتِهِ أَنْ يَخْرُجَ إِلى مَنْ يُجَاوِرُ بَلَدَهُ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، ومِنَ الْعَرَبِ والأَكْرَادِ وغَيرِهِم، ويُعَلِّمَهُمْ دِينَهُم وفَرَائِضَ شَرْعِهِم، ويَسْتَصْحِبَ مَعَ نَفْسِهِ زَاداً يَأْكُلُهُ، ولا يَأْكُلَ مِنْ أَطْعِمَتِهِم فَإِنَّ أَكْثَرَهَا مَغْصُوبٌ، فَإِنْ قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ وَاحِدٌ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الآخَرِينَ، وإِلاَّ عَمَّ الْحَرَجُ الْكَافَّةَ أَجْمَعِينَ، أَمَّا الْعَالِمُ فَلِتَقْصِيرِهِ فِي الْخُرُوجِ، وأَمَّا الجَاهِلُ فَلِتَقْصِيرِهِ فِي تَرْكِ التَّعَلُّمِ . **وكُلُّ عَامِّيٍّ عَرَفَ شُرُوطَ الصَّلاةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعَرِّفَ غَيرَهُ، وإِلاَّ فَهُوَ شَرِيكٌ فِي الإِثْمِ**؛ ومَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُوْلَدُ عَالِماً بِالشَّرْعِ ؛ **وإِنَّمَا يَجِبُ التَّبْلِيْغُ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، فَكُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً فَهُوَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِهَا**[(١)]؛ وَلَعَمْرِي الإِثْمُ عَلَى الْفُقَهَاءِ أَشَدُّ، لأَنَّ قُدْرَتَهُم فِيهِ

---

(١) قلت : لَقَدِ ذَكَرتُ أَدِلَّةَ وُجُوبِ الدَّعْوَةِ على عُمُومِ الأُمَّة، بمن فيهم العالم والعاميّ، والرِّجَال والنِّسَاء؛ وأَنَّ كلَّ واحد من الأمَّةِ عليه مسؤوليَّة تبليغ ما بَلَغَهُ من الدِّين ولو قلَّ، وأَنَّ إخراجَ العوامِّ في سبيل الله لتَعَلُّمِ الدَّعوةِ والقيام بها – بحسب عِلمِهِم – هو عَينُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وذلك بأَدِلَّةٍ من كتاب اللهِ ﷻ، وسُنَّتِهِ ﷺ الثَّابِتَةِ الصَّحِيحَةِ، وقَصَصِ الصَّحَابَةِ ﷺ، والَّتِي تَبلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ المعنويِّ، وأقوال أئمَّة الدِّين سَلَفاً وخَلَفاً؛ وذلك في كتاب «**كشف الغُمَّة في وُجُوبِ الدَّعْوَةِ على عُمُومِ الأُمَّة**».

www.saida-islam.weebly.com

أَظْهَرُ، وهُمْ بِصِناعَتِهِم أَلْيَقُ، لأَنَّ الْمُحْتَرِفِينَ لَوْ تَرَكُوا حِرْفَتَهُم لَبَطَلَتِ الْمَعَايِشُ، فَهُم قَدْ تَقَلَّدُوا أَمْراً لا بُدَّ مِنْهُ فِي إِصْلاحِ الْخَلْقِ، وشَأْنُ الْفَقِيهِ وحُرْفَتُهُ تَبْلِيغُ مَا بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ . وكُلُّ مَنْ تَيَقَّنَ أَنَّ فِي السُّوقِ مُنْكَراً يَجْرِي عَلَى الدَّوَامِ أَوْ فِي وَقْتٍ بِعَيْنِهِ وهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ، فَلا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُسْقِطَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْقُعُودِ فِي الْبَيْتِ، بَلْ يَلْزَمُهُ الْخُرُوجُ، فَإِنْ كَانَ لا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ الْجَمِيعِ وهُوَ مُحْتَرِزٌ عَنْ مُشَاهَدَتِهِ ويَقْدِرُ عَلَى الْبَعْضِ لَزِمَهُ الْخُرُوجُ، لأَنَّ خُرُوجَهُ إِذَا كَانَ لأَجْلِ تَغْيِيرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيهِ فَلا يَضُرُّهُ مُشَاهَدَةُ مَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ، وإِنَّمَا يُمْنَعُ الْحُضُورُ لِمُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرِ مِنْ غَيْرِ غَرَضٍ صَحِيْحٍ .. فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ فَيُصْلِحَهَا بِالْمُوَاظَبَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ وتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ يُعَلِّمَ ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَتَعَدَّى بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُم إِلى جِيرَانِهِ، ثُمَّ إِلى أَهْلِ مَحَلَّتِهِ، ثُمَّ إِلى أَهْلِ بَلَدِهِ، ثُمَّ إِلى أَهْلِ السَّوَادِي الْمُكْتَنِفِ بِبَلَدِهِ، ثُمَّ إِلى أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الأَكْرَادِ وَالْعَرَبِ وغَيرِهِم، وهَكَذَا إِلى أَقْصَى الْعَالَمِ، فَإِنْ قَامَ بِهِ الأَدْنَى سَقَطَ عَنِ الأَبْعَدِ، وإِلاَّ حُرِّجَ بِهِ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ عَلَيهِ قَرِيْباً كَانَ أَوْ بَعِيْداً، ولا يَسْقُطُ الْحَرَجُ مَا دَامَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ جَاهِلٌ بِفَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ دِيْنِهِ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْعَى إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ فَيُعَلِّمَهُ فَرْضَهُ، **وهَذَا شُغْلٌ شَاغِلٌ لِمَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُ دِيْنِهِ**، يَشْغَلُهُ عَنْ تَجْزِئَةِ الأَوْقَاتِ فِي التَّفْرِيْعَاتِ النَّادِرَةِ فِي دَقَائِقِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، ولا يَتَقَدَّمُ عَلَى هَذَا إِلاَّ فَرْضُ عَيْنٍ أَوْ فَرْضُ كِفَايَةٍ هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ [١] .

قُلْتُ : وَهَذَا التَّرتِيبُ بِعَينِهِ هُوَ الَّذِيْ يَجْتَهِدُ القَائِمُونَ فِي جُهْدِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ لِإِقَامَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ عَلَيهِ : مِنْ خِلَالِ الجُهْدِ عَلَى النَّفْسِ بِإِصْلَاحِهَا وَتَزْكِيَتِهَا مِنْ أَدْرَانِهَا؛ وَذَلِكَ بِإِشْغَالِهِ فِي أَعْمَالِ الهِدَايَةِ وَالتَّزْكِيَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ : الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، وَالتَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ، وَالعِبَادَاتُ بِأَنْوَاعِهَا، الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَالخِدْمَةُ وَالتَّخَلُّقُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ؛ ثُمَّ الجُهْدِ عَلَى الأَهْلِ وَالعَشِيرَةِ، مِنْ خِلَالِ القِيَامِ بِحَلْقَاتِ التَّعْلِيمِ البَيْتِيَّةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الجُهْدِ المَقَامِيِّ فِي الأَحْيَاءِ، بِتَفْرِيغِ الأَوْقَاتِ اليَومِيَّةِ لِلْقِيَامِ بِالزِّيَارَاتِ الدَّعَوِيَّةِ وَالتَّذْكِيرِيَّةِ، وَإِقَامَةِ حَلْقَاتِ التَّعْلِيمِ فِي المَسَاجِدِ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٨١- ٤٨٢) .

www.saida-islam.weebly.com

وَالبُيُوتِ؛ ثُمَّ القِيَامِ بِالتَّجْوَالِ فِي الْمَسَاجِدِ الْمُجَاوِرَةِ، ثُمَّ القُرَى وَالْمُدُنِ فِي نَفْسِ البَلَدِ، بِإِخْرَاجِ الجَمَاعَاتِ إِلَيهَا، ثُمَّ إِخْرَاجِ الجَمَاعَاتِ لِلْمُدَدِ الطَوِيلَةِ إِلَى أَنْحَاءِ العَالَمِ؛ وَيَكُونُ هَذَا بِبَيَانِ : أَنَّ هَذَا العَمَلَ الْمُبَارَكَ هُوَ حَاجَتُنَا لِلْقُرْبِ مِنَ اللهِ ﷻ وَنَيلِ رِضْوَانِهِ، وَحِيَازَةِ شَرَفِ نِيَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَخِلَافَتِهِ فِي أُمَّتِهِ بِالتَّبْلِيغِ عِنهُ؛ كَمَا أَنَّهُ مُسْؤُولِيَّتُنَا، حَيثُ إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ بِعُمُومِهَا مُكَلَّفَةٌ بِالتَّبْلِيغِ عَنِ اللهِ ﷻ وَرَسُولِهِ ﷺ؛ وَأَنَّ هَذَا العَمَلَ هُوَ سَبَبُ فَلَاحِهَا فِي الدَّارَينِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران:١٠٤] (١). فَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ الدَّعْوَةِ والتَّبلِيغِ، وَالنُّصْحِ وَالتَّذْكِيرِ، بِقَدْرِ مَبْلَغِهِ مِنَ العِلْمِ؛ وَلَا بُدَّ مِنَ القِيَامِ بِهَا كَمَقْصَدِ حَيَاةٍ وَ«**شُغْلٍ شَاغِلٍ**»، يَجْعَلُهُ فِي أَوَّلِ سُلَّمِ أَوْلَوِيَّاتِهِ وَمُهِمَّاتِهِ، وَيُقَدِّمُهُ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَمَهَامِّهِ.

وَقَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَحْتَ تَفْسِيرِ قَولِهِ ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢] : فَإِنْ قِيلَ : أَفَتَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ الْخُرُوجِ لِلتَّفَقُّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ؟ قُلْنَا : مَتَى عَجَزَ عَنِ التَّفَقُّهِ إِلَّا بِالسَّفَرِ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّفَرُ، وَفِي زَمَانِ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، .. أَمَّا فِي زَمَانِنَا فَقَدْ صَارَتِ الشَّرِيعَةُ مُسْتَقِرَّةً، فَإِذَا أَمْكَنَهُ تَحْصِيلُ الْعِلْمِ فِي الْوَطَنِ لَمْ يَكُنِ السَّفَرُ وَاجِبًا، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ لَفْظُ الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى السَّفَرِ، لَا جَرَمَ رَأَيْنَا أَنَّ الْعِلْمَ الْمُبَارَكَ الْمُنْتَفَعَ بِهِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا فِي السَّفَرِ (٢) . قُلْتُ : فَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ تَعَلُّمَ الدِّينِ والتَّفَقُّهَ فِيهِ وتَبْلِيغَهُ أَمْرٌ وَاجِبٌ شَرْعاً، ويَجِبُ مَعَ هَذَا كُلُّ وَسِيلَةٍ لَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَى هَذَا الوَاجِبِ إِلَّا بِهَا .

❖❖❖❖❖

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٩١) : وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الأمَّة مُتَصَدِّيَةٌ لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ.

(٢) «التفسير الكبير» (١٦/١٧١) .

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الخَامِسُ

بَيَانُ سُنَّةِ اللهِ ﷻ فِي تَجْدِيدِ مَا انْدَرَسَ مِنَ الدِّينِ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ جَدَّدَ القُطْبَ الأَعْظَمَ فِي الدِّينِ، بِعَمَلِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ»، عَلَى يَدِ الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ؛ وَبَيَانُ شَيْءٍ مِنْ مَعَالِمِ هَذَا التَّجْدِيدِ وَآثَارِهِ :

إِنَّ بِعْثَةَ نَبِيِّنَا ﷺ هِيَ بِعْثَةٌ جَامِعَةٌ شَامِلَةٌ، اقْتَرَنَتْ بِتَكْلِيفِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ؛ ذَلِكَ التَّكْلِيفُ الْمُشَرِّفُ الكَرِيمُ الَّذِي قَالَ فِيهِ اللهُ ﷻ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .. فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ هِيَ مَصْدَرُ كُلِّ خَيرٍ لِهَذِهِ الأُمَّةِ؛ وَإِنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ مُرْتَبِطٌ بِبَقَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُرَافِقَةً لَهَا فِي جَمِيعِ أَطْوَارِهَا؛ وَإِنَّ مُسْتَقْبَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ مُرْتَبِطٌ بِقَضِيَّةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ وَإِذَا انْقَطَعَ تَيَّارُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ بَقِيَتْ هُذِهِ الأُمَّةُ جَسَداً بِلَا رُوحٍ[١]؛ وَكُلَّمَا تَقَادَمَ العَهْدُ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَانْدَرَسَتْ مَعَالِمُهَا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُهَيِّأُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَهَا، وَيُعِيدُهَا إِلَى سِيرَتِهَا الأُوْلَى .

فَفِي هَذَا الفَصْلِ بَيَانُ حِفْظِ اللهِ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ دِينَهَا مِنَ الضَّيَاعِ، وَبَعْثِهِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا؛ وَكَيفَ جَدَّدَ اللهُ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلَيهِ وَإِلَى دِينِهِ، بَعْدَ أَنِ انْدَرَسَتْ مَعَالِمُ هَذَا الجُهْدِ، وَكَادَتْ تَنْطَوِي صَفْحَتُهُ مِنْ حَيَاةِ الأُمَّةِ؛ وَكَيفَ حَرَّكَ اللهُ ﷻ عَجَلَةَ الجُهْدِ وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى يَدِ الشَّيخِ الدَّاعِيَةِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ؛ وَمَا هِيَ أَبْرَزُ مَعَالِمِ هَذَا التَّجْدِيدِ، مَعَ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ آثَارِهِ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي خَمْسَةِ مَبَاحِثَ :

---

(١) من كلمة ألقاها أبو الحسن الندوي في افتتاح «المؤتمر العالمي لتوجيه الدَّعوة وإعداد الدُّعاة» في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد أصدرت رسالة خاصَّة بذلك. وانظرها في المكتبة الشاملة ص (١٣).

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ :

فَضْلُ اللهِ ﷻ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِحِفْظِ دِينِهَا مِنَ الضَّيَاعِ، وبَعْثِهِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ :" **إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا** " (١) .

---

(١) رواه أبو داوود في سننه (٤٢٩٣) والحاكم في المستدرك (٨٥٩٢) وصحَّحه وسكت عنه الذهبي . والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧) وقال المناوي في «فيض القدير» : قال الزين العراقي: سنده صحيح. وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات. وقال السيوطي في «مرقاة الصعود»: اتَّفَقَ الحُفَّاظُ على تصحيحه، منهم الحاكم في المستدرك والبيهقي في «المدخل» وممن نصَّ على صحته من المتأخرين الحافظ ابن حجر . وقوله ﷺ :" **عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ** ". أَيِ انْتِهَائِهِ أَوِ ابْتِدَائِهِ، إِذَا قَلَّ الْعِلْمُ وَالسُّنَّةُ، وَكَثُرَ الْجَهْلُ وَالْبِدْعَةُ . قَالَ الْمُنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : يَحْتَمِلُ مِنَ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، أَوِ الْبِعْثَةِ، أَوِ الْهِجْرَةِ أَوِ الْوَفَاةِ، ولَوْ قِيلَ بِأَقْرَبِيَّةِ الثَّانِيْ، لَكِنَّ صَنِيعَ السُّبْكِيِّ وغَيرِهِ مُصَرِّحٌ بِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّالِثُ. «فيض القدير» (١٣/١) . يَعْنِي الْهِجْرَةَ . وقَدْ يُقَالُ : إِنَّ عَدَمَ التَّحْدِيدِ هَذَا مَقْصُودٌ فِي الشَّرْعِ، بِحَيثُ يَظْهَرُ الْمُجَدِّدُ كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيهِ، لِبُعْدِ النَّاسِ عَنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ، أَوْ لِبُعْدِهِم عَنْ عَهْدِ الْمُجَدِّدِ السَّابِقِ، كَمَا أَنَّ الْمُجَدِّدَ قَدْ يَعِيشُ ويَمُوتُ، ولا يَعْرِفُ أَنَّهُ كَانَ مُجَدِّدَ هَذِهِ الْمِائَةِ، ولَكِنْ يُسْتَنْبَطُ ذَلِكَ عِنْدَ الْوُقُوفِ عَلَى دِرَاسَةِ أَحْوَالِ هَذَا الْقَرْنِ، ومَنْ قَامُوا بِإِسْهَامَاتٍ فَعَّالَةٍ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلى طَرِيقِ النُّبُوَّةِ . وقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : نَبَّهَ بَعْضُ الأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّهُ لا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي رَأْسِ كُلِّ قَرْنٍ وَاحِدٌ فَقَطُ، بَلِ الأَمْرُ فِيهِ كَمَا ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي حَدِيثِ :" **لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِيْ ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ** ". مِنْ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الطَّائِفَةُ جَمَاعَةً مُتَعَدِّدَةً مِنْ أَنْوَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا بَيْنَ شُجَاعٍ، وَبَصِيرٍ بِالْحَرْبِ، وَفَقِيهٍ، وَمُحَدِّثٍ، وَمُفَسِّرٍ، وَقَائِمٍ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَزَاهِدٍ وَعَابِدٍ، وَلا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَجُوزُ اجْتِمَاعُهُمْ فِي قُطْرٍ وَاحِدٍ، وَافْتِرَاقُهُمْ فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَجْتَمِعُوا فِي الْبَلَدِ الْوَاحِدِ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي بَعْضٍ مِنْهُ دُونَ بَعْضٍ، وَيَجُوزُ إِخْلاءُ الأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ بَعْضِهِمْ أَوَّلاً فَأَوَّلاً، إِلَى أَنْ لا يَبْقَى إِلاَّ فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ بِبَلَدٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا انْقَرَضُوا جَاءَ أَمْرُ اللهِ . قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ : وهُوَ مُتَّجَهٌ .. فَعَلَى هَذَا كُلُّ مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ رَأْسِ الْمِائَةِ، هُوَ الْمُرَادُ، سَوَاءٌ تَعَدَّدَ أَمْ لا. «فتح الباري» (٢٩٥/١٣).

www.saida-islam.weebly.com

وَمَعْنَى الحَدِيثِ : أَنَّ اللهَ ﷻ يُقَيِّضُ لِهَذه الأمةِ ويُخْرِجُ لَهَا مَنْ يَقُومُ بِهَذَا الشَّأْنِ الْعَظِيمِ، ولَيسَ بَعْثاً عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ؛ وكَلِمَةُ الْبَعْثِ هُنَا تُوحِي بِأَنَّ اللهَ ﷻ يُرْسِلُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يَصْطَفِيهِ ويَجْتَبِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَحْمِلَ أَمَانَةَ التَّجْدِيدِ، وتَبِعَةَ النَّهْضَةِ، ومَسْؤُولِيَّةَ إِحْيَاءِ الدِّيْنِ، وكَأَنَّ الْمُجَدِّدِينَ هُمْ رُسُلُ اللهِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، غَيرَ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ. فالْمُجَدِّدَ لا يَكُونُ هَمُّهُ نَفْسَهُ، بَلْ يَكُونُ هَمُّهُ إِعَادَةَ الأُمَّةِ إِلى مَا كَانَتْ عَلَيهِ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، لأَنَّهُ يَقْبُحُ بِالْمُسْلِمِ الْعَامِّيِّ أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ نَفْسَهُ، وقَدْ عَابَ اللهُ ﷻ ذَلِكَ عَلَى أَقْوَامٍ، فَقَالَ : ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٤]؛ فَكَيفَ بِمَنْ يَكُونُ مُجَدِّداً لِهَذِهِ الأُمَّةِ دِينَهَا؛ فَيَكُونُ هَمُّهُ نَجَاةَ الأُمَّةِ مِنْ خِزْيِ الدُّنَيا وعَذَابِ الآخِرَةِ، كَمَا كَانَ عَلَيهِ نَبِيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ ﷺ، فَهُوَ يَعِيشُ بِكُلِّ كَيَانِهِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ .

وَالْمُرَادُ مِنْ تَجْدِيدِ الدِّيْنِ لِلأُمَّةِ : هُوَ إِحْيَاءُ مَا انْدَرَسَ مِنَ الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، والأَمْرُ بِمُقْتَضَاهُمَا، وَلَا يُعْلَمُ ذَلِكَ الْمُجَدِّدُ إِلاَّ بِغَلَبَةِ الظَّنِّ مِمَّنْ عَاصَرَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، بِقَرَائِنِ أَحْوَالِهِ، والاِنْتِفَاعِ بِعِلْمِهِ، إِذِ الْمُجَدِّدُ لِلدِّيْنِ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَالِماً بِالْعُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، قَاصِداً لِلسُّنَّةِ، قَامِعاً لِلْبِدْعَةِ، وأَنْ يَعُمَّ عِلْمُهُ أَهْلَ زَمَانِهِ؛ ومَعَ ذَلِكَ يَكُونُ عَزْمُهُ وهِمَّتُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِحْيَاءَ السُّنَنِ ونَشْرَهَا، ونَصْرَ صَاحِبِهَا، وإِمَاتَةَ الْبِدَعِ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، ومَحْوَهَا[١].

وَقَدْ قَيَّضَ اللهُ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ فِي كُلِّ دَوْرٍ مَنْ أَدْوَارِ حَيَاتِهَا، وَفِي كُلِّ رُقْعَةٍ مِنْ رِقَاعِ الْعَالَمِ الإِسْلامِيِّ رِجَالاً يَدْعُونَ إِلى إِحْيَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَذِهِ الفَرِيْضَةِ، وَعَوْدَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلى نَشَاطِهَا السَّابِقِ وَكِفَاحِهَا الأَوَّلِ، تَذْكُرُ بِفَضْلِهِمْ هَذِهِ الأُمَّةُ دَرْسَهَا الْمَنْسِيَّ، وَتَعُودُ إِلى عَمَلِهَا الْمَهْجُورِ، وَتَدُبُّ فِيْهَا حَيَاةٌ جَدِيْدَةٌ وَنَشَاطٌ جَدِيْدٌ .

---

(١) «عون المعبود شرح سنن أبي داوود» (٤٧/٣٥٨) .

www.saida-islam.weebly.com

وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَفْذَاذِ الْمُجَدِّدِينَ، والنَّوَابِغِ الْمُصْلِحِينَ، العَالِمُ الدَّاعِيْ إِلَى اللهِ، مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ بْنُ مُحَمَّد إِسْمَاعِيلَ الكَانْدَهْلَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]؛ حَيثُ جَدَّدَ اللهُ وَجَلَّ بِهِ أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، فَحُبِّبَتْ إِلى النُّفُوسِ، وَهَانَتْ عَلَيْهَا الرِّحْلاتُ فِي سَبِيْلِهَا، وَالإِنْفَاقُ فِي مَصْلَحَتِهَا، وَرُكُوبُ الْبِحَارِ، وَالتَّحْلِيقُ فِي الأَجْوَاءِ، وَتَجَشُّمُ الْمَصَاعِبِ، مَعَ تَنَافُسٍ وَتَسَابُقٍ، وَعُلُوِّ هِمَّةٍ وَقُوَّةِ نَفسٍ، وَبُعْدِ نَظَرٍ فِي إِقَامَةِ هَذَا الرُّكْنِ، وَإِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ؛ وَكَانَ لِلدَّعْوَةِ نَفَاقٌ وَرَوَاجٌ، وذُيُوعٌ وشُيُوعٌ، لَمْ يُشَاهَدْ مِنْ عَهدٍ بَعِيْدٍ [٢] .

فَبَدَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِدَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ فِي سَبِيْلِ اللهِ وَجَلَّ عَلَى شَكْلِ جَمَاعَاتٍ، لِأَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، لِإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ مِنْ صِفَاتِهِم، وَذَلِكَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِيْئَاتِ الْفَسَادِ وَالْغَفْلَةِ إِلى بِيْئَةِ الإِصْلَاحِ وَالذِّكْرِ، مَعَ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ، والجُهْدِ عَلَى الخَارِجِينَ أَنْفِسِهِمْ، بِتَعْلِيقِ قُلُوبِهِم بِاللهِ

---

(١) هو العلَّامةُ الدَّاعيةُ الشَّيخُ محمَّد إلياس الكاندهلويُّ (١٣٠٣هـ - ١٣٦٣هـ). ينتمي إلى أسرة كريمة عريقة في العلم والدِّين، ينتهي نسبها إلى سيِّدنا أبي بكر الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تعلَّم الشَّيخُ محمد إلياس في الكُتَّاب، وقرأ القرآن الكريم، كعادة الأطفال في أسرته، ثمَّ حفظ القرآن في صِبَاهُ، وكان تحفيظ القرآن عرفاً مُتَّبعاً في الأسرة؛ سَمِعَ الشيخُ في بداية شبابه جامعَ التِّرمذيِّ وصحيحَ البخاريِّ، وبعد ذلك بأعوام أتمَّ دراسة الحديث وقرأ بقيَّة الصِّحاح الستَّةِ على أخيه الشَّيخ محمد يحيى .. وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من خيرة العلماء الأجلَّاء، فكان يقوم بتدريس النَّحو والصَّرف والأدب والبلاغة والفقه والتفسير مع الصِّحاح الستَّة وشرح معاني الآثار ومستدرك الحاكم في فترة واحدة، وقالوا عنه رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه كان مُستَعِدًّا للتَّدريس طوالَ الوقت بلا انقطاع. وقال العلَّامة أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ : أَكْثَرُ مَنْ تَأَثَّرْتُ بِهِ هُوَ إِمَامُ الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ الشَّيخُ مُحَمَّد إِلْيَاسَ الكَانْدَهْلَوِيُّ، **كَأَنَّ الرَّجُلَ مَأْمُورٌ مِنَ اللهِ**، لَا أَقُولُ عِنْ طَرِيقِ الرِّسَالَةِ أَوِ الوَحْيِ، ولَكِنَّهُ كَانَ مُقَيَّضاً لِهَذَا الأَمْرِ، وقَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَيهِ هَذِهِ الفِكْرَةُ حَتَّى ذَابَ فِيهَا، ودَعَا إِلَى الاِتِّصَالِ بالشَّعبِ اتِّصَالاً مُبَاشِراً، وتَوجِيهِ الدَّعوَةِ إِليهِ، ولَفْتِ نَظَرِهِ، واسْتِقطَابِهِ إِلى رسالة اللهِ تبارك وتعالى، والعَمَلِ بالإِسْلامِ وبشَرِيعَتِهِ وبِأَحكَامِهِ؛ وانتشرت هذه الدَّعوةُ لا في الهند فقط، ولكن في القارَّة الآسيويَّة، ثم انتقلت إلى أوروبا وأمريكا، ولا تزال هذه الدَّعوةُ قَائِمَةً، وهي من أَكْثَرِ الدَّعَوَاتِ تَأْثِيراً وإِنْتَاجاً. وُلِدَ له العلَّامَةُ الدَاعِيَةُ مُحَمَّد يُوسُف، والَّذِي أَلَّفَ كتابَه العظيمَ النَّفع «حياة الصحابة»، وقام بأعباء هذه الدَّعوة المباركة بعد وفاة والده. مختصر من كتاب «الداعية الكبير محمد إلياس ودعوته الدينية» لأبي الحسن الندوي.

(٢) مقدمة أبي الحسن الندوي لكتاب «فضائل الدعوة إلى الله» للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

www.saida-islam.weebly.com

وَحْدَهُ دُوْنَ الْتِفَاتٍ إِلَى مَا سِوَاهُ، وتَوْجِيهِهَا لِطَلَبِ الدَّارِ الآخِرَةِ، والإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا وزَخَارِفِهَا، والإِقْبَالِ عَلَى ذَلِكَ بِالقِيَامِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ عَلَى حَقِيقَتِهَا بِالاِهْتِمَامِ؛ مَعَ الصَّبْرِ عَلَيهِمْ، والتَّلَطُّفِ بِهِم، وحُسْنِ سِيَاسَتِهِم وتَرْبِيَتِهِم لِلْوُصُولِ بِهِمْ إِلَى الْمَقْصُودِ .

فَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ فِي القُطْبِ الأَعْظَمِ فِي الدِّينِ، الَّذِينَ بَشَّرَ بِهِمُ الصَادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ؛ حَيثُ كَانَ لَهُ الحَظُّ الوَافِرُ العَظِيمُ مِنْ إِحْيَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ الدَّاثِرَةِ الْمَتْرُوكَةِ، وَإِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَى تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ إِقَامَةِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ فِي العَالَمِ كُلِّهِ .

وفِي أَمْثَالِهِ يَقُولُ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِهِ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ : إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هو القُطْبُ الأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وهُوَ الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ النَّبِيِّيْنَ أَجْمَعِيْنَ، وَلَوْ طُوِيَ بِسَاطُهُ وأُهْمِلَ عِلْمُهُ وعَمَلُهُ، لَتَعَطَّلَتِ النُّبُوَّةُ، وَاضْمَحَلَّتِ الدِّيَانَةُ، وعَمَّتِ الفَتْرَةُ، وفَشَتِ الضَّلالَةُ، وشَاعَتِ الْجَهَالَةُ، وَاسْتَشْرَى الفَسَادُ، واتَّسَعَ الْخَرْقُ، وخَرِبَتِ البلادُ، وهَلَكَ العِبَادُ، ولَمْ يَشْعُرُوا بِالهَلاكِ إِلاَّ يَوْمَ التَّنَادِ، وقَدْ كَانَ الَّذِي خِفْنَا أَنْ يكونَ، فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، إِذْ قَدِ انْدَرَسَ مِنْ هَذَا القُطْبِ عَمَلُهُ وعِلْمُهُ، وَانْمَحَقَ بِالْكُلِّيَّةِ حَقِيقَتُهُ ورَسْمُهُ؛ فَاسْتَوْلَتْ عَلَى القُلُوبِ مُدَاهَنَةُ الخَلْقِ، وَانْمَحَتْ عَنهَا مُرَاقَبَةُ الخَالِقِ، وَاسْتَرْسَلَ النَّاسُ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ اسْتِرْسَالَ الْبَهَائِمِ، وعَزَّ عَلَى بِسَاطِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ صَادِقٌ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَومَةُ لَائِمٍ؛ **فَمَنْ سَعَى فِي تَلَافِي هَذِهِ الفَتْرَةِ، وسَدِّ هَذِهِ الثُّلْمَةِ، إِمَّا مُتَكَفِّلاً بِعَمَلِهَا، أَوْ مُتَقَلِّداً لِتَنْفِيذِهَا، مُجَدِّداً لِهَذِهِ السُّنَّةِ الدَّاثِرَةِ، نَاهِضاً بِأَعْبَائِهَا، وَمُتَشَمِّراً فِي إِحْيَائِهَا، كَانَ مُسْتَأْثِراً مِنْ بَيْنِ الخَلْقِ بِإِحْيَاءِ سُنَّةٍ أَفْضَى الزَّمَانُ إِلَى إِمَاتَتِهَا، وَمُسْتَبِدّاً بِقُرْبَةٍ تَتَضَاءَلُ دَرَجَاتُ القُرَبِ دُونَ ذِرْوَتِهَا** [(١)] .

إِنَّ مَنْصِبَ التَّجْدِيدِ وَالبَعْثِ الجَدِيدِ يَتَطَلَّبُ لَا مَحَالَةَ زُهْداً وَتَرَفُّعاً عَنِ الْمَطَامِعِ وَسَفَاسِفِ الأُمُورِ، وَيَأْبَى الِانْدِفَاعَ إِلَى التَّيَّارَاتِ، وَيَتَنَافَى مَعَ الحَيَاةِ الوَادِعَةِ الرَّخِيَّةِ، وَالعِيشَةِ البَاذِخَةِ الثَّرِيَّةِ، إِنَّمَا هُوَ خِلَافَةٌ لِلرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ**

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٣٠٦) .

www.saida-islam.weebly.com

﴿ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه:١٣١]؛ وَأُمِرَ بِأَنْ يَقُولَ لِأَزْوَاجِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب:٢٨]؛ وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِيمَنْ يَخْتَارُهُ لِهَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ، وَمَنْ يُرَشِّحُ نَفْسَهُ وَيُمَنِّيهَا بِهَذَا الْمَنْصِبِ الخَطِيرِ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً.

وَمِنْ أَبْرَزِ سِمَاتِ الدَّعْوَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ وَخُلَفَاؤُهُمْ أَنَّهَا تَقُومُ عَلَى الإِيْمَانِ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ عِقَابِهِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي نَعْمَائِهِ وَثَوَابِهِ؛ وَيَكُونُ مَنَاطَ العَمَلِ فِيهَا الإِيْمَانُ وَالِاحْتِسَابُ، وَالآخِرَةُ وَالثَّوَابُ، لَا عَلَى الإِغْرَاءِ بِالفَوَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالجَاهِ وَالْمَنْصِبِ، وَالْمَالِ وَالْمُلْكِ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسٌ ضَعِيفٌ مُنْهَارٌ، وَلَا يَتَّفِقُ مَعَ طَبِيعَةِ دَعَوَاتِ الأَنْبِيَاءِ؛ وَالْمُسَاوَمَةُ فِيهِ سَهْلَةٌ؛ وَقَدْ يَمْلِكُ أَعْدَاؤُهُمْ وَخُصُومُهُم وَالقَادَةُ السِّيَاسِيُّونَ مِثْلَهُ أَوْ أَكْثَرَ مِنهُ، «وَمَنْ رَضَعَ بِلِبَانِ هَذِهِ الْمَطَامِعِ، لَمْ يُمْكِنْ فِطَامُهُ عَنهَا»؛ وَلَا يَصِحُّ الِاعْتِمَادُ عَلَيهِ؛ وَإِنَّمَا يَبْنُونَ دَعْوَتَهُم عَلَى رِضَى اللهِ وَثَوَابِهِ، وَمَا أَعَدَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا وَعَدَهُم بِهِ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَاءِهِ، مِنْ نَعِيمٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ .. وَقَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ صَرِيحاً : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] [(١)] .

❖❖❖❖❖

(١) من كلمة أبي الحسن الندوي في «المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة» . صفحة (٧٥) وما بعدها، بتصرف يسير .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

الوَسِيلَةُ الَّتِي فَتَحَ اللهُ ﷻ بِهَا عَلَى الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ فِي إِحْيَاءِ جُهْدِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَتَجْدِيدِهِ :

لَقَدِ اعْتَقَدَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ بِأَنَّ الهِجْرَةَ وَتَرْكَ الوَطَنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالخُرُوجَ لِنَشْرِ الدِّينِ أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ أَمْرٌ تَرَكَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَلَزِمَ عَلَى الجَمِيعِ إِحْيَاؤُهُ. فَيَقُولُ : «لَقَدْ تَقَاعَسَ النَّاسُ وَابْتَعَدُوا عَنِ العَمَلِ وَالفِكْرِ فِي طَلَبِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ، وَالخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَلَا نَجِدُ أُمَّةً تَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِ اللهِ، امْتِثَالاً لِأَمْرِ اللهِ، فِي قَولِهِ ﷻ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. فَمَاذَا نَفْعَلُ ؟» .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيخَ مُحَمَّدَ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ قَامَ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى القِيَامِ بِالخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِإِصْلَاحِ النَّفْسِ، وَإِصْلَاحِ الآخَرِينَ؛ حَيثُ يُؤَكِّدُ أَنَّ الإِبْلَاغَ الْمُتَوَقِّفَ عَلَى مَنْ يَأْتُونَ إِلَى الْمُبَلِّغِ لَيسَ كَافِياً، لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُ قُدُومَ النَّاسِ إِلَيهِ، بَلْ كَانَ ﷺ يَذْهَبُ إِلَيهِم، كَيْ يَدْعُوَهُم إِلَى الحَقِّ، حَتَّى إِنَّهُ ﷺ ذَهَبَ إِلَى الطَّائِفِ لِأَدَاءِ وَاجِبِهِ فِي إِبْلَاغِ الدَّعْوَةِ، وفِي أَيَّامِ الحَجِّ كَانَ يَلْتَقِي بِالقَبَائِلِ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُم وَيَتَحَمَّلُ؛ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً فِي لِقَائِهِ بِوَفْدِ يَثْرِبَ، الَّذِينَ انْتَقَلَتْ إِلَيهِم دَعْوَةُ الإِسْلَامِ، وَحَمَلُوهَا عَلَى أَكْتَافِهِم؛ وَبَعدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ حَيثُ عَادَ الأَمْنُ وَالسَّلَامُ فِي الْمِنْطَقَةِ، وَبَدَأَتْ سِلْسِلَةُ سُفَرَاءِ الإِسْلَامِ، لِإِبْلَاغِ دَعْوَةِ الحَقِّ إِلَى أَرْجَاءِ العَالَمِ كُلِّهِ، حَيثُ تَأْتِي البِلَادُ الْمُجَاوِرَةُ ضِمْنَ مَرْحَلَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ لِإِبْلَاغِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى مِصْرَ وَفَارِسَ، وَرُؤَسَاءِ عُمَانَ وَالبَحْرَينِ، وَاليَمَنِ وَحُدُودِ الشَّامِ، كَمَا ذَهَبَ أَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى مُخْتَلِفِ القَبَائِلِ وَالأَقَالِيمِ، لِإِبْلَاغِ دَعْوَةِ الإِسْلَامِ .

فَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الوَاجِبَ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَذْهَبَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى النَّاسِ، لِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ الحَقِّ؛ وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ إِعْدَادَ جَمَاعَةٍ لِلقِيَامِ بِهَذَا العَمَلِ، وَبِهَذَا النَّهجِ، هُوَ أَحَدُ أَعْظَمِ مُتَطَلَّبَاتِ الإِسْلَامِ؛ فَالتَّعلِيمُ يَقْتَضِي الصُّحْبَةَ لِاكْتِسَابِ الصِّفَاتِ وَالأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ، وَذِكْرَ

www.saida-islam.weebly.com

الأَحْكَامِ وَالْمَسَائِلِ، ثُمَّ الْمُذَاكَرَةَ وَالتَّكْرَارَ، وَالتَّسَاؤُلَ، وَالإِفْهَامَ وَالتَّفْهِيمَ؛ وَكُلُّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّفَرُّغِ، وَاخْتِيَارِ الصُّحْبَةِ، وَالخُرُوجِ، وَهَذَا أَقْصَرُ الطُّرُقِ لِعُمُومِيَّةِ التَّعْلِيمِ، كَمَا هُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ الَّتِي اخْتِيرَتْ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ [١] .

لَقَدِ اعْتَقَدَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ كَانُوا يَقُومُونَ بِالجُهْدِ لِإِصْلَاحِ أَقْوَامِهِم، ثُمَّ يَأْتِي الأَنْبِيَاءُ الآخَرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَفْسِ الغَايَةِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى إِرْسَالِ البِعْثَاتِ فِي أَنْحَاءِ البِلَادِ، وَيَرْجِعُ سَبَبُ ذَلِكَ إِلَى أَمْرَينِ، هُمَا : عَدَمُ انْقِطَاعِ سِلْسِلَةِ النُّبُوَّةِ، وَبَعْثُ كُلِّ نَبِيٍّ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً؛ حَتَّى بَعَثَ اللهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ مُحَمَّداً ﷺ، وَالَّذِي امْتَازَ بِإِرْسَالِ الدُّعَاةِ، أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، حَتَّى تَسْتَعِدَّ الأُمَّةُ بِأَكْمَلِهَا لِحَمْلِ مَسْؤُولِيَّةِ الدَّعْوَةِ، بِصِفَةٍ عَالَمِيَّةٍ وَأَبَدِيَّةٍ؛ وَإِنَّنَا اليَومَ بِحَاجَةٍ إِلَى إِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ؛ وَهَذَا العَمَلُ هُوَ الَّذِي نَقُولُ عِنهُ : «جَوْهَرَةُ القَرْنِ الأَوَّلِ»، أَيِ العَمَلُ الأَسَاسِيُّ، وَخُلَاصَةُ الأَعْمَالِ[٢]؛ وَتَتَلَخَّصُ هَذِهِ الوَسِيلَةُ بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ :

أَوَّلاً : التَّفَرُّغُ الْمُؤَقَّتُ :

لَقَدْ تَأَكَّدَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ بَعْدَ دِرَاسَةٍ طَوِيلَةٍ، بِأَنّ الإِصْلَاحَ الشَّامِلَ لاَ يَتَحَقّقُ إِلَّا إِذَا تَحَاشَى الإِنْسَانُ مَشَاغِلَهُ المَادّيّةَ مِنْ حَيَاتِه بِصِفَةٍ مُؤَقّتَةٍ، وتَفَرَّغَ تَفَرُّغاً كَامِلاً – وَلَوْ لِمُدّةٍ قَصِيرَةٍ – لِتَعَلُّمِ الأُسُسِ الدّينِيّةِ، أَوْ لِإِكْمَالِهَا فِي حَيَاتِه، فَجَعَلَ التَفَرُّغَ أَوَّلَ وَأَهَمَّ وَسِيلَةٍ لِلوُصُولِ إِلَى المَنْشُودِ .

يَقُولُ العَلَّامَةُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَقَدْ رَأَى مَولاَنَا مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَوَّلَ سَبَبٍ لِاغْتِرَابِ المُسلِمِينَ عَنْ دِينِهِم هُوَ الاِشْتِغَالُ الزّائِدُ بِالحَيَاةِ، وَالاِنْهِمَاكُ بِالمَادَّةِ؛ كَمَا

---

(١) «منهج الدعوة إلى الله لعبد الخالق بيرزاده» ص (٢٦) بتصرف يسير.

(٢) «الدعوة والتبليغ مسؤولية المسلمين في العالم للدكتور خالد ميتا» (٣١٥) . وهو كتابٌ قيِّمٌ في بابه، ينصح بالرجوع إليه لمن أراد مزيداً من المعرفة النظرية عن هذا العمل المبارك؛ أمَّا المعرفة العمليَّة الحقيقية فلا بدَّ لمعرفتها من النُّزول إلى الميدان الدَّعويِّ، والخروج في سبيل الله مع الجماعات .

www.saida-islam.weebly.com

رَأَى أَنّ التّعْلِيمَ وَحْدَهُ لاَ يَكْفِي، وَالِاعْتِزَالَ لاَ يُفِيدُ، وَالِانْزِوَاءَ لاَ يَصِحُّ، وَلاَ بُدَّ مِنَ الِاتِّصَالِ بِطَبَقَاتِ الشَّعْبِ؛ وَدَعَا النَّاسَ فِيهَا إِلَى الِانْقِطَاعِ عَنْ أَشْغَالِهِم، وَالخُرُوجِ مِنْ أَوْطَانِهِم لِمُدَّةٍ مَحْدُودَةٍ، قَدْ تَكُونُ شَهْراً، وَقَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَعَرَفَ أَنّهُم لاَ يَتَعَلّمُونَ الدّينَ، وَلاَ يَتَغَيَّرُونَ فِي الأَخْلاَقِ إِلَّا إِذَا خَرَجُوا مِنْ هَذَا المُحِيطِ الفَاسِدِ الّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ [١] .

وَيَشْرَحُ الشَّيخُ النَّدَوِيُّ مَوقِفَ الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَيَقُولُ : لَقَدْ أَكَّدَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ أَنّ المَدَارِسَ العَرَبِيّةَ (الدّينِيّةَ) هِيَ أَسَاسُ العُلُومِ النّبَوِيّةِ وَلَا رَيْبَ، وَهِيَ لِتَكْمِيلِ العُلُومِ الَّتِي يَصِلُ بِهَا الطّالِبُ إِلَى مَرْحَلَةِ التّخَصُّصِ فِي العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ، وَلَكِنْ لاَ يَجِبُ عَلَى كُلّ مُسلِمٍ الحُصُولُ عَلَى تِلْكَ الدّرَجَاتِ العَالِيَةِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ لَهُم جَمِيعًا ذَلِكَ، وَأَنّ الصّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دُونَ أَصْحَابِ الصُّفّةِ، كَانُوا مُشْتَغِلِينَ بِأُمُورِ الأُسْرَةِ، كَمَا كَانُوا تُجّارًا وَزُرّاعاً وَأَصْحَابَ حِرَفٍ؛ حَيثُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَدْرَسَةٌ دِينِيّةٌ مُسْتَقِلّةٌ فِي المَدِينَةِ المُنَوّرَةِ، وَإِنْ وُجِدَتْ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَيُّ شَخصٍ أَنْ يَلْتَحِقَ بِهَا كَطَالِبِ عِلْمٍ، وَيَسْتَمِرّ فِي طَلَبِ العُلُومِ سِنِينَ طَوِيلَةً حَتّى يَتَخَرّجَ، وَكُلُّنَا نَعْرِفُ أَنّهُم قَدْ عَرَفُوا الدّينَ وَأَحْكَامَهُ الأَسَاسِيّةَ لَهُ: مِنَ الوَاجِبَاتِ وَالمَسَائِلِ وَالفَضَائِلِ، فَمِنْ أَيْنَ حَصَّلُوا هَذَا العِلْمَ ؟!

لَا شَكَّ أَنَّ كُلّ هَذَا لَمْ يَتَحَقّقْ إِلَّا بِالتَّفَرُّغِ الوَقْتِيّ لِلحُصُولِ عَلَى تِلْكَ الأُمُورِ؛ وَلِذَا أَكَّدَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذَا المَنْشُودَ لَنْ يَتَحَقّقَ إِلَّا بِالقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّفَرُّغِ المُؤَقَّتِ مِنَ الأَشْغَالِ المَادِّيَّةِ، طَالِباً مِنَ النّاسِ زَكَاةَ الوَقْتِ لِلدِّينِ، كَزَكَاةِ المَالِ، مُوَجّهاً إِيَّاهُمْ بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التّغْيِيرُ المَنْشُودُ فِي وَسَطِ هَذَا المُنَاخِ الْمَادِّيِّ، الَّذِي يَسُودُهُ طَلَبُ المَالِ؛ حَيثُ إِنّ المَالَ وَكَسْبَهُ يَقْتَضِي صَرْفَ الهِمّةِ عَنْ كُلّ مَا يَكُونُ سِوَى المَادّةِ، فَيَصْعُبُ عَلَى الزُّرّاعِ وَالتُّجّارِ وَأَهْلِ المِهَنِ الحُصُولُ عَلَى أَسَاسِ الدّينِ مِنَ المَسَائِلِ وَالأَحْكَامِ، حَتّى إِنْ كَانَ عِنْدَهُمُ الِاسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ، لِأَنّ طَلَبَ الدّينِ كَذَلِكَ يَقْتَضِي التَّفَرُّغَ وَالِاهْتِمَامَ الكَامِلَ، وَلَوْ كَانَ مُؤَقّتاً؛ فَمِنْ هَذَا الوَاقِعِ الحَاضِرِ نَرَى أَنّ هَذَا المُنَاخَ لاَ يَصْلُحُ

---

(١) «الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها» ص (٣٩) .

www.saida-islam.weebly.com

لِلتَّغْيِيرِ الأَسَاسِيِّ فِي العَقَائِدِ وَالأَعْمَالِ وَالمَسَائِلِ وَالأَحْكَامِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُمْكِناً عَقْلِيّاً، لَكِنَّ التَّجْرِبَةَ تَرْفُضُهُ.

فَالعِلاَجُ الوَحِيدُ لِهَذَا هُوَ إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ هَذَا الجُمُودِ المَيِّتِ، وَإِدْخَالُهُم فِي المُنَاخِ الحَيِّ النَّشِطِ، حَتَّى يَتَحَرَّرُوا مِنَ المُؤَثِّرَاتِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا طَوَالَ الحَيَاةِ، وَيَتَفَرَّغُوا مِنْ تِلْكَ المَشَاغِلِ لِبِضْعَةِ أَيَّامٍ – فِي المَرْحَلَةِ الأُولَى لِلدَّعْوَةِ – حَتَّى تَنْشَطَ قُوَّةُ الإِرَادَةِ وَالعَزِيمَةِ، الَّتِي ضَعُفَتْ نَتِيجَةَ المَشَاغِلِ العَدِيدَةِ، وَالَّتِي أَدَّتْ بِهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالهَزِيمَةِ وَالِانْهِيَارِ الفِكْرِيِّ، فَيَسْتَيْقِظَ الطَّلَبُ، وَيَمْلَأَ قُلُوبَ النَّاسِ الإِحْسَاسُ الصَّادِقُ، وَتَتَوَلَّدَ فِيهِمُ الهِمَّةُ لِطَلَبِ الدِّينِ مِنْ جَدِيدٍ [١] .

وفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا يُغْتَرَّ بِاعْتِقَادِ أَنَّ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ بِمَا ذَكَرْنَا كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَقْصُودِ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُضِيْفَ إِلَيْهِ بَذْلَ الجُهْدِ فِي اسْتِعْمَالِهِ وَاسْتِفْرَاغَ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ فِيهِ؛ وَمِلاكُ ذَلِكَ الخُرُوجُ عَنِ الْعَوَائِدِ، فَإِنَّهَا أَعْدَاءُ الْكَمَالِ وَالْفَلاحِ، فَلَا أَفْلَحَ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى عَوَائِدِهِ أَبَداً؛ وَيَسْتَعِينُ عَلَى الخُرُوجِ عَنِ العَوَائِدِ بِالهَرَبِ عَنْ مَظَانِّ الْفِتْنَةِ وَالْبُعْدِ مِنْهَا [٢].

فَلِهَذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الجُهْدِ لِتَكْوِينِ الْبِيْئَةِ الَّتِي تَصْلُحُ لِتَعَلُّمِ الإِيْمَانِ والأَحْكَامِ، لأَنَّ بِيئَةَ الدُّنيَا تَزِيدُ الإِنْسَانَ تَعَلُّقاً بِالْمَخْلُوقِ وَاعْتِنَاءً بِأَسْبَابِ التَّرَقِّي فِيهَا؛ فَلا تَصْلُحُ لإِصْلاحِ إِيْمَانِ العَبْدِ مَعَ فَسَادِهَا؛ وذَلِكَ اقْتِدَاءً بالنَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا كَوَّنَ البِيْئَةَ الإِيْمَانِيَّةَ فِي مَكَّةَ فِي دَارِ الأَرْقَمِ ابْنِ أَبِي الأَرْقَمِ، وَهَاجَرَ إِلى الْمَدِينَةِ لِتَكْوِينِ الْبِيْئَةِ الَّتِي يُحْفَظُ فِيهَا الإِيْمَانُ ويَزْدَادُ، وَمِنهَا يَنْتَشِرُ؛ وَالأُمَّةُ فِي هَذَا كَذَلِكَ، تَجْتَهِدُ لِتَكْوِينِ هَذِهِ البِيْئَةِ وتَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ فِي صَلَاحِ القُلُوبِ وتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وكَمَا أَنَّ النَّاسَ تَتَأَثَّرُ طَبِيعَةُ أَبْدَانِهِم مِنَ الأَحْوَالِ، كَالْبَرْدِ وَالحَرِّ، كَذَلِكَ تَتَأَثَّرُ أَرْوَاحُهُم وقُلُوبُهُم مِنْ بِيئَةِ الْفَسَادِ وَبِيئَةِ الإِصْلاحِ .

---

(١) « مولانا محمد إلياس ودعوته الدينية» ص (١٢٥) وما بعدها .

(٢) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ص (١١٣) .

www.saida-islam.weebly.com

ثانياً : صُحبَةُ الصَّالِحِينَ :

إنَّ صُحْبَةَ الصَّالحين وَسيلَةٌ رَئيسيّةٌ لمَنْهَجِ الشَّيخ مُحَمَّد إلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ في الدَّعْوَةِ، حَتَّى يَأْتِيَ هَذَا التَّفَرُّغُ بالنَّتَائجِ المَرْجُوّة منهُ؛ فَلذَا قَرَّرَ الشَّيخُ بأَنْ يُصَاحبَ الخَارجُ في سَبيلِ اللهِ أَهْلَ العلْمِ وَالعَمَلِ، وَخَاصَّةً الَّذِينَ تَفَرَّغُوا وَخَرَجُوا لنَفْسِ الهَدَف، لِأَنَّهُ سَيجدُ فيهِمُ المُعَلّمينَ المُتَخَصّصينَ في تَعْليمِ المَبَادِىءِ الأَسَاسيّة لِلدِّينِ الحَنيف.

وَلَوْ نَظَرْنَا بعَينٍ فَاحصَةٍ إلَى المَنْهَجِ العَمَلِيِّ الَّذِي رَتّبَهُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ لهؤُلاَء الطّالبينَ (المُتَفَرّغينَ) لهَذَا الهَدَف، لَوَجَدْنَاهُ يحْتَوي عَلَى كُلِّ مَا تَتَطَلّبُهُ التّرْبيَةُ، وَيَحْتَاجُهُ التّعْليمُ الأَسَاسِيُّ للإنْسَانِ المُسْلِم، كَيْ يَشْعُرَ بأَنّهُ يَعيشُ خِلاَلَ هَذه الفَتْرَة في جَوٍّ مَليءٍ بنظَامِ الشّريعَة المُطَهّرَة، وَيَكُونَ مُتَمَثّلاً لصُورَة حَيَاة الصّحَابَة، كَمَا يَرَى في المُصَاحبينَ لَهُ الرّغْبَةَ في طَلَبِ الدّين، وَالتّعْليمِ وَالتّعَلُّم، وَالخدْمَة وَالصُّحْبَةِ الصّالحَة، وَالتّدْريبِ المُبَاشرِ عَلَى مَعْرفَة الأَحْكَام، وَيَجدَ جوّاً مَليئاً بتلاَوَة القُرْآن وَذكْرِ اللهِ، وَالدّعْوَة وَالتّضْحيَة، وَبَذْلِ الجُهُود في سَبيلِ اللهِ، وَالاطّلاَعِ عَلَى أَحْوَالِ القَوم، وَمَعْرفَة مَا آلَ إلَيه أَفْرَادُ الأُمَّةِ بسَبَبِ الاغْترَاب عَنِ الدّين، كَمَا يَتَعَوّدُ عَلَى تَحَمُّلِ المَشَاقِّ وَالشّدَائد، الَّتِي تُؤَدِّي به إلى ازْدِيَاد قُوّة مُقَاوَمَته لأَهْوَاءِ النّفْس، وَالرّغْبَة في اتّبَاعِ أَوَامرِ اللهِ في جَميعِ شُؤُونه المَادّيَّةِ وَالمَعْنَويَّةِ .

وَقَدْ رَكّزَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ في إعْدَاد وَتَقْديمِ هَذَا النّظَامِ عَلَى تَهْيئَة جَوٍّ يُشَابهُ الجَوَّ الَّذِي كَانَ يَسُودُ المَدينَةَ المُنَوّرَةَ بَعدَ الهجْرَة، حَيثُ كَانَ المُسلمُ الجَديدُ يَجدُ فيهَا صُوَراً حَيّةً للحَيَاة الإسْلاَميّة، وَلذَا كَانَت الدّعْوَةُ لجَميعِ المُسْلمينَ الجُدُد منَ العَرَب : أَنْ يَشُدُّوا رحَالَهُم إلَى المَدينَة، كَيْ يَمْكُثُوا فيهَا لبضْعَة أيّام، فَيَتَعَلّمُوا مَبَادِىءَ الدِّين، بجَانب التّدْريب العَمَلِيِّ المُبَاشرِ، ممّنْ أَسْلَمُوا وَتَعَلّمُوا قَبلَهُم، ثُمّ يَرْجعُوا إلَى قَبَائلهم، وَيُعَلّمُوهُم كُلّ مَا تَعَلّمُوهُ في المَدينَة .

وَكَانَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ يُوَضّحُ ذَلكَ قَائلاً : إنَّنَا قَدْ تَوَرَّطْنَا في المَادّيَّات، وَوَقَعْنَا فَريسَةً لحَبَائلهَا، فَابْتَعَدْنَا عَنِ الاسْتفَادَة مِنْ طَبَائعِ النَّاسِ بَعْضهم مِنْ بَعْضٍ – أَي

www.saida-islam.weebly.com

الِاسْتِفَادَةِ بِالأَسَالِيبِ الفِطْرِيَّةِ، نَتِيجَةَ الْمُصَاحَبَةِ لِلصَّالِحِينَ، وَالأَخْذِ مِنْ طَبَائِعِهِم وَصِفَاتِهِمُ الطَّيِّبَةِ -؛ كَمَا انْدَثَرَتِ الصُّورَةُ الأَصْلِيَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا التَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ، بِبَذْلِ الجُهُودِ المِثَالِيَّةِ، وَكَدِّ النَّفْسِ، وَعَرَقِ الجَبِينِ، وَالتَّضْحِيَةِ لِنَشْرِهَا، وَقَدْ بَقِيَتِ الِاسْتِفَادَةُ مَحْصُورَةً عَلَى اللِّسَانِ، كَوَسِيلَةٍ وَحِيدَةٍ فِي هَذَا المَجَالِ [١]. وَقَالَ الشَّيْخُ إِلْيَاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ العَامَّةَ، الَّتِي نُرِيدُ أَنْ نُعَلِّمَهَا هِيَ : الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَتْ سَارِيَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَبِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ كَانَ تَعَلُّمُ الدِّينِ وَتَعْلِيمُهُ؛ وَالطُّرُقُ الأُخْرَى الَّتِي جَرَتْ بَعْدَهَا : مِثْلَ التَّأْلِيفِ وَتَعْلِيمِ الكُتُبِ وَغَيرِهَا إِنَّمَا أَحْدَثَتْهَا الحَاجَةُ - وَهِيَ مُهِمَّةٌ -؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ ظَنُّوا أَنَّهَا هِيَ الأَصْلُ، وَنَسُوا طَرِيقَةَ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الأَصْلِيَّةُ، وَأَنَّ التَّرْبِيَةَ وَالتَّعْلِيمَ بِحَيثُ تُحْصِي وَتَشْمَلُ العَامَّةَ، لَا تَتَمَكَّنُ إِلَّا بِنَفْسِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ [٢] .

فَالصُّحْبَةُ تُؤَثِّرُ عَلَى الإِنْسَانِ بِاكْتِسَابِ صِفَاتِ الْمُصَاحَبِ، لأَنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ؛ وَبِالْمُجَالَسَةِ تَحْصُلُ الْمُجَانَسَةُ وَالْمُؤَانَسَةُ، وَلَوِ اخْتَلَفَ جِنسُ الجَلِيسِ، كَمَا قَالَ ﷺ : **"الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ "**[٣]؛ فَإِذَا كَانَتْ مُجَالَسَةُ الْغَنَمِ وَالإِبِلِ وَالخَيْلِ تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ، بِالاِكْتِسَابِ مِنْ صِفَاتِهَا مَعَ انْعِدَامِ التَّجَانُسِ بَينَهُ وَبَيْنَهَا، فَلَئَنْ تُؤَثِّرَ مُصَاحَبَتُهُ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَجَانُسٌ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى .

وَقَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا الْحَرِيصُ عَلَى الدُّنْيَا فَصُحْبَتُهُ سُمٌّ قَاتِلٌ، لأَنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّشَبُّهِ وَالاِقْتِدَاءِ، بَلِ الطَّبْعُ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ مِنْ حَيثُ لَا يَدْرِي صَاحِبُهُ، فَمُجَالَسَةُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا تُحَرِّكُ الْحِرْصَ، وَمُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ تُكْرَهُ صُحْبَةُ طُلاَّبِ الدُّنْيَا، وَتُسْتَحَبُّ صُحْبَةُ الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ؛ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **أَحْيُوا الطَّاعَاتِ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ** [٤].

---

(١) «الدعوة والتبليغ مسؤولية المسلمين في العالم » (٣١٣) وما بعدها .

(٢) «ملفوظات الشيخ إلياس» جمع وترتيب محمد منظور النعماني . ص (٧٤) .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٤٩٩) ومسلم برقم (١٩٦) .

(٤) «إحياء علوم الدين» (٢/٢٤٥) .

www.saida-islam.weebly.com

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضاً : فَإِنْ وَجَدْتَ جَلِيساً يُذَكِّرُكَ اللهَ رُؤْيَتُهُ وَسِيرَتُهُ، فَالْزَمْهُ وَلا تُفَارِقْهُ، وَاغْتَنِمْهُ وَلا تَسْتَحْقِرْهُ، فَإِنَّهَا غَنِيمَةُ الْعَاقِلِ وَضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ [١] .

فَالرَّجُلُ الَّذِيْ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ كَانَ يَسْعَى لِلتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ بِيْئَتَهُ فَاسِدَةٌ، وَصُحْبَتَهُ فَاسِدَةٌ، فَكُلَّمَا نَوَى التَّوْبَةَ ذَكَّرَتْهُ الْبِيْئَةُ بِأَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ، وَقَامَتِ الصُّحْبَةُ الفَاسِدَةُ بِتَذْكِيرِهِ بِأَفْعَالِهِ، فَسُرْعَانَ مَا يَرْجِعُ وَيَنْتَكِسُ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ لَهُ العَالِمُ : اجْلِسْ حَتَّى أُعَلِّمَكَ؛ لأَنَّهُ بِتَعْلِيمِهِ الإِيْمَانَ فِي بِيْئَةٍ مُخَالِفَةٍ لا يَكُونُ لَهُ إِلاَّ تَأْثِيرٌ لَحْظِيٌّ، ثُمَّ سُرْعَانَ مَا يَزُولُ أَثَرُهُ فِي بِيئَةِ الْفَسَادِ، بَلْ قَالَ لَهُ :" **انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ** "[٢]. قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : دَلَّ هَذَا عَلَى فَضْلِ التَّحَوُّلِ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي يُصِيبُ الإِنْسَانُ فِيهَا الْمَعْصِيَةَ، لِمَا يَغْلُبُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، إِمَّا لِتَذَكُّرِهِ لأَفْعَالِهِ الصَّادِرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْفِتنَةِ بِهَا، وَإِمَّا لِوُجُودِ مَنْ كَانَ يُعِيْنُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ الأَخِيرُ – أَيِ الْعَالِمُ – وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ؛ فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّائِبَ يَنبَغِي لَهُ مُفَارَقَةُ الأَحْوَالِ الَّتِي اعْتَادَهَا فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالتَّحَوُّلُ مِنهَا كُلِّهَا وَالاِشْتِغَالِ بِغَيْرِهَا [٣] .

ثَالِثاً : إِعْمَارُ الْمَسْجِدِ بِأَعْمَالِ الهِدَايَةِ :

اخْتَارَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ المَسْجِدَ مَرْكَزاً لِتَنْفِيذِ هَذَا البَرْنَامَجِ العَمَلِيِّ لإِصْلاَحِ المُسْلِمِينَ، فَتَوَجَّهَ إِلَى عِمَارَةِ المَسَاجِدِ الَّتِي أُغْلِقَتْ أَبْوَابُهَا فِي البِلاَدِ، كَمَا قَامَ بِتَعْمِيرِ مَسَاجِدَ فِي المَنَاطِقِ الَّتِي لَمْ تُبْنَ فِيهَا المَسَاجِدُ، كَمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى التَّمَرْكُزِ فِي هَذِهِ المَعَاقِلِ الأَصْلِيَّةِ لِلإِسْلاَمِ، لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الجَوَامِعَ الإِسْلاَمِيَّةَ لَيسَتْ أَمْكِنَةً لِلعِبَادَةِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّهَا مَرَاكِزُ وَمَعَاهِدُ لِعُلُومِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ عَلَى السَّوَاءِ، مِثْلَمَا كَانَ مَسْجِدُ نَبِيِّنَا ﷺ فِي المَدِينَةِ مَدْرَسَةً عَامَّةً لِسَائِرِ المُسْلِمِينَ، وَمِنْ ثَمَّ بَنَى النَّبِيُّ ﷺ فِي مُؤَخِّرَةِ مَسْجِدِهِ مَكَاناً يَأْوِي إِلَيهِ مَنْ لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ مَالَ، وَيَتَعَلَّمُ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، وَسُمِّيَ ذَلِكَ المَكَانُ «الصُّفَّةَ» .

---

(١) «المصدر السابق» (٢/٣٢٨-٣٣٠) .

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري برقم (٣٤٧٠) ومسلم برقم (٧١٨٤) .

(٣) «فتح الباري» (٦/٦٣٣) .

www.saida-islam.weebly.com

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الِاخْتِيَارَ كَانَ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيهَا الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعدَ دِرَاسَتِه العَمِيقَةِ فِي هَذَا المَجَالِ، مُؤَكِّداً أَنَّ المَصَادِرَ الأَصْلِيَّةَ لِلإِسْلَامِ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ المَسْجِدِ، وَدَوْرِهِ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ خَالِصٍ (١) .

وَأَعْمَالُ الهِدَايَةِ الَّتِي اجْتَهَدَ الشَّيخُ إِلْيَاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِإِشْغَالِ الخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي إِقَامَتِهَا فِي الْمَسَاجِدِ، كَمَا كَانَتْ تُقَامُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ فِي زَمَانِهِ ﷺ، هِيَ أَرْبَعَةُ أَعْمَالٍ :

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ : فَقَدْ كَانَ الْمَسْجِدُ هُوَ الْمَرْكَزَ الرَّئِيسِيَّ الَّذِي تَنْطَلِقُ مِنهُ البُعُوثُ وَالسَّرَايَا وَالجَمَاعَاتُ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تُعْقَدُ فِيهِ أَلْوِيَةُ الجِهَادِ لِقَادَةِ الجُيُوشِ، الَّتِي كَانَتْ تَخْرُجُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَنَشْرِ دِينِ الإِسْلَامِ؛ كَمَا كَانَتْ تُعْقَدُ فِيهِ الشُّورَى، لِتَرْتِيبِ أُمُورِ الجُهْدِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ هَذَا الْمَقْصَدِ العَظِيمِ، الَّذِي بَعَثَ اللهُ ﷻ بِهِ هَذِهِ الأُمَّةَ .

وَالتَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ : فَقَدْ كَانَتْ تُقَامُ فِيهِ حَلْقَاتُ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ؛ مِنْ حَلْقَاتِ الإِيْمَانِيَّاتِ وَالأَحْكَامِ وَغَيرِهَا؛ وَكَانَ ﷺ يَسْتَقْبِلُ فِيهِ الوُفُودَ الَّتِي تَفِدُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، لِتَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ؛ كَمَا كَانَ يَتِمُّ فِيهِ إِعْطَاءُ الهِدَايَاتِ وَالإِرْشَادَاتِ لِلخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَتِمُّ فِيهِ أَيْضاً سَمَاعُ أَحْوَالِ الرَّاجِعِينَ مِنْهُم .

وَالعِبَادَاتُ : فَقَدْ كَانَتْ تُقَامُ فِيهِ العِبَادَاتُ بِأَنْوَاعِهَا : مِنْ صَلَاةٍ، وَذِكْرٍ، وَتِلَاوَةٍ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ، وَتَهَجُّدٍ، وَدُعَاءٍ، وَغَيرِ ذَلِكَ .

وَالخِدْمَةُ وَمَكَارِمُ الأَخْلَاقِ : فَقَدْ كَانَ الْمَسْجِدُ مَأْوَىً لِأَضْيَافِ الإِسْلَامِ، فَفِيهِ يَتِمُّ اسْتِقْبَالُهُم، وَإِيْوَاؤُهُم، وَإِكْرَامُهُم؛ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ حَالِ أَهْلِ الصُّفَّةِ، الَّذِينَ قَدِمُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَفَرَّغُوا لِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ﷻ : تَعَلُّماً وَعَمَلاً، وَتَعْلِيماً وَتَبْلِيغاً .

فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِعَادَةِ إِحْيَاءِ دَورِ الْمَسْجِدِ فِي بِنَاءِ الأُمَّةِ وَتَحْقِيقِ اجْتِمَاعِيَّتِهَا؛ وَتَفْعِيلِ دَورِهِ فِي تَربِيَةِ الأَجْيَالِ وَتَعْلِيمِهَا، وَإِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَى تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّتِهَا العُظْمَى، فِي دَعْوَةِ الأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ إِلَى دِينِ الإِسْلَامِ .

---

(١) «الدعوة والتبليغ مسؤولية المسلمين في العالم» ص (٣٠٥) .

www.saida-islam.weebly.com

رَابِعاً : بَذلُ الجُهُودِ العَمَلِيَّةِ لِتَحرِيكِ دَعَائِمِ الإِيمَانِ فِي القُلُوبِ :

إِنَّ الإِيمَانَ الَّذِي قَصَدَهُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ إِيمَانُ عَمَلٍ وَحَرَكَةٍ وَانْدِفَاعٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ تَنطَوِي عَلَى الإِيمَانِ بِاللهِ، فَهِيَ حَرَكَةٌ إِيمَانِيَّةٌ، قِوَامُهَا تَحرِيكُ المَبَادِىءِ الإِيمَانِيَّةِ فِي القُلُوبِ؛ فَلَيسَ الإِيمَانُ إِيمَانَ خُمُولٍ وَانزِوَاءٍ وَتَبَتُّلٍ وَانقِطَاعٍ، وَلَيسَ هَذَا الإِيمَانُ رَهبَانِيَّةً، كَالَّتِي ابتَدَعَهَا أَهلُ الكِتَابِ، تَدعُو إِلَى تَركِ الدُّنيَا وَهَجرِ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ رَبَّانِيَّةٌ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ . وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ : **حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ**. قَالَ : وَيُقَالُ : **الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ** (١) .

وَهَذَا الإِيمَانُ يَتَجَلَّى بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، حَتَّى تَكُونَ الدَّعْوَةُ هِيَ أَحَبَّ إِلَى المُؤمِنِ مِنْ مَالِهِ وَنَفسِهِ الَّتِي بَينَ جَنبَيهِ، فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ هِيَ الجَانِبُ العَمَلِيُّ لِلإِيمَانِ، وَالثَّمَرَةُ الفِعْلِيَّةُ، وَالنَّتِيجَةُ اللَّازِمَةُ .

وَالإِيمَانُ شَبِيهٌ بِالقُوَّةِ الكَامِنَةِ فِي الجِهَازِ المُحَرِّكِ لِلطَّائِرَةِ أَوِ السَّيَّارَةِ؛ فَقُوَّةُ المُحَرِّكِ تَظهَرُ لِلعَيَانِ بِسَبحِ الطَّائِرَةِ فِي أَجوَاءِ الفَضَاءِ، وَكَذَلِكَ قُوَّةُ الإِيمَانِ تَتَجَلَّى بِسَبحِ صَاحِبِ الإِيمَانِ فِي أَجوَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؛ فَكَمَا أَنَّ مُحَرِّكَ الطَّائِرَةِ الَّذِي لَا يَستَطِيعُ أَنْ يَنطَلِقَ بِالطَّائِرَةِ، يُحكَمُ عَلَيهِ بِأَنَّهُ قَدْ أَصَابَهُ خَلَلٌ يَسِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ، فَهَكَذَا الإِيمَانُ الَّذِي لَا يُحَرِّكُ صَاحِبَهُ لِيَدفَعَهُ إِلَى السَّيرِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ هُوَ إِيمَانٌ هَامِدٌ خَامِدٌ، قَدْ أُصِيبَ بِخَلَلٍ يَسِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ؛ وَلَكِنَّ الإِيمَانَ الَّذِي يَحمِلُ صَاحِبَهُ إِلَى سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ هُوَ إِيمَانٌ قَدِ اقتَرَنَ بِحَمْلِ رِسَالَةٍ يَعِيشُ صَاحِبُهَا مِنْ أَجلِهَا، وَيُنَاضِلُ فِي سَبِيلِهَا، وَيَمُوتُ لِتَحيَا؛ أَمَّا الإِيمَانُ الَّذِي لَا يَحمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، فَهُوَ إِيمَانٌ خَلَا مِنْ مَعْنَى حَمْلِ رِسَالَةِ الإِيمَانِ؛ فَإِذَا استَقَامَ الإِيمَانُ عَلَى هَذَا النَّحوِ فِي الفُؤَادِ خَالِياً مِنَ الزَّغَلِ، نَقِيّاً مِنَ الدَّرَنِ، تَحَقَّقَتْ مَظَاهِرُ الاِستِسلَامِ كُلُّهَا لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ وَسَائِرِ أَحكَامِهِ فِي كِيَانِ الإِنسَانِ، بِدُونِ عَظِيمِ جُهْدٍ، وَلَا طَوِيلِ عَنَاءٍ .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٤) .

www.saida-islam.weebly.com

فَلِأَجْلِ هذا، كَانَ لِزَاماً عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَجْتَهِدَ بِصِفَةٍ جَمَاعِيَّةٍ لِإِعَادَةِ مَنْ خَرَجَ مِنَ الدِّين إِلَيْهِ، وَإِعَادَةِ مَا خَرَجَ مِنَ الدِّينِ إِلى حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وذَلِكَ بِإِثَارَةِ الشُّعُورِ الإِيْمَانِيِّ فِي الأُمَّةِ، وإِعْلَاءِ الهِمَّةِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ، وتَحَمُّلِ مَشَاقِّهَا، وتَجَرُّعِ مَرَائِرِهَا، والتَّذَوُّقِ لِحَلَاوَتِهَا؛ ولِتَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَكْوِينِ البِيئَةِ الإِيْمَانِيَّةِ الدَّعَوِيَّةِ بَعدَ أَنْ فُقِدَتْ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، لِلِانْتِقَالِ بِهِمْ مِنْ تَبَعِيَّةِ الهوَى إِلَى اتِّبَاعِ الهُدَى، ومِنْ حَيَاةِ اللُّزُومِ إِلَى حَيَاةِ التَّعْدِيَةِ، ومِنَ الحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ إِلَى حَيَاةِ الدَّعْوَةِ والرِّسَالَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ، وهِيَ الْمِيْزَةُ الَّتِي تَمْتَازُ بِهَا هَذِهِ الأُمَّةُ بَيْنَ الأُمَمِ كَمَا تَقَدَّمَ؛ ولَا يُمْكِنُ هَذَا التَّغْيِيرُ فِي حَيَاتِهِم وَإِصْلَاحُ أَعْمَالِهِمْ، مَا دَامُوا مَأْسُورِينَ لِأَشْغَالِهِم وَمُحِيطِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَالضَّرْبِ عَلَى الحَدِيدِ البَارِدِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ لُجَّةِ الحَيَاةِ الَّتِي غَاصُوا فِيهَا إِلَى آذَانِهِم لِوَقْتٍ قَلِيلٍ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ سُلْطَانِ الأَشْغَالِ وَسَيطَرَةِ الْمُحِيطِ، فَتَتَمَكَّنَ فِيهِمُ التَّعَالِيمُ الدِّينِيَّةُ، ثُمَّ لَا بَأْسَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى لُجَّةِ الحَيَاةِ، وَيَعُودُوا إِلَى أَشْغَالِهِم، فَإِنَّهُم يُؤْمَنُ عَلَيهِمُ الغَرَقُ [١].

❖❖❖❖❖

(١) «من روائع أبي الحسن الندوي» ص(٣٨-٣٩) بتصرف. وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَبُولُ الْمَحَلِّ لِمَا يُوْضَعُ فِيْهِ مَشْرُوطٌ بِتَفْرِيْغِهِ مِنْ ضِدِّهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي الذَّوَاتِ وَالأَعْيَانِ فَكَذَلِكَ فِي الاعْتِقَادَاتِ وَالإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ القَلْبُ مُمْتَلِئاً بِالْبَاطِلِ اعْتِقَاداً وَمَحَبَّةً لَمْ يَبْقَ فِيْهِ لاعْتِقَادِ الْحَقِّ ومَحَبَّتِهِ مَوْضِعٌ، .. وَكَذَلِكَ الْجَوَارِحُ إِذَا اشْتَغَلَتْ بِغَيرِ الطَّاعَةِ لَمْ يُمْكِنْ شَغْلُهَا بِالطَّاعَةِ إِلاَّ إِذَا فَرَّغَهَا مِنْ ضِدِّهَا؛ فَكَذَلِكَ القَلْبُ الْمَشْغُولُ بِمَحَبَّةِ غَيْرِ اللهِ وإِرَادَتِهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَالأُنْسِ بِهِ، لا يُمْكِنُ شَغْلُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ وإِرَادَتِهِ وَحُبِّهِ وَالشَّوْقِ إِلى لِقَائِهِ إِلاَّ بِتَفْرِيْغِهِ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ، وَلا حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِذِكْرِهِ وَالْجَوارِحِ بِخِدْمَتِهِ إِلاَّ إِذَا فَرَّغَها مِنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ وَخِدْمَتِهِ . فَإِذَا امْتَلأَ القَلْبُ بِالشُّغْلِ بِالْمَخْلُوقِ وَالْعُلُومِ الَّتِي لا تَنْفَعُ لَمْ يَبْقَ فِيْهَا مَوْضِعٌ لِلشُّغْلِ بِاللهِ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ إِصْغَاءَ القَلْبِ كَإِصْغَاءِ الأُذُنِ، فَإِذَا صَغَا إِلى غَيْرِ حَدِيثِ اللهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ إِصْغَاءٌ ولا فَهْمٌ لِحَدِيثِهِ، كَمَا إِذَا مَالَ إِلى غَيْرِ مَحَبَّةِ اللهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ مَيْلٌ إِلى مَحَبَّتِهِ، فَإِذَا انْطَلَقَ القَلْبُ بِغَيْرِ ذِكْرِهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ مَحَلٌّ لِلنُّطْقِ بِذِكْرِهِ كَاللِّسَانِ. «الفوائد» ص(٤١).

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

الصِّفَاتُ السِّتُّ الَّتِي قَرَّرَهَا الشَّيخُ إِلْيَاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَنهَجِ الجَمَاعَاتِ الخَارِجَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لِلتَّمَرُّنِ عَلَيهَا، وَدَعوَةِ النَّاسِ إِلَيهَا؛ وَمَوقِعُهَا مِنَ الدِّينِ :

لَقَدْ قَامَ الشَّيخُ الْمُجَدِّدُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِوَضْعِ مَنْهَجٍ تَربَوِيٍّ يَتَنَاسَبُ مَعَ حَالِ أَكْثَرِ الأُمَّةِ، والَّتِي كَثُرَتْ عَلَيهَا شَرَائِعُ الإِسْلَامِ، فَاخْتَارَ سِتَّ صِفَاتٍ أَسَاسِيَّةً مِنْ شُعَبِ الإِيْمَانِ، وبَدَأَ يَجْتَهِدُ عَلَى الخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ لِتَتَحَقَّقَ فِيهِم هُذِهِ الصِّفَاتُ، ولِيَقُومُوا بِدَعْوَةِ غَيرِهِم إِلَيهَا؛ وهَذِهِ الصِّفَاتُ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ «**صِفَاتٌ اسْتِعْدَادِيَّةٌ**»، بِمَعْنَى أَنَّ هُذِهِ الصِّفَاتِ إِذَا تَحَقَّقَتْ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، يَسْهُلُ أَنْ يَأْتِيَ الدِّينُ كَامِلاً فِي حَيَاتِهِ[(١)]؛ وفِعْلُهُ هَذَا فِي الحَقِيقَةِ هُوَ اقْتِدَاءٌ بِفِعْلِهِ ﷺ حِينَمَا جَاءَهُ رَجُلٌ، فقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ :" **لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ** " [(٢)] .

فَدَلَّهُ ﷺ عَلَى صِفَةِ الذِّكْرِ، وهِيَ بِحَدِّ ذَاتِهَا صِفَةٌ اسْتِعْدَادِيَّةٌ، إِذَا تَحَقَّقَتْ فِي حَيَاةِ الذَّاكِرِ فَإِنَّهَا تَقُودُهُ لِقَبُولِ الدِّينِ كُلِّهِ والعَمَلِ بِهِ، حَيثُ إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا ذَكَرَ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ بِاسْتِحْضَارِ صِفَاتِهِ الجَمَالِيَّةِ جَاءَ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّتُهُ والرَّجَاءُ مِنْهُ، وهَذَا هُوَ الدَّافِعُ لِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ؛ وإِذَا ذَكَرَ اللهَ

---

(١) قال الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللَّهُ : **أَصلُ المَقصُودِ من حَرَكَتِنَا هَذِهِ هُوَ أَنْ نُعَلِّمَ المُسلِمِينَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، يَعنِي أَنْ نَجعَلَ الأُمَّةَ تَخْضَعُ عَلَى كَامِلِ الإِسلام عِلْمِيًّا وعَمَلِيًّا، وهَذَا هُوَ مَقْصُودُنَا الحَقِيقِيُّ، وأما «الخروجُ في سَبِيلِ اللهِ» وتَنَقُّلُ الجَمَاعَاتِ وجَولَاتُ التَّبلِيغِ، فَهَذَا كُلُّهُ كَسَبَبٍ مَبدَئِيٍّ لِذَلِكَ المَقصُودِ، وأَمَّا تَلْقِينُنَا وتَعْلِيمُنَا لِلشَّهَادَتَينِ والصَّلَاةِ والتَّعلِيمِ، فَمِثَالُهُ كَتَعْلِمِ الأَلِف والبَاء والتَّاء بِالنِّسْبَةِ لِمَنْهَجِنَا**. «ملفوظات الشيخ إلياس» ص (٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦٩٨) عن عبد الله بن بسر، والترمذي في سننه وحسَّنه (٣٣٧٥) وابن ماجه في سننه (٣٧٩٣) والحاكم في المستدرك (١٨٢٢) وقال : صحيح الإسناد . ومعنى قوله : إنَّ شرائع الإسلام قد كَثُرَتْ عَلَيَّ، جاء مفسراً في رواية : أَن رجلاً قال : يا رسول الله، إن أبوابَ الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بكُلِّها، فأخبِرْني بشيءٍ أتَشَبَّثُ به، ولا تُكْثِرْ عليَّ فأنْسى . كذا في «جامع الأصول» (٢٥٦١). وفي أخرى : إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا فَدُلَّنَا عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ نَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. أورده الضياء المقدسي في «المختارة» (٤٣) .

www.saida-islam.weebly.com

ﷻ بِاسْتِحْضَارِ صِفَاتِهِ الجَلَالِيَّةِ فَإِنَّهُ يَأْتِي فِي قَلْبِهِ خَشْيَتُهُ والخَوفُ مِنهُ، وهَذَا هُوَ الْمَانِعُ عَنْ مَعَاصِي اللهِ ﷻ؛ وحَقِيقَةُ الدِّينِ هُوَ امْتِثَالُ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ واجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ العَظِيمَةِ[1]؛ بِمَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَلَّهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي تَدْخُلُهُ إِلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وذَلِكَ لِضَعْفِ اسْتِعْدَادِهِ لِتَلَقِّي جَمِيعِ الدِّينِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وهَذَا مِنْ حِكْمَتِهِ ﷺ الدَّعَوِيَّةِ، الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ ﷻ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللهِ ﷻ، حَيثُ قَالَ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

---

(١) قال الإمام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةٍ تَحْرُكُ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَتَعْتَصِمُ بِهِ، فَتَقِلُّ آفَاتُهَا أَوْ تَذْهَبُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ؛ فَنَقُولُ : اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ثَلَاثَةٌ : **الْمَحَبَّةُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ**. وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ، تُرَادُ لِذَاتِهَا، لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِخِلَافِ الْخَوْفِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الطَّرِيقِ؛ **فَالْمَحَبَّةُ** : تُلْقِي الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إِلَيْهِ، **وَالْخَوْفُ** : يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ، **وَالرَّجَاءُ** : يَقُودُهُ؛ فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ، فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ. فَإِنْ قِيلَ : فَالْعَبْدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ مَحَبَّةٌ تَبْعَثُهُ عَلَى طَلَبِ مَحْبُوبِهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ يُحَرِّكُ الْقُلُوبَ ؟ قُلْنَا يُحَرِّكُهَا شَيْئَانِ : **أَحَدُهُمَا** : **كَثْرَةُ الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ**، لِأَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِهِ تُعَلِّقُ الْقُلُوبَ بِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِالذِّكْرِ الْكَثِيرِ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾. **وَالثَّانِي** : **مُطَالَعَةُ آلَائِهِ وَنَعْمَائِهِ**، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾. فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَسْخِيرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْحَيَوَانِ وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عِنْدَهُ بَاعِثًا، وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ، تُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالزَّجْرِ وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ وَنَحْوِهِ، وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ يُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ الْكَرَمِ وَالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ، وَمَا وَرَدَ فِي الرَّجَاءِ وَالْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَاسِعٌ . «مجموع الفتاوى» (١/٩٥) .

www.saida-islam.weebly.com

وَلَا يُقَالُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَبْدَلَ أَرْكَانَ الإِسْلَامِ وَأَرْكَانَ الإِيْمَانِ بِصِفَةِ الذِّكْرِ، ولَكِنَّهُ كَمَا تَقَدَّمَ، مِنْ بَابِ الحِكْمَةِ الدَّعَوِيَّةِ، لِلْوُصُولِ بِالْمُسْلِمِ إِلَى الْمَقْصُودِ بِاليُسْرِ والسُّهُولَةِ [١] .

---

(١) قلت : لقد كان النَّبِيُّ ﷺ يأتيه الرجلُ فَيُوصِيهِ بأمور، ويأتيه غَيرُهُ فيُوصِيهِ بغيرها، بما يتناسب مع حَاجَةِ الْمُوصَى أو حَاجَةِ الزَّمَانِ؛ وفي هذا يَقولُ الإمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي، وَهُوَ الِاجْتِهَادُ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَطِعَ؛ فَثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : **أَحَدُهَا** : الْمُسَمَّى بِتَنْقِيحِ الْمَنَاطِ .، **وَالثَّانِي** : الْمُسَمَّى بِتَخْرِيجِ الْمَنَاطِ .، **وَالثَّالِثُ** : هُوَ نَوْعٌ مِنْ تَحْقِيقِ الْمَنَاطِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ ضربان : .. فذكر الاجتهاد الأول؛ ثُمَّ قَالَ عن الثَّاني : **أَمَّا الثَّانِي**، وَهُوَ النَّظَرُ الْخَاصُّ، فَأَعْلَى مِنْ هَذَا وَأَدَقُّ، وَهُوَ فِي الحقيقة ناشِئٌ عَنْ نَتِيجَةِ التَّقْوَى الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأَنْفَالِ: ٢٩] . وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَيُشِيرُ إِلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٦٩].

وَقَالَ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ : **إِنَّ الْحِكْمَةَ مَسْحَةُ مَلَكٍ على قَلْبِ الْعَبْدِ**. وقال أيضًا : **الْحِكْمَةُ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ**. وَقَالَ أَيْضًا : **يَقَعُ بِقَلْبِي أَنَّ الْحِكْمَةَ الْفِقْهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَأَمْرٌ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْقُلُوبَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ**. وَعَلَى الْجُمْلَةِ، فَتَحْقِيقُ الْمَنَاطِ الْخَاصِّ نَظَرٌ فِي كُلِّ مُكَلَّفٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّلَائِلِ التَّكْلِيفِيَّةِ، بِحَيْثُ يَتَعَرَّفُ مِنْهُ مَدَاخِلَ الشيطان، ومداخل الْهَوَى وَالْحُظُوظَ الْعَاجِلَةَ، حَتَّى يُلْقِيَهَا هَذَا الْمُجْتَهِدُ عَلَى ذَلِكَ الْمُكَلَّفِ مُقَيَّدَةً بِقُيُودِ التَّحَرُّزِ مِنْ تِلْكَ الْمَدَاخِلِ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى التَّكْلِيفِ الْمُنْحَتِمِ وَغَيْرِهِ، وَيَخْتَصُّ غَيْرُ الْمُنْحَتِمِ بِوَجْهٍ آخَرَ، وَهُوَ النَّظَرُ فِيمَا يَصْلُحُ بِكُلِّ مُكَلَّفٍ فِي نَفْسِهِ، بِحَسَبِ وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَحَالٍ دُونَ حَالٍ، وَشَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ، إِذِ النُّفُوسُ لَيْسَتْ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الْخَاصَّةِ عَلَى وِزَانٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهَا فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَذَلِكَ، فَرُبَّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَدْخُلُ بِسَبَبِهِ عَلَى رَجُلٍ ضَرَرٌ أَوْ فَتْرَةٌ، وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى آخَرَ، وَرُبَّ عَمَلٍ يَكُونُ حَظُّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَامِلِ أَقْوَى مِنْهُ فِي عَمَلٍ آخَرَ، وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ دُونَ بَعْضٍ، **فَصَاحِبُ هَذَا التَّحْقِيقِ الْخَاصِّ هُوَ الَّذِي رُزِقَ نُورًا يَعْرِفُ بِهِ النُّفُوسَ وَمَرَامِيَهَا وَتَفَاوُتَ إِدْرَاكِهَا، وَقُوَّةَ تَحَمُّلِهَا لِلتَّكَالِيفِ، وَصَبْرَهَا عَلَى حَمْلِ أَعْبَائِهَا أَوْ ضَعْفَهَا، وَيَعْرِفُ الْتِفَاتَهَا إِلَى الْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ أَوْ عَدَمَ الْتِفَاتِهَا، فَهُوَ يَحْمِلُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْ أَحْكَامِ النُّصُوصِ مَا يَلِيقُ بِهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودُ الشَّرْعِيُّ فِي تَلَقِّي التَّكَالِيفِ، فَكَأَنَّهُ يَخُصُّ عُمُومَ الْمُكَلَّفِينَ وَالتَّكَالِيفِ بِهَذَا التَّحْقِيقِ**، لَكِنْ مِمَّا ثَبَتَ عُمُومُهُ فِي التَّحْقِيقِ الْأَوَّلِ الْعَامِّ، ويُقَيِّدُ به ما ثَبَتَ إِطْلَاقُهُ فِي الأَوَّلِ، أَوْ يَضُمُّ قَيْدًا أَوْ قُيُودًا لِمَا ثَبَتَ له في الأول بعض القيود. هَذَا مَعْنَى تَحْقِيقِ الْمَنَاطِ هُنَا. وَبَقِيَ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الِاجْتِهَادِ؛ فإِنْ تَشَوَّفَ أَحَدٌ إِلَى خُصُوصِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ؛ فَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهِ كَثِيرَةٌ، نَذْكُرُ مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ بِحَوْلِ اللَّهِ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فِي=

www.saida-islam.weebly.com

=أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَخَيْرِ الْأَعْمَالِ، وَعَرَّفَ بِذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ، فَأَجَابَ بِأَجْوِبَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْ حُمِلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ أَوْ عُمُومِهِ لَاقْتَضَى مَعَ غَيْرِهِ التَّضَادَّ فِي التَّفضيل، فَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ :" **إِيمَانٌ بِاللَّهِ** ". قَالَ: ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :" **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ". قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :" **حَجٌّ مَبْرُورٌ** ". وَسُئِلَ ﷺ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ :" **الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا** ". قَالَ : ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ :" **بِرُّ الْوَالِدَيْنِ** ". قَالَ : ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "**الْجِهَادُ فِي سبيل الله** ". وَفِي النَّسَائِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذُهُ عَنْكَ . قَالَ :" **عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ**". وَفِي التِّرْمِذِيِّ : سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ :" **الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ** ". وَفِي الصَّحِيحِ فِي قَوْلِ :" **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ** .. الحديث. قَالَ : "**وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ** .." الحديث. وَفِي النَّسَائِيِّ :" **لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ** ". وَفِي الْبَزَّارِ : أَيُّ الْعِبَادَةِ أَفْضَلُ ؟ قال :" **دُعَاءُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ** ". وَفِي التِّرْمِذِيُّ :" **مَا مِنْ شَيْءٍ أَفْضَلَ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ** ". وَفِي الْبَزَّارِ :" **يَا أَبَا ذَرٍّ! أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا خَفِيفَتَانِ عَلَى الظَّهْرِ، وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا عمل الخلائق بمثلهما** ". وفي مسلم : أَيُّ الْمُسلمين خَيْرٌ ؟ قَالَ :" **مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** ". وَفِيهِ : سُئِلَ : أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ :" **تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ** ". وَفِي الصَّحِيحِ :" **وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ** ". وَفِي البخاري :" **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ** ". وَفِي الترمذي :" **أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ** ". إِلَى أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ، جَمِيعُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّفْضِيلَ لَيْسَ بِمُطْلَقٍ، وَيُشْعِرُ إِشْعَارًا ظَاهِرًا بِأَنَّ الْقَصْدَ إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَقْتِ، أَوْ إِلَى حَالِ السَّائِلِ. ثم ذكر الشَّاطِبيُّ أمثلةً أخرى كثيرةً، إلى أن قال : فَرُبَّ مَسْأَلَةٍ تَصْلُحُ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وَقَدْ قَالُوا فِي الرَّبَّانِيِّ : **إِنَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ**؛ فَهَذَا التَّرْتِيبُ مِنْ ذلك. وَلَوْ تُتُبِّعَ هَذَا النَّوْعُ لَكَثُرَ جِدًّا، وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعَنِ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَهُوَ كَثِيرٌ. **وَمَا تَقَدَّمَ وَأَمْثَالُهُ كافٍ مُفِيدٌ لِلْقَطْعِ بِصِحَّةِ هَذَا الِاجْتِهَادِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قلَّما نَبَّهُوا عَلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ**؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. «الموافقات» (٥/١٩-٣٥). قلت : فليس هناك أيُّ مانعٍ شرعيٍّ من أن يجتهدَ بعضُ أهل العلم – كما اجتهد الشَّيخ إلياسُ والقائمون بجهد التَّبليغ عن رسول الله ﷺ – بتوجيه عوامِّ المسلمين إلى الجهد لتحقيق ستِّ صفاتٍ أساسيَّةٍ في الدِّين، وهذا بمثابة تعليمه ﷺ لبعض أصحابه وسائلَ يرتقي بها إلى تحقيق كمال الدِّين؛ فكما أنَّ توجيهَهُ ﷺ لبعض أصحابه لِأَنْ يلتزموا بصفاتٍ وأعمالٍ معيَّنَةٍ لا يَلزَمُ منه حَصرُ الدِّين في هذه الصِّفَاتِ، فكذلك تَوجِيهُ أهلِ العِلمِ للعَوَامِّ إلى الجُهدِ لِتَحقِيقِ صِفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لا=

www.saida-islam.weebly.com

كَمَا ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ مُجْتَمِعَةً لِأَحَدِ الصَّحَابَةِ حَدِيثِي العَهْدِ بِالإِسْلَامِ عَلَى أَنَّهَا الإِسْلَامُ ؛ فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ القُشَيرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ : وَاللهِ مَا جِئْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ بِعَدَدِ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لَا أَتَّبِعَكَ وَلَا أَتَّبِعَ دِينَكَ، وَإِنِّي أَتَيْتُ امْرَءًا لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمْنِي اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا ؟ قَالَ :" **اجْلِسْ** "؛ ثُمَّ قَالَ :" **بِالْإِسْلَامِ** "؛ فَقُلْتُ : وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ ؟ قَالَ : "**تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتُفَارِقُ الشِّرْكَ، وَإِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِ عَمَلًا، وَإِنَّ رَبِّي دَاعِيَّ وَسَائِلِي هَلْ بَلَغَتُ عِبَادَهُ ؟ فَلْيُبَلِّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ، وَإِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُفْدَمٌ عَلَى أَفْوَاهِكُمْ بِالْفِدَامِ**[1]، فَأَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْ

=يعني حَصرَ الدِّين في هَذِهِ الصِّفَاتِ، وإِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ شَرعِيَّةٌ لتَحقِيقِ مَقصَدٍ شَرعِيٍّ عَظِيمٍ، وهو أَيْضاً نَظَرٌ اجْتِهَادِيٌّ لتحقِيقِ مَصلَحَةِ التَّربِيَةِ والتَّعلِيمِ . وبالله التوفيق . وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغِ قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَ لِأَشْيَاءَ إلى وَقْتِ التَّمَكُّنِ، كَمَا أَخَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إنْزَالَ آيَاتٍ وَبَيَانَ أَحْكَامٍ إلَى وَقْتِ تَمَكُّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلَى بَيَانِهَا .. وَهَذِهِ أَوْقَاتُ الْفَتَرَاتِ؛ فَإِذَا حَصَلَ مَنْ يَقُومُ بِالدِّينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوِ الأُمَرَاءِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا، كَانَ بَيَانُهُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئًا فَشَيْئًا بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا بُعِثَ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً، كَمَا يُقَالُ: **إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ فَأْمُرْ بِمَا يُسْتَطَاعُ**؛ فَكَذَلِكَ الْمُجَدِّدُ لِدِينِهِ وَالْمُحْيِي لِسُنَّتِهِ، لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الإِسْلامِ لا يُمْكِنُ حِينَ دُخُولِهِ أَنْ يُلَقَّنَ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ وَيُؤْمَرَ بِهَا كُلِّهَا. وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالْمُتَعَلِّمُ وَالْمُسْتَرْشِدُ لا يُمْكِنُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ يُؤْمَرَ بِجَمِيعِ الدِّينِ وَيُذْكَرَ لَهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً، بَلْ يَعْفُو عَنِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ إلى وَقْتِ الإِمْكَانِ، كَمَا عَفَا الرَّسُولُ ﷺ عَمَّا عَفَا عَنهُ إلى وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إِقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ، لأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَقَدْ فَرَضْنَا انتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ؛ فَتَدَبَّرْ هَذَا الأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ. «مجموع الفتاوى» (٢٠/٣٥- ٣٦).

(١) الفِدَامُ : هو مَا يُشَدُّ عَلَى فَمِ الإِبْرِيق والكُوز مِن خِرْقةٍ لتَصْفِيَة الشَّراب الَّذِي فِيهِ، أَيْ أَنَّهُمْ يُمْنَعُونَ الكلام بأفواههم حَتَّى تَتَكَلَّم جوارِحُهم، فشَبَّه ذَلِكَ بالفِدَام. «النهاية لابن الأثير» (٣/٤٢١) .

www.saida-islam.weebly.com

أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ ". فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ وَهَذَا دِينُنَا ؟ قَالَ :" **نَعَمْ** .." [(١)(٢)]. وذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ .

والنَّاظِرُ فِي زَمَانِنَا هَذَا لَا يَشُكُّ أَنَّ حَالَ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ كَحَالِ ذَلِكَ الأَعْرَابِيِّ، قَدْ كَثُرَتْ عَلَيهِم شَرَائِعُ الإِسْلَامِ، وقَلَّ اسْتِعْدَادُهُم لِلْعَمَلِ بالإِسْلَامِ بِجَمِيعِ شُعَبِهِ، بِسَبَبِ الانْهِمَاكِ فِي الدُّنْيَا تَعَلُّماً وعَمَلاً، والإِعْرَاضِ عَنْ تَعَلُّمِ الدِّينِ والعَمَلِ بِهِ، وانْتِشَارِ الأَمْرَاضِ فِي حَيَاةِ الأُمَّةِ : مِنْ ضَعْفِ الإِيْمَانِ وشُيُوعِ الشِّرْكِ فِي حَيَاتِهَا، وتَرْكِ السُّنَنِ وانْتِشَارِ البِدَعِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وتَرْكِ الصَّلَاةِ وغَيرِهَا مِنَ الفَرَائِضِ، وانْتِشَارِ الجَهْلِ والغَفْلَةِ، وبُعْدِ الفَجْوَةِ بَيْنَ العَامَّةِ والعُلَمَاءِ، وانْتِشَارِ الفَوَاحِشِ والرَّذَائِلِ، والبُعْدِ عَنْ أَخْلَاقِ النُّبُوَّةِ، وتَفَرُّقِهَا وتَشَتُّتِهَا، وسُوءِ النِّيَّةِ وضَعْفِ الإِخْلَاصِ، وتَرْكِ الأُمَّةِ لِمَسْؤُولِيَّةِ تَبْلِيغِ الدِّينِ الْمَنُوطَةِ بِهَا، إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَمْرَاضِ الَّتِي أَسْقَطَتِ الأُمَّةَ عَنْ رُتْبَتِهَا فِي مُقَدِّمَةِ الأُمَمِ، وجَعَلَتْهَا فِي ذَيْلِ الأُمَمِ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ؛

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠٠٤٣) والطبراني في الكبير (٩٦٩) وقال ابن عبد البَرّ في الاستيعاب : فهذا هو الحديث الصحيح بالإسناد الثابت المعروف؛ وقال الهيثمي : ورجاله ثقات .

(٢) قلت : هنا يأمر النبيُّ ﷺ معاوية بنَ حيدة ومَنْ شَهِدَ مِنْ أمَّته بالتَّبليغ عنه لمن غَابَ، ومعاويةُ لا زال يَسأَلُ عن الإسلام، وقد بَيَّنَ له ﷺ أساسيَّاتِ الدِّين، من : التوحيد لله ﷻ والإيمان به، ومفارقة الشرك، وما يلزم لذلك من تعظيمه له بكثرة ذكره؛ وحسن اتِّباعه ﷺ، وما يلزم لذلك من تعلُّمٍ لطريقه ﷺ والعمل بها في جميع شعب الحياة؛ وإقامة الصَّلاة ذات الخشوع والخضوع وما لا تتحقق إلَّا به، من علمٍ بشرائطها وأركانها واستحضارٍ لعظمة الله ﷻ وذكره فيها؛ وإيتاءٍ للزكاة؛ ومؤاخاة المسلمين ومحبتهم وموالاتهم؛ مع تصحيح النية وإخلاصها لله ﷻ في جميع الأقوال والأعمال والأحوال الظاهرة والخفية؛ والقيام بالدعوة إلى هذا الدِّين الحنيف وتبليغه إلى من لم يَبْلُغْهُ من الناس؛ ثم سأله معاوية : هذا ديننا ؟ أي أهذا هو الدين الذي يطلبه الله ﷻ من كلِّ واحد منَّا ؟ فأجابه المصطفى ﷺ :" **نعم** ". ففيه بالإضافة إلى ما تقدَّم أنَّ أمر التَّبليغ للدِّين مكلَّفٌ به كلُّ مسلم، كُلٌّ بحسبِ عِلمِهِ، حتى عدَّهُ النَّبيُّ ﷺ من الصِّفَاتِ الأَسَاسِيَّةِ في هذا الدِّين، والَّتِي تُطْلَبُ من كُلِّ مُسلِمٍ، حَتَّى الدَّاخِلِ في الإسلامِ حَدِيثاً. ولمزيد من الفائدة في هذا الباب يُقرَأ كتاب « **كشف الغُمَّة** » للعبد الفقير عفا اللهُ عنه.

www.saida-islam.weebly.com

فَشَرَحَ اللهُ ﷻ صَدْرَ الشَّيخِ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ لِدَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَا غِنَى لِمُسْلِمٍ عَنْ إِحْدَاهَا، ولَا بُدَّ مِنهَا مُجْتَمِعَةً لِلْخُرُوجِ مِنَ الخَسَارَةِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

وهَذِهِ الصِّفَاتُ السِّتُّ لَيسَتْ هِيَ الدِّينَ كُلَّهُ بِأَلْفَاظِهَا ومَبَانِيهَا، ولَكِنَّهَا تَجْمَعُ الدِّينَ كُلَّهُ بِمَقَاصِدِهَا ومَعَانِيهَا؛ فَالدِّينُ – كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ – كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ، زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ[١]؛ كَمَا أَنَّ الخُلُقَ خُلُقَانِ : خُلُقٌ مَعَ الخَالِقِ، وخُلُقٌ مَعَ الخَلْقِ؛ وَهُوَ فَرْعٌ عَنِ الخُلُقِ مَعَ الخَالِقِ ﷻ .

والخُلُقُ مَعَ الخَالِقِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِالقَلْبِ : وَذَلِكَ بِالْعِلْمِ بِاللهِ ﷻ وأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ، الْمُقْتَضِيَةِ لِتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، وخَشْيَتِهِ ومَهَابَتِهِ، وإِجْلَالِهِ وَالخُضُوعِ لَهُ، ومَحَبَّتِهِ ورَجَائِهِ، ودُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَيهِ، والتَّفْوِيضِ إِلَيهِ، والطُّمَأْنِينَةِ بِهِ، والثِّقَةِ واليَقِينِ بِكِفَايَتِهِ لِمَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِيْهِ، والحَيَاءِ مِنْهُ حَقَّ الحَيَاءِ[٢]، ونَحْوِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، الَّذِي يُثْمِرُ حُسْنَ الخُلُقِ مَعَ الخَالِقِ؛ وَيَتْبَعُهُ حُسْنُ الخُلُقِ مَعَ خَلْقِهِ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٤) . وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ :" **الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ. وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ. وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** ". فَقَابَلَ الْبِرَّ بِالْإِثْمِ . وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبِرَّ حُسْنُ الْخُلُقِ .. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ. وَهُوَ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَابَلَهُ بِالْإِثْمِ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :" **أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ: لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا. وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ: لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ** ". رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. فَجَعَلَ الْبَيْتَ الْعُلْوِيَّ جَزَاءً لِأَعْلَى الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْأَوْسَطَ لِأَوْسَطِهَا، وَهُوَ تَرْكُ الْكَذِبِ، وَالْأَدْنَى لِأَدْنَاهَا وَهُوَ تَرْكُ الْمُمَارَاةِ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ حَقٌّ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذَا كُلِّهِ. المصدر السابق.

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٣٦٧١) والترمذي في سننه (٢٤٥٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ** . قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ :" **لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ** ". وحسَّنه النووي في الخلاصة .

www.saida-islam.weebly.com

وحَقِيقَةُ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ والأَخْلَاقِ القَلْبِيَّةِ هِيَ : حَالٌ لِلْقَلْبِ، يَنْشَأُ عَنْ معرفَتِهِ باللهِ، وَالإِيْمَانِ بِتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ والتَّدْبِيرِ، وَالضُّرِّ والنَّفْعِ، والْعَطَاءِ والْمَنْعِ، وأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَإِ النَّاسُ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وإِنْ شَاءَهُ النَّاسُ [(١)] .

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ الخُلُقُ مَعَ اللهِ بِالجَوَارِحِ : بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ، وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ.

والخُلُقُ مَعَ الخَلْقِ : هُوَ امْتِثَالُ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الخَلْقِ.

فَخُلَاصَةُ الدِّينِ هِيَ : إِحْسَانُ عِبَادَةِ الحَقِّ بِالقَلْبِ والجَوَارِحِ، وإِحْسَانُ مُعَامَلَةِ الخَلْقِ؛ كَمَا أَنَّ **شُعَبَ الدِّينِ خَمْسٌ : الإِيْمَانِيَّاتُ، والعِبَادَاتُ، والمُعَامَلَاتُ، والمُعَاشَرَاتُ، والأَخْلَاقُ.**

فَالصِّفَةُ الأُوْلَى مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ : هِيَ «**شُعْبَةُ الإِيْمَانِيَّاتِ**» وهِيَ كُلُّ تَعَامُلٍ مَعَ اللهِ ﷻ بِالقَلْبِ، بِتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الحَقَائِقِ الغَيْبِيَّةِ، والْمُتَمَثِّلَةُ بِأَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٠٣) .

(٢) وممَّا لا يَدَعُ مجالاً للشكِّ في أنَّ المرادَ من هذه الصفاتِ هو مَقَاصِدُهَا ومعانيها، لا ألفاظُها ومبانِيهَا، هو ما كتبه العلَّامةُ الدَّاعيةُ محمد يوسف بن محمد إلياس الكاندهلوي رَحِمَهُمُاللهُ في كتابه النافع العظيم «الأحاديث المنتخبة في الصفات السِّتِّ» من مقاصد هذه الصِّفات؛ فذكر في **الباب الأول** من مقصد الصفة الأولى : وهي «الكلمة الطيبة» : الإيمان؛ وقال في تعريف الإيمان اصطلاحاً : هو التصديق بكلِّ ما أخبر به الرَّسولُ ﷺ تصديقاً محضاً بغير مشاهدةٍ، ثقةً به، ويقيناً عليه. ص (١). وأَوَّلُ حَدِيثٍ ذَكَرَهُ هو حديثُ :" **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً** ..". وقال في **الباب الثاني** : الإيمان بالغيب؛ ثمَّ قال : هو الإيمانُ باللهِ تعالى، وبجميع الغيبيَّاتِ، وبكلِّ ما أخبر به الرَّسولُ ﷺ دون مشاهدةٍ، ثقةً بالنَّبيِّ ﷺ وتصديقاً به، والتخلِّي عن اللَّذَّات الفَانيةِ، والمشاهداتِ الإنسانيَّةِ، والتَّجاربِ المادِّيَّة، لخبر الرَّسولِ ﷺ. ص (١٨) . وأَوَّلُ حَدِيثٍ ذَكَرَهُ فيه حَدِيثُ أَرْكَانِ الإِيمَانِ. وفي **الباب الثالث** : الإيمان بما بعد الموت . ص (٣٦). **وفي الباب الرابع** : الفوزُ بامتثال الأوامر؛ فقال: للاستفادة من اللهِ مباشرةً لا بدَّ من اليقينِ الكاملِ على أنَّ جميعَ الفلاحِ في الدنيا والآخرةِ لا يكونُ إلَّا بامتثالِ أوامرِ اللهِ تعالى، على منهجِ النَّبيِّ ﷺ . وأورد فيه عِدَّةَ رِوَايَاتٍ عن أَرْكَانِ الإِسلَامِ وأَسْهُمِهِ؛ وفي كلِّ بابٍ يذكرُ الآياتِ والأحاديثَ الَّتي تتعلَّقُ بالبابِ؛ ومَنْ قَرَأَها عَرَفَ أَنَّ المرادَ منها هُوَ الإيمانُ بجَمِيعِ أَرْكَانِهِ .

www.saida-islam.weebly.com

وَالصِّفَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ كُلُّ تَعَامُلٍ مَعَ اللهِ ﷻ يَتَعَلَّقُ بِالجَوَارِحِ، والْمُتَمَثِّلَةُ بِـ«**شُعْبَةِ العِبَادَاتِ**»، ومَا يَتْبَعُهَا مِنَ الكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِحُقُوقِ اللهِ ﷻ، وأَهَمُّ هَذِهِ العِبَادَاتِ هِيَ الصَّلَاةُ[(١)]؛ «فَإِنَّ أَصْلَ مَشْرُوعِيَّتِهَا الْخُضُوعُ للهِ ﷻ بِإِخْلَاصِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَالِانْتِصَابُ عَلَى قَدَمِ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَذْكِيرُ النَّفْسِ بِالذِّكْرِ لَهُ، قَالَ ﷻ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٰ ﴾ [طه: ١٤]. ثُمَّ إِنَّ لَهَا مَقَاصِدَ تَابِعَةً؛ كَالنَّهْيِ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالِاسْتِرَاحَةِ إِلَيهَا مِنْ أَنْكَادِ الدُّنْيَا، فِي الْخَبَرِ :" **أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ** "، وَفِي الصَّحِيحِ : "**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ** "، وَطَلَبِ الرِّزْقِ بِهَا، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢] . وَفِي الْحَدِيثِ تَفْسِيرُ هَذَا الْمَعْنَى، وَإِنْجَاحِ الْحَاجَاتِ؛ كَصَلَاةِ الِاسْتِخَارَةِ، وَصَلَاةِ الْحَاجَةِ، وَطَلَبِ الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النارِ، وَهِيَ الفَائِدَةُ العَامَّةُ الخَالِصَةُ، وَكَوْنِ الْمُصَلِّي فِي خِفَارَةِ اللَّهِ، فِي الْحَدِيثِ :" **مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ لَمْ يَزَلْ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ** "، وَنَيْلِ أَشْرَفِ الْمَنَازِلِ، قَالَ ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٧٩]؛ فَأُعْطِيَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ» [(٢)] .

فَاللهُ ﷻ جَعَلَ فِي الصَّلَاةِ خَاصِّيَّةَ التَّأْثِيرِ فِي حَيَاةِ الْمُصَلِّي، حَيثُ إِنَّهَا تَضْبِطُ تَصَرُّفَاتِهِ، وتَجْعَلُهَا مُقَيَّدَةً بِأَمْرِ اللهِ ﷻ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾. فَارْتِكَابُ الْمَنْهِيَّاتِ والفَوَاحِشِ وتَرْكُ امْتِثَالِ الأَوَامِرِ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ ﷻ أَنَّ الصَّلَاةَ الحَقِيقِيَّةَ تَنْهَى عَنْهَا؛ وَقَالَ ﷺ :" **أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَومَ القِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ** " [(٣)] .

---

(١) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللهُ في مقصد الصفة الثانية : «الصلاة» للاستفادةِ من قُدرةِ اللهِ مُباشرةً، يجبُ **الإمتثالُ لأوامرِ اللهِ** ﷻ، على منهجِ الرَّسولِ ﷺ، وأهمُّ تلكَ الأوامرِ وأساسُهَا الصَّلاةُ . «الأحاديث المنتخبة» ص (٥٦) .

(٢) «الموافقات» (٣/١٤٢ -١٤٣) .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك (١٨٥٩) وقال المنذري : بإسناد لا بأس به. ورواه الترمذي في سننه عن أبي هريرة بنحوه (٤١٣) وقال : حسن غريب.

www.saida-islam.weebly.com

وَالصِّفَةُ الثَّالِثَةُ : هِيَ مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ، والْمُتَمَثِّلَةُ بِالعِلْمِ بِأَمْرِ اللهِ ﷻ فِي كُلِّ حَالٍ، وطَرِيقَةِ رَسُولِهِ ﷺ فِي القِيَامِ بِهَذَا الأَمْرِ(١)؛ وهَذَا

---

(١) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقصد الصفة الثالثة : «العلم» للاستفادةِ من ذَاتِ اللهِ مباشرةً، امتثالُ أوامرِهِ ﷻ، على نهجِ النَّبِيِّ ﷺ، وذلكَ بتحصيلِ العِلمِ الإلهيِّ، وهو تحقيقُ الأمرِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ تعالى مِنَ العبدِ فِي كُلِّ حَالٍ . «الأحاديث المنتخبة» ص (١٤١) . وقال الشَّيخ إلياس رَحِمَهُ اللَّهُ : إنَّ سَيرَكُم وجُهدَكُم هذا سَيكُونُ هَباءً مَنثُوراً إذا لم تَهتَمُّوا معه بِعِلمِ الدِّينِ وذِكرِ اللهِ اهتماماً بَالغاً؛ فَإنَّ العلمَ والذِّكرَ مِثلُ الجَنَاحَين لِلطَّائر، بدونِهِمَا لا يمكنه الطَّيرَانُ في الهواء، بل الخَطَرُ شَديدٌ، والخَشيَةُ قَوِيَّةٌ أَنْ لَوْ تَغَافَلنَا عنهما فحِينَئِذٍ يَكُونُ هذا الجُهدُ بَابًا جَدِيداً لِلفِتنَةِ والضَّلَالَةِ . «ملفوظات الشيخ» ص (٣٩). وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً : إنَّ درجةَ الفَضَائِلِ قبلَ الْمَسَائِلِ، فإنَّ الفضائلَ يُحْتَسَبُ بها أَجرُ الأعمالِ، والَّذِي هُو مَحَلُّ الإيمانِ، وبه يَرغَبُ الإنسانُ بالأعمَالِ، وإنَّما يَحتَاجُ الإنسانُ لِاستِعلَامِ الْمسائلِ بَعدَ ما يكونُ رَاغباً في أَنْ يعملَ؛ فَلِأَجلِ هذا، أَهمِيَّةُ الفَضَائِلِ عندنَا أكثرُ. «ملفوظات الشيخ» ص (١٦٤). وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً : إنَّ تخصيصَ الحصولِ على عِلمِ الْمَسَائِلِ بشكلٍ فرديٍّ وتخصيصَ التَّعَرُّفِ على الفضائل بشكلٍ جَمَاعيٍّ في منهجنا هذا (منهج التبليغ)، لَهُ أسبَابٌ خَاصَّةٌ، وأهَمُّها أنَّه لا خلافَ في الفَضَائِلِ، أمَّا الْمَسائِلُ فمُعظَمُهَا مختلَفٌ فيه عند الأَئِمَّةِ؛ ولِذَا قُلنَا : إنَّه قد لَزِمَ تَعلِيمُ الْمَسَائِلِ بِصِفَةٍ فردِيَّةٍ، حَيثُ يَتَعلَّمُهَا كُلُّ فَردٍ عن عُلَمَاءِ مَذهَبِه، أَمَّا تَعلِيمُ الفَضَائِلِ فَلا خِلافَ فِيهَا، فَيَتِمُّ تَحصِيلُهَا بِالوَسائِلِ الجَمَاعِيَّةِ اه. أَمَّا عَنْ عِلمِ الْمَسَائِلِ الَّذي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسلمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، ولَا يُعذَرُ بِالجَهلِ بِهِ، فَقَد ذَكَرَهُ كَثِيرٌ منَ العُلَمَاءِ؛ فَقَدْ سُئِلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَولِهِ ﷺ :" **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**". أَيُّ شَيْءٍ تَفْسِيرُهُ ؟ فَقَالَ : **لَيسَ هُوَ الَّذِي تَطْلُبُونَ، إِنَّمَا طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ أَنْ يَقَعَ الرَّجُلُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ، فَيَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَهُ**. وسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِ الحَدِيثِ فَقَالَ : **عِلْمُ الحَالِ وَعِلْمُ الوَقْتِ وَعِلْمُ السِّرِّ، فَمَنْ جَهِلَ وَقْتَهُ وَمَا عَلَيهِ فَقَدْ جَهِلَ العِلْمَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ**. «تاريخ بغداد» (٢٧/٥). وقال إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ : **طَلَبُ الْعِلْمِ وَاجِبٌ .. وَمَعْنَاهُ أَنْ يَلْزَمَهُ طَلَبُ عِلْمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ : وُضُوئِهِ، وَصَلَاتِهِ، وَزَكَاتِهِ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَكَذَلِكَ الْحَجُّ وَغَيْرُهُ**. «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٥٢/١). كما سُئِلَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ : **إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ لَحَسَنٌ، وَلَكِنِ انْظُرِ الَّذِي يَلْزَمُكَ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تُمْسِيَ، وَمِنْ حِينِ تُمْسِي حَتَّى تُصْبِحَ فَالْزَمْهُ، وَلا تُؤْثِرَنَّ عَلَيْهِ شَيئاً**. «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي ص (٣٢٨). وسُئِلَ ابنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى النَّاسِ مِنْ تَعْلِيمِ العِلْمِ ؟ فَقَالَ : **أَنْ لا يُقْدِمَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ إِلاَّ بِعِلْمٍ، يَسْأَلُ وَيَتَعَلَّمُ**. «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٤٥). وللمزيد في هذا يُقرَأ ما ذكره ابن عبد البر في الجامع (٥٦/١). قلت : وهذا العلم هو الذي يُرَكَّزُ عليه في الخروج في سبيل الله، ثمَّ من كان لديه رغبةٌ في الازديادِ من هذا الخيرِ، فليطلبهُ عند أهل الاختصاص.

www.saida-islam.weebly.com

أَحَدُ الشَّرْطَيْنِ لِقَبُولِ الأَعْمَالِ عِندَ اللهِ ﷻ. هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى صِفَةِ الذِّكْرِ [١]، لِيَعْظُمَ اللهُ فِي قَلْبِ الذَّاكِرِ، فَيَقُومَ بِالأَوَامِرِ بِالتَّعْظِيمِ وَالاِسْتِحْضَارِ، فَيُقْبِلَ عَلَى امْتِثَالِ الأَوَامِرِ قَلْبًا وقَالَبًا.

والصِّفَةُ الرَّابِعَةُ : هِيَ إِحْسَانُ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الخَلْقِ، وهِيَ خُلاصَةُ «**شُعْبَةِ الْمُعَامَلَاتِ والْمُعَاشَرَاتِ والأَخْلَاقِ**»، بِأَدَاءِ حُقُوقِ العِبَادِ الْمَادِّيَّةِ والْمَعْنَوِيَّةِ؛ بَدْءاً مِنْ إِحْسَانِ مُعَامَلَةِ الوَالِدَينِ، بِبِرِّهِمَا والإِحْسَانِ إِلَيهِمَا، ومُعَاشَرَةِ الزَّوْجَينِ لِبَعْضِهِمَا البَعْضِ بِالْمَعْرُوفِ، وصِلَةِ الرَّحِمِ، وحُسْنِ الجِوَارِ، والتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْمُصْطَفَى ﷺ، .. إِلَى إِحْسَانِ مُعَامَلَةِ العَبِيدِ والبَهَائِمِ وغَيرِهَا [٢] .

وَالصِّفَةُ الخَامِسَةُ : هِيَ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ وإِخْلَاصُهَا للهِ ﷻ؛ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ** ﴾. وهَذَا هُوَ الشَّرْطُ الثَّانِي لِقَبُولِ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللهِ ﷻ [٣] .

---

(١) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقصد الشِّقِّ الثاني من الصفة الثالثة : «الذكر» : الإنشغالُ في امتثالِ أوامرِ اللهِ تعالى، باستحضارِ عظمةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وأنَّ اللهَ أَمَامِي وهُوَ يَرَانِي . «الأحاديث المنتخبة» ص (١٥٨) . ثم ذكر (١) فضائل القرآن، (٢) فضائل الذكر، (٣) الدعاء والذكر المأثور . وقال الشيخ إلياس رَحِمَهُ اللَّهُ : الذِّكرُ الحقيقِيُّ هو : أَنْ يكونَ الشَّخصُ مُراقباً للهِ ﷻ وأوامِرِهِ أينَمَا كَانَ، وفي أَيِّ حَالٍ كان، وفي أَيِّ عَمَلٍ كان، فيمتثلها. «ملفوظات الشيخ». ص (٢٧ – ٢٨) . وكما قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ : **ذِكْرُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ حَسَنٌ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ الْعَبْدُ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ فَيُمْسِكَ عَنْهَا**. جامع العلوم والحكم . (٢٥٣/١) .

(٢) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقصد الصفة الرابعة : «إكرام المسلم» : هو امتثالُ أوامرِ اللهِ تعالى المتعلِّقةِ بِعِبَادِهِ، مَعَ التَّقَيُّدِ بِهَدي النَّبِيِّ ﷺ، ومُرَاعَاةِ مَنزِلَةِ كُلِّ مُسلمٍ . «الأحاديث المنتخبة» ص (٢٢٧) . ثم ذكر الشيخ في أبواب هذه الصفة : (١) مكانة المسلم، (٢) حسن الخلق، (٣) حقوق المسلمين، (٤) صلة الأرحام، (٥) التحذير من إيذاء المسلمين، (٦) إصلاح ذات البين، (٧) إعانة المسلم.

(٣) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقصد الصفة الخامسة : «الإخلاص، أي تصحيح النية» : امتثالُ أوامرِ اللهِ ﷻ، لِابتغاءِ مَرضاتِ اللهِ وحدَهُ . «الأحاديث المنتخبة» ص (٣١٨) . ثم ذكر الشيخ في أبواب هذه الصفة : (١) الإخلاص؛ (٢) الإيمان والاحتساب؛ ثم قال : العمل باليقينِ على ما وَعَدَ اللهُ ﷻ، مع الشَّوقِ والرَّغبَةِ فِيمَا عِندَ اللهِ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ . (٣) ذم الرياء.

www.saida-islam.weebly.com

وَالصِّفَةُ السَّادِسَةُ : هِيَ جُهْدُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ وإِلَى دِينِهِ، بِحَمْلِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ وتَبْلِيغِهِم إِيَّاهَا، والتَّضْحِيَةِ بِالْمَالَ والنَّفْسِ فِي سَبِيلِ إِيْصَالِ هَذَا الدِّينِ إِلَى النَّاسِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا [١] .

وَسِيَاجًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَنْ تَضِيعَ بَعْدَ تَحْصِيلِهَا؛ لَا بُدَّ مِنْ «**تَرْكِ مَا لَا يَعْنِي**» مِنَ الإِرَادَاتِ والأَقْوَالِ والأَفْعَالِ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ** "[٢]. فَهَذَا يَعُمُّ التَّرْكَ لِمَا لَا يَعْنِي مِنَ الْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالِاسْتِمَاعِ، وَالْبَطْشِ، وَالْمَشْيِ، وَالْفِكْرِ، وَسَائِرِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْوَرَعَ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ؛ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ فِي الْوَرَعِ [٣] .

فَالْإِسْلَامُ يَقْتَضِي فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ، وتَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** ". وَإِذَا حَسُنَ الْإِسْلَامُ، اقْتَضَى تَرْكَ مَا لَا يَعْنِي كُلِّهِ : مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمُشْتَبِهَاتِ، وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَفُضُولِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَا يَعْنِي الْمُسْلِمَ إِذَا كَمُلَ إِسْلَامُهُ، وَبَلَغَ إِلَى دَرَجَةِ الْإِحْسَانِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ بِقَلْبِهِ، أَوْ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ مِنْهُ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ، فَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ كُلَّ مَا لَا يَعْنِيهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَشْتَغِلَ بِمَا يَعْنِيهِ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ، وَتَرْكُ كُلِّ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ .

---

(١) قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقصد الصفة السادسة : «الدعوة والتبليغ» : لإصلاحِ اليَقينِ والعملِ، ولإقامةِ كُلِّ النَّاسِ على ذلكَ السَّعي، لإحيَاءِ جُهدِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مِنهَاجِهِ فِي جَمِيعِ العَالَمِ . «الأحاديث المنتخبة» ص (٣٣٧) . ثم ذكر (١) الدعوة إلى الله تعالى وفضلها ؛ (٢) فضل النفر في سبيل الله تعالى؛ (٣) آداب الخروج في سبيل الله تعالى وأعماله .

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦) وصحَّحه ابن القيم في «الجواب الكافي» .

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٣) .

www.saida-islam.weebly.com

فَإِذَا تَرَكَ العَبْدُ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَفَعَلَ مَا يَعْنِيهِ كُلَّهُ، فَقَدْ كَمُلَ حُسْنُ إِسْلَامِهِ؛ وَقَدْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ بِفَضْلِ مَنْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَأَنَّهُ تُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُ، وَتُكَفَّرُ سَيِّئَاتُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كَثْرَةَ الْمُضَاعَفَةِ تَكُونُ بِحَسَبِ حُسْنِ الْإِسْلَامِ، فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ** عز وجل " [(١)] .

فَهَذِهِ الصِّفَاتُ السِّتُّ فِي حَقِيقَةِ مَقَاصِدِهَا ومُؤَدَّاهَا، هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ بِشُعَبِهِ الخَمْسِ : الإِيْمَانِيَّاتِ – **وهِيَ الصِّفَةُ الأُولَى** –، والعِبَادَاتِ – **وهِيَ الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ** –، والْمُعَامَلَاتِ والْمُعَاشَرَاتِ والأَخْلَاقِ – **وهِيَ الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ** –، بِالإِضَافَةِ إِلَى شَرْطَي قَبُولِ الأَعْمَالِ، وهُمَا الإِخْلَاصُ – **وهِيَ الصِّفَةُ الخَامِسَةُ** –، والْمُتَابَعَةُ لِطَرِيقَهِ ﷺ – **وهِيَ الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ** –، بِالإِضَافَةِ إِلَى الجِهَادِ والجُهْدِ لِلدَّعْوَةِ لِإِحْيَاءِ هَذَا الدِّينِ بِشُعَبِهِ كُلِّهَا فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العَالَمِ، – **وهِيَ الصِّفَةُ السَّادِسَةُ** – .

وَيَقُولُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ بَكْر إِسْمَاعِيلَ أُسْتَاذُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ القُرْآنِ بِجَامِعَةِ الأَزْهَرِ، مُعَرِّفاً بِعَمَلِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، الَّذِيْ جَدَّدَهُ اللهُ عز وجل عَلَى يَدِ الشَّيخِ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ، وَمُبَيِّناً عَنْ حَقِيقَةِ هَذِهِ الصِّفَاتِ :

وَقَدْ عُرِفَتْ هَذِهِ الجَمَاعَةُ بِاسْمِ «جَمَاعَةِ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ»[(٢)]، وَهُوَ اسْمٌ طَابَقَ مُسَمَّاهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الجَمَاعَةَ تَقُومُ بِأَمْرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ :

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٢٨٩) وما بعدها.

(٢) قلت : لقد كان الشيخُ إلياسُ رَحِمَهُ اللهُ حريصاً على جمع شمل الأمة بعد شتاتها، وكان يَتَجَنَّبُ أيَّ أَمرٍ يمكن أنْ يُؤَدِّيَ إلى التَّفرِقَةِ بين الْمُسلمين، لأنَّ هذا شرطٌ من شروط نجاح الدعوة، كما تقدَّم؛ ولذلك لم يُسَمِّ هذا العملَ بِاسْمٍ خَاصٍّ، لأَنَّهُ عَمَلُ الأُمَّةِ جَمْعَاءَ، فإذا نُسِبَ إلى شخصٍ أو جماعةٍ أَدَّى إلى تفرقة الأمة، ولَكِنْ بسبب قِيامِ أَهلِ هَذِهِ الدعوة بها بكَثرةٍ، وانْشِغَالِهِم بها، مع تقصير الأمة بواجبها نُجَاهَ هَذَا العَمَلِ، نُسِبُوا إِلَيهَا، وسُمُّوا بها، حتّى إنَّه إذا أُطلِقَ هذا الاسم أريد به العاملون بهذه الدعوة المباركة؛ كلفظ «الحافظ» و«شيخ الإسلام» ونحوهما؛ وكما قيل : **مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيءٍ نُسِبَ إِلَيهِ**.

www.saida-islam.weebly.com

الأَوَّلُ : تَبلِيغُ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، وَهِدَايَتُهُم إِلَى الإِسْلَامِ بِالحُجَّةِ البَالِغَةِ، وَالسَّمَاحَةِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مِنْ سِيرَةِ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَمَرَنُوا عَلَيهَا بِكَثْرَةِ الْمُجَاهَدَةِ وَالذِّكْرِ .

الثَّانِيْ : دَعْوَةُ العَاصِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ أَوَّلاً، بِوَصْفِهَا عِمَادَ الدِّينِ، وَلِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ، فَإِذَا مَا صَلَّوْا خَشَعَتْ قُلُوبُهُم، ولَانَتْ جُلُودُهُم لِذِكْرِ اللهِ، وَانْكَسَرَتْ شَهَوَاتُهُم، وَضَعُفَ مُيُولُهُم إِلَى الْمَعَاصِي، فَكَفُّوا عَنهَا بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وسَهُلَ عَلَيهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا للهِ ﷻ فِي سَائِرِ مَا أَمَرَ بِهِ ونَهَى عَنهُ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ بِهِم فِي سَبِيلِ اللهِ أَيَّاماً، لِيَرَوْا صُورَةً مِنْ صُوَرِ الإِيْمَانِ الصَّادِقِ، والإِخْلَاصِ الكَامِلِ، وَالحُبِّ الغَامِرِ، والإِشْرَاقِ السَّاطِعِ، مِنْ خِلَالِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، وَالذِّكْرِ الْمُتَوَاصِلِ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَلِيَتَعَلَّمُوا كَيفَ يَكُونُونَ قَوماً صَالِحِينَ، وَدُعَاةً مُرْشِدِينَ .

وَلِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُجَاهِدَةِ أُصُولٌ تَعَارَفُوا عَلَيهَا، وتَوَافَقُوا عَلَى تَطْبِيقِهَا فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ فِي الحَضَرِ والسَّفَرِ، لَمْ يَكْتُبُوهَا فِي كُتُبٍ، ولَكِنَّهُم تَوَاصَوا بِهَا فِيمَا بَينَهُم؛ جِمَاعُهَا فِي أَرْبَعِينَ أَصْلاً، وتَحْتَ كُلِّ أَصْلٍ آدَابٌ وفَضَائِلُ لَا تَكَادُ تَنْحَصِرُ؛ كُلُّهَا مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ .

وَلَقَدْ عَرَفْتُهُم عَنْ قُرْبٍ، وَخَرَجْتُ مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيتُ مِنهُم مَا يُخَالِفُ كِتَاباً ولَا سُنَّةً؛ بَلْ لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنهُم مَا لَمْ أَكُنْ أَجِدُهُ إِلَّا عِنْدَهُم .

فَهُمْ قَومٌ يُكْثِرُونَ مِنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَالذِّكْرِ الْمَشْرُوعِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ فِي الْمَسَاجِدِ، ولَا تَكَادُ تَجِدُ رَجُلاً مِنهُم يَتَخَلَّفُ عَنْ صَلَاةِ الجَمَاعَةِ؛ لَا يَخُوضُونَ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ، ولَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِخَيرٍ، وَيَبْتَعِدُونَ كُلَّ البُعْدِ عَنِ الخَوضِ فِي الخِلَافَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ، حَتَّى تَظَلَّ قُلُوبُهُم مُؤْتَلِفَةً عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّ الخَوضَ فِي الخِلَافِ كَثِيراً مَا يُحْدِثُ العَدَاوَةَ

www.saida-islam.weebly.com

وَالبَغْضَاءَ بَينَ الْمُتَحَابِّينَ، الأَمْرُ الَّذِي يُمَزِّقُ وِحْدَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ، وَيُذْهِبُ رِيحَهُم، ويَشْغَلُهُم بِأَنْفِسِهِم عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِم، وَتَأْدِيَةِ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيهِم [١] .

وهُمْ أَغْنِيَاءُ بِاللهِ، فُقَرَاءُ إِلَيهِ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ شَيئاً، ولَا يَتَّخِذُونَ عَلَى دَعْوَتِهِم إِلَى اللهِ أَجْراً، ولَا يَنْزِلُونَ ضُيُوفاً عَلَى أَحَدٍ، بُيُوتُهُمُ الْمَسَاجِدُ، ولَا يَعْتَمِدُ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ فِي النَّفَقَاتِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُم يُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ مَالِهِ الخَاصِّ فِي السَّفَرِ والحَضَرِ، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ وَاحِداً مِنهُم يَعِيشُ عَالَةً عَلَى غَيرِهِ .

لَيسَ لَدَيهِم أَمِيرٌ دَائِمٌ، فَكُلُّهُم أُمَرَاءُ، إِذَا خَرَجُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمَّرُوا عَلَيهِم وَاحِداً مِنهُم، بَعْضُهُم خَدَمٌ لِبَعْضٍ، لَا يُحِبُّ وَاحِدٌ مِنهُم أَنْ يَتَمَيَّزَ عَلَيهِم فِي شَيْءٍ، فَتَرَى أَكْبَرَهُم سِنًّا، وَأَكْثَرَهُم عِلْماً، وَأَوْفَرَهُم مَالاً، وَأَعْلَاهُم مَنْصِباً، يَطْهُو الطَّعَامَ، وَيُعِدُّهُ لِإِخْوَانِهِ، فِي تَوَاضُعٍ جَمٍّ، وَسَمَاحَةِ نَفْسٍ، وَسَلَامَةِ طَبْعٍ، وَحُسْنِ خُلُقٍ .

وَقَدْ رَأَيْتُهُم يُحِبُّونَ العُلَمَاءَ وَيُجِلُّونَهُمُ الإِجْلَالَ كُلَّهُ؛ وَمِنْ آدَابِهِم فِي تَوقِيرِ العُلَمَاءِ : خَفْضُ الصَّوتِ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَحُسْنُ الإِنْصَاتِ إِلَيهِم، وَالتَّفَانِي فِي خِدْمَتِهِم، وَالتَّغَاضِي عَنْ هَفَوَاتِهِم وَزَلَّاتِهِم، وَطَلَبُ الدُّعَاءِ مِنهُم؛ وَمَا رَأَيْتُ قَوماً أَطْوَعَ إِلَى العُلَمَاءِ العَامِلِينَ مِنهُم .

وَهُمْ قَومٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِي السِّيَاسَةِ، وَلَا يَخُومُونَ حَولَهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ فِي الْمُشْكِلَاتِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَقْضِي بِهِ الضَّرُورَةُ، وَمَبْلَغُ هَمِّهِمْ طَلَبُ الآخِرَةِ، مَعَ الاِحْتِفَاظِ بِنَصِيبِهِم مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا .

وَهَؤُلَاءِ الكِرَامُ البَرَرَةُ لَا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَونَ أَهْلِيهِم وَذَوِيْ رَحِمِهِمْ، بَلْ يَجْعَلُونَ لَهُمُ النَّصِيبَ الأَكْبَرَ مِنْ أَوْقَاتِهِم، فِي تَرْبِيَتِهِم عَلَى الفَضَائِلِ، وَتَنْشِئَتِهِم عَلَى حُبِّ العَمَلِ الصَّالِحِ،

---

(١) قلت : وللوقوف على الإجابة التفصيلية الشَّافية عن عدم خوضهم في الخلافات المذهبية وغيرها من الأسئلة المهمَّة التي تكثر حول هذا العمل المبارك فليقرأ كتاب «**الجَوَاب الشَّافِيْ البَلِيغ** لكثير من التساؤلات حول جهد الدعوة والتبليغ» للعبد الفقير، ففيه ما يروي الغليل ويشفي العليل لمن أراد وجهَ ربِّهِ الجليل.

www.saida-islam.weebly.com

وَيُعِدُّونَهُم إِعْدَاداً صَحِيحاً لِتَحَمُّلِ أَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ والخُرُوجِ في سَبِيلِهِ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ؛ فَتَرَاهُمْ يَصْحَبُونَ مَعَهُم أَبْنَاءَهُم إِلَى الْمَسَاجِدِ، لإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالجُلُوسِ في حَلْقَاتِ العِلْمِ؛ وَمِنْهُم مَنْ يُرْسِلُ أَبْنَائَهُ إِلَى الهِنْدِ وَبَاكِسْتَانَ، لِيَتَشَرَّبَ هُنَاكَ مَعَ رِجَالِ التَّبْلِيغِ والدَّعْوَةِ أُصُولَ العَمَلِ، وَيَتَذَوَّقَ حَلَاوَتَهُ، وَيَحْفَظَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ كُتُبِ السُّنَّة، ثُمَّ يَعُودَ رَاشِداً إِلَى بَلَدِهِ دَاعِياً وَمُعَلِّماً .

وَلَعَلَّكَ أَيُّهَا الأَخُ الكَرِيمُ تَسْأَلُنِي عَنِ الأُصُولِ الأَرْبَعِينَ الَّتِي اعْتَمَدَتْ عَلَيهَا «جَمَاعَةُ التَّبْلِيغُ وَالدَّعْوَةِ» في نَشْرِ الإِسْلَامِ، وَهِدَايَةِ العُصَاةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِحْيَاءِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَيْنَ هِيَ ؟ وَكَيفَ الحُصُولُ عَلَيهَا ؟

فَإِنْ سَأَلْتَ عَنْهَا فَاسْأَلْ خَبِيراً بِهَا، وَإِنَّكَ لَوِ الْتَقَيتَ بِهِمْ، وَأَسْعَدَكَ الحَظُّ الْمُقَدَّرُ لَكَ أَنْ تَجْلِسَ مَعَهُمْ، وَأَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ مِنهُم وَالقُدَامَى مِنْ رِجَالِهِمْ، فَإِنَّكَ سَتَتَعَرَّفُ عَلَى هَذِهِ الأُصُولِ مِنْ خِلَالِ أَفْعَالِهِم وَأَقْوَالِهِم وَحَرَكَاتِهِم وَسَكَنَاتِهِم، مِنْ غَيرِ عَنَاءٍ في البَحْثِ عَنهَا هُنَا وَهُنَاكَ، وَسَوفَ أُفْرِدُهَا في كِتَابٍ خَاصٍّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَإِنِّي لَا أَحْرِمُكَ هُنَا مِنْ ذِكْرِ أَهَمِّهَا إِجْمَالاً؛ فَأَقُولُ :

قَدْ نَظَرَ أُوْلَئِكَ الأَعْلَامُ الَّذِينَ أَسَّسُوا هَذِهِ الجَمَاعَةَ الْمُجَاهِدَةَ في سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَسِيرَةِ أَصْحَابِهِ الكِرَامِ البَرَرَةِ ﷺ، وَاسْتَطَاعُوا بَعْدَ التَّأَمُّلِ العَمِيقِ في عِبَادَاتِهِم وَمُعَامَلَاتِهِم وعَادَاتِهِم، فَوَجَدُوا أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ عَنِ الأَوْصَافِ الآتِيَةِ :

(١) صِدْقِ اليَقِينِ : وَمِنْ ثَمَرَاتِهِ الاِعْتِمَادُ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ، وَالثِّقَةُ الكَامِلَةُ بِفَضْلِهِ، وَحُسْنُ التَّوَكُّلِ عَلَيهِ، مَعَ الأَخْذِ بِالأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ في تَحْصِيلِ الأَرْزَاقِ وَقَضَاءِ الحَاجَاتِ .

(٢) تَصْحِيحِ النِّيَّةِ؛ وَمَعْنَاهُ مُرَاقَبَةُ النَّفْسِ وَمُحَاسَبَتُهَا أَوَّلاً بِأَوَّلٍ، وَتَعْدِيلُ مَسَارِهَا في الحَيَاةِ، وَرَدُّهَا إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّمَا غَفِلَتْ عَنْ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، حَتَّى يَصِلَ بِهَا إِلَى الأَمْنِ الْمَنْشُودِ، الَّذِي نَبَّأَنَا اللهُ عَنهُ بِقَولِهِ في سُورَةِ الأَنْعَامِ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام:٨٢]، أَيْ أُوْلَئِكَ لَهُمُ

www.saida-islam.weebly.com

الأَمْنُ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَالسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ فِي نِعْمَةِ الأَمْنِ، وَالأَمْنُ يَتْبَعُ الإِيْمَانَ، بَلْ هُوَ –أَيِ الإِيمَانُ – مَنْبَعُهُ وَمَصَبُّهُ .

(٣) حُسْنِ الِاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ، بِقَدْرِ الطَّاقَةِ، بِاسْتِثْنَاءِ مَا يَخُصُّهُ وَحْدَهُ دُونَ سَائِرِ أُمَّتِهِ .

(٤) طَلَبِ العِلْمِ الْمُوصِلِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَبَذْلِهِ لِمَنْ يَطْلُبُهُ؛ فَالنَّاسُ هَلْكَى إِلَّا عَالِماً وَمُتَعَلِّماً .

(٥) إِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ، بِخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ وَتَمَسْكُنٍ وَتَوَاضُعٍ؛ فَإِنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَهْتَمُّونَ كَثِيراً بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ، وَلَا يَكَادُ يَتَخَلَّفُ وَاحِدٌ مِنهُم عَنِ الجَمَاعَةِ إِلَّا لِعُذْرٍ قَاهِرٍ، لِقَولِهِ ﷻ : ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣].

(٦) إِكْرَامِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، وَبَذْلِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيهِ، بِسَخَاءٍ وَطِيبِ نَفْسٍ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَحْمِلُوهُم عَلَى السُّؤَالِ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، مَعَ التَّعَفُّفِ وَالزُّهْدِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِم، أَوْ فِي أَيْدِي غَيرِهِم مِنَ النَّاسِ .

وَالسَّخَاءُ – كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ – سَخَاءَانِ : سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَا فِي يَدَيهِ، وَسَخَاوَتُهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَمَنْ جَمَعَ بَينَهُمَا فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الجُودَ وَالكَرَمَ .

وَيَدْخُلُ فِي إِكْرَامِ الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَعْرَاضِهِم وَأَمْوَالِهِم، وَالْكَفُّ عَنِ النَّظَرِ فِي عَورَاتِهِم، وَتَتَبُّعِ مَسَاوِئِهِم بِقَصْدِ إِحْرَاجِهِم، أَوِ الشَّمَاتَةِ فِيهِمْ .

(٧) الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ البَينِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ .

(٨) الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ؛ وَقَدْ شَرَطُوا لِهَذَا الخُرُوجِ أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ :

الخُرُوجَ بِالنَّفْسِ، وَالْمَالِ الحَلَالِ، وفِي الوَقْتِ الحَلَالِ، وَبِالِافْتِقَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى .

www.saida-islam.weebly.com

وَمَعْنَى الخُرُوجِ بِالنَّفْسِ : الخُرُوجُ عَنْ رَغْبَةٍ وَرِضاً وَإِخْلَاصٍ؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ يُجَهِّزَ بِالْمَالِ مَنْ يَخْرُجُ مَكَانَهُ، فَإِنَّ خُرُوجَهُ بِنَفْسِهِ فِيهِ مِنَ الخَيرَاتِ وَالبَرَكَاتِ وَالتَّهْذِيبِ وَالتَّقْوِيمِ مَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ خَرَجَ فِعْلاً، وَهَاجَرَ إِلَى اللهِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ، فَارًّا بِنَفْسِهِ مِنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ .

وَالخُرُوجُ بِالْمَالِ الحَلَالِ : يَجْعَلُ العَمَلَ صَحِيحاً مَقْبُولاً، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ نُصُوصِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ . وَالْمُرَادُ بِالوَقْتِ الحَلَالِ : الوَقْتُ الَّذِي لَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ مُكَلَّفاً فِيهِ بِعَمَلٍ ضَرُورِيٍّ، يَتَطَلَّبُ وُجُودَهُ فِي بَلَدِهِ، أَوْ بِعَمَلٍ أَخَذَ عَلَيهِ أَجْراً، فَمَنْ أَخَذَ الأَجْرَ طَالَبَهُ اللهُ بِالعَمَلِ . وَمَعْنَى الخُرُوجِ بِالِافْتِقَارِ إِلَى اللهِ : أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيهِ ﷻ فِي تَحْقِيقِ الْمُرَادِ مِنَ الخُرُوجِ، فَلَا يَغْتَرَّ بِعِلْمِهِ، وَلَا بِقُوَّتِهِ، وَلَا بِكَثْرَةِ مَالِهِ، وَلَا بِعَظَمَةِ جَاهِهِ وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ .

وفِي أَثْنَاءِ الخُرُوجِ يُقِيمُونَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ : هِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، وَالعِلْمُ وَالتَّعَلُّمُ، وَالعِبَادَةُ وَالذِّكْرُ، وَخِدْمَةُ الْمُسْلِمِينَ .

وَيَلْتَزِمُونَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : طَاعَةِ الأَمِيرِ، وَالعَمَلِ الجَمَاعِيِّ، وَآدَابِ الْمَسَاجِدِ، وَالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ؛ وَيَمْتَنِعُونَ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : الإِشْرَافِ، وَالإِسْرَافِ، وَسُؤَالِ غَيرِ اللهِ ﷻ، وَعَدَمِ اسْتِعْمَالِ حَاجَةِ الغَيرِ إِلَّا بِإِذْنِهِ . وَالإِشْرَافُ : هُوَ تَمَنِّيْ مَا عِنْدَ الغَيرِ .

وَيُقَلِّلُونَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : الطَّعَامِ، وَالْمَنَامِ، وَالكَلَامِ فِي غَيرِ ذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَوَقْتِ قَضَاءِ الحَاجَاتِ . هَذِهِ هِيَ جَمَاعَةُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ، وَهَذِهِ هِيَ أَهَمُّ الأُصُولِ الَّتِي اعْتَمَدُوا عَلَيهَا فِي نَشْرِ دِينِ اللهِ، وَحِمَايَتِهِ، وَنُصْرَتِهِ، وَتَطْبِيقِ أَحْكَامِهِ وَآدَابِهِ [١] .

فَبَدَأَت – وَللهِ الحَمْدُ – هَذِهِ الصِّفَاتُ والآدَابُ تَتَحَقَّقُ فِي الخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ تَدْرِيجِيّاً، وبَدَأَ النَّاسُ يَعُودُونَ إِلى الدِّيْنِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَصَارَ كَثِيْرٌ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْرَاداً وَأَفْوَاجاً، وَانْتَشَرَتِ الْمَسَاجِدُ والْمَدَارِسُ الدِينِيَّةُ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ، وَبَدَأَتِ الحَيَاةُ الإِسْلامِيَّةُ تَعُودُ تَدْرِيجِيّاً إِلى حَيَاةِ الْكَثِيْرِيْنَ .

---

(١) من مقدمة الدكتور محمد بكر إسماعيل على كتاب «حياة الصحابة للكاندهلوي» (١١-١٤) .

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ

أَمْثِلَةٌ وَاقِعِيَّةٌ تُبَيِّنُ أَثَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي إِعَادَةِ الرُّوحِ الإِيْمَانِيَّةِ وصِفَاتِهَا إِلَى حَيَاةِ الأُمَّةِ، وإِعَادَةِ الأُمَّةِ إِلَى إِيْمَانِهَا وَوَظِيفَتِهَا الدَّعَوِيَّةِ :

لَقَدْ تَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الْمَعَاشِ والْمَعَادِ؛ وَأَنَّ بَابَ وَسَائِلِ تَبلِيغِ الدِّينِ يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى الْمَصْلَحَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الوَسِيلَةِ، وَلَا يُشْتَرَطُ ثُبُوتُ الوَسِيلَةِ بِعَينِهَا بِدَلِيلٍ خَاصٍّ حَتَّى تَكُونَ مَشْرُوعَةً، بَلْ إِنَّ مَشْرُوعِيَّتَهَا مُرْتَبِطَةٌ بِتَوَفُّرِ شَرَائِطِ القَبُولِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَالَّتِي مِنهَا : أَنْ تَكُونَ فِي هَذِهِ الوَسِيلَةِ الْمُحْدَثَةِ مَصْلَحَةٌ شَرعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَأَهَمُّ الْمَصَالِحِ الَّتِي يُهْتَمُّ بِهَا هِيَ حِفْظُ الدِّينِ وإِقَامَتُهُ وَنَشْرُهُ فِي النَّاسِ، بِدَلِيلِ قَولِ عُمَرَ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ فِي جَمْعِ القُرْآنِ : **هُوَ وَاللهِ خَيرٌ** . أَيْ : فِيهِ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ؛ فَأَقَرَّهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ؛ وَقَدْ أُمِرْنَا بِالتَّمَسُّكِ بِسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَهِيَ هُنَا : النَّظَرُ فِي مَا يُصلِحُ دِيْنَ الأُمَّةِ، بِحِفْظِهِ وَبَقَاءِهِ، وَإِقَامَتِهِ وَنَشْرِهِ، وَلَوْ كَانَتِ الوَسِيلَةُ مُحدَثَةً؛ وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ هَذَا مِرَاراً؛ وَلَكِنِّي ذَكَرْتُهُ هُنَا لِمُنَاسَبَةِ بَيَانِ الْمَصَالِحِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ بِهَذَا الجُهْدِ العَظِيمِ الْمُبَارَكِ؛ حَيثُ إِنَّ ثَمَرَاتِهِ وَمَصَالِحَهُ قَدْ ظَهَرَتْ وَتَحَقَّقَتْ يَقِيناً بِدُوْنِ شَكٍّ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَهَا، لِظُهُورِ نَفْعِهَا، وَعُمُومِ شُهرَتِهَا؛ فَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ تُخْرِجُ ثَمَرَاتُهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا طَيِّبَةً، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا** ﴾. وَصَحَّ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ** "[(١)]. كَمَا أَنَّ الشَّرَّ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالشَّرِّ[(٢)]. وَرُوِيَ عَنِ الْمَسِيحِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ : **مِنْ ثِمَارِهِم تَعرِفُونَهُم : هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوكِ عِنَباً ؟ أَو مِنَ الحَسَكِ تِيناً ؟ هَكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصنَعُ أَثْمَاراً**

---

(١) رواه البخاري (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢) عن أبي سعيد الخدريِّ.

(٢) قال الإمامُ ابنُ حَزمٍ الأندلسيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَاعْلَمُوا رحمكم الله أن جَمِيع فرق الضَّلَالَة لم يُجْرِ اللهُ عَلَى أَيْديهم خيراً، وَلَا فتح بهم من بِلَاد الْكفْر قَوِيَّةً، وَلَا رفع لِلْإِسْلَامِ رايةً، وَمَا زَالُوا يسعون فِي قلب نظام الْمُسلمين، ويفرقون كلمة الْمُؤمنِينَ، ويسلون السَّيْف على أهل الدّين، ويسعون فِي الأَرْض مفسدين.. «الفصل في الملل والنحل» (٤/١٧١) .

www.saida-islam.weebly.com

جَيِّدَةً، وأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَاراً رَدِيَّةً. لَا تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ ثِمَاراً رَدِيَّةً، ولَا شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَاراً جَيِّدَةً (١) . وَهَا هِيَ بَعْضُ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ الْمُبَارَكَةِ :

الرِّسَالَةُ الأُوْلَى :

قَالَ العَلَّامَةُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ (٢) : وأَنَا أَضْرِبُ لَكُم أَيُّهَا السَّادَةُ لِذَلِكَ مَثَلاً عَمَلِيّاً : رُقْعَةٌ ذَاتُ مَسَاحَةٍ وَاسِعَةٍ فِي جَنُوبِ دِهْلِي، تَقْطُنُهَا أَرْبَعَةُ مَلَايِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وقَدْ أَسْلَمُوا فِي زَمَنٍ قَدِيمٍ، ولَكِنْ كَانَ إِسْلَامُهُم سَطْحِيّاً، فَلَمْ يَتَأَثَّرُوا بِالإِسْلَامِ كَثِيراً، ولَمْ تَنْقَطِعْ صِلَتُهُم بِحَيَاتِهِمُ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى، وبَقِيَتْ فِيهِم أَوْ تَسَرَّبَتْ فِيهِم مِنْ جِيرَانِهِمُ الكُفَّارِ شَعَائِرُ الجَاهِلِيَّةِ : أَسْمَاءُ غَيرُ إِسْلَامِيَّةٍ، أَعْمَالٌ وَثَنِيَّةٌ، أَخْلَاقٌ هَمَجِيَّةٌ، وعَادَاتٌ وتَقَالِيدُ هِنْدُكِيَّةٌ، يَطُوفُ كَثِيرٌ مِنهُم حَولَ الصَّنَمِ، ويُقَرِّبُونَ لَهُ القَرَابِينَ، ويُقَدِّسُونَ رَوْثَ البَقَرِ، ويَخْشَونَ آلِهَةَ القَبَائِلِ، ويَحْتَفِلُونَ بِأَعْيَادِ الْمُشْرِكِينَ، وقَدْ نَسِيَ كَثِيرٌ مِنهُم كَلِمَةَ الإِسْلَامِ، وطَالَ عَهْدُهُم بِالصَّلَاةِ حَتَّى نَسُوا شَكْلَهَا، فَإِذَا رَأَوْا أَحَداً يُصَلِّي كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَداً، ويَرْمُونَهُ بِالجُنُونِ أَوِ الخَبَلِ، والْمَسَاجِدُ فِي أَرْضِهِمْ نَادِرَةٌ جِدّاً .

---

(١) «إنجيل متى» (٧/١٥ - ٢٠) .

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الحي الحسني الندويُّ، العلَّامة المفضال، كما قال عنه الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ينتهي نسبه إلى آل بيت النُّبوة الأطهار، من نسب الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عالِمٌ مُتَضَلِّعٌ مُحَقِّقٌ ودَاعِيَةٌ مُتَمَرِّسٌ، وكَاتِبٌ أديب مفكرٌ، كان كثير السَّفر لدول العالم، لنُصرة قضايا المسلمين والدَّعوة للإسلام وشرح مبادئه، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية والمؤتمرات، وتقلد رئاسة المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ - الهند -، ورئاسة مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي، ورئاسة مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وعضوية المجمع الفقهي، والمجلس الأعلى برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضوية رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط، وعضوية مجامع اللغة العربية في كلٍّ من : دمشق والقاهرة وعمَّان، وعضوية المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة؛ وللعَلَّامة الندويِّ ما يزيد على مائتي مؤلَّفٍ باللغة العربية، تُرجِمَ بعضُها إلى لُغَاتٍ أُخرَى، وغير ذلك كثير باللُّغات الأردية والهندية .

www.saida-islam.weebly.com

وأَمَّا العِلْمُ الدِّينِيُّ فَقَدْ كَانَ فِي هَذِهِ القِطْعَةِ كَالكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ، وقَدْ أَصْبَحُوا بِبُعْدِهِم عَنِ الدِّينِ وتَعَالِيمِهِ، والإِنْحِطَاطِ فِي الخُلُقِ، والإِمْعَانِ فِي الجَهَالَةِ والأُمِّيَّةِ، مَثَلاً فِي الأَدَبِ الهِنْدِيِّ لِسُوءِ الأَخْلَاقِ، ورَمْزاً لِلُّصُوصِيَّةِ والإِغَارَةِ، وقَدْ أَتْعَبُوا حُكُومَةَ دِهْلِي فِي عَهْدِ دَولَةِ الْمَمَالِيكِ، حَتَّى أَلْجَئُوهَا إِلَى غَزْوِهِم فِي بَلادِهِم، وكَبحِ جِمَاحِهِم، وقَطَعَتْ لِذَلِكَ بُعُوثاً، وأَخِيراً أَرْسَلَتْ جَيشاً كَثِيفاً أَوْغَلَ فِي بِلَادِهِم، وخَضَدَ شَوكَتَهُم، فَاسْتَرَاحَ أَهْلُ دِهْلِي مِن غَارَتِهِم، إِلَّا أَنَّهُم لَمْ يَتْرُكُوا اللُّصُوصِيَّةَ وقَتَلَ النُّفُوسِ وسَرِقَةَ السَّائِمَةِ.

بَقِيَتْ هَذِهِ الرُّقْعَةُ الوَاسِعَةُ مِنْ أَرْضِ الهِنْدِ وهِيَ مِنَ العَاصِمَةِ الإِسْلَامِيَّةِ والْمَرْكَزِ الثَّقَافِيِّ عَلَى طَرَفِ التَّمَامِ، وبَقِيَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ الْمَوْهُوبَةُ النَّجِيبَةُ القَوِيَّةُ مَهْجُورَةً قُرُوناً طِوَالاً لَا تَرْغَبُ حُكُومَةٌ فِي تَعْلِيمِهَا وتَثْقِيفِهَا، ولَا يَعْتَنِي مُصْلِحٌ دِينِيٌّ بِتَقْوِيمِ عَوَجِهِم، حَتَّى كَانَ العَقْدُ الثَّانِي مِنَ القَرْنِ العِشْرِينَ الْمَسِيحِيِّ، فَاشْرَأَبَّ الإِرْتِدَادُ فِي الأُمَمِ الَّتِي انْتَقَلَتْ مِنَ الوَثَنِيَّةِ إِلَى الإِسْلَامِ قَبلَ قُرُونٍ، وحَشِيَ أَهْلُ النَّظَرِ عَلَى أَهْلِ مِيْوَاتَ الإِرْتِدَادَ أَيْضاً؛ هُنَالِكَ قَيَّضَ اللهُ ﷻ لِلْإِسْلَامِ رَجُلاً مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ، والعُلَمَاءِ العَامِلِينَ، وهُوَ مَولَانَا مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ الكَانْدَهْلَوِيُّ الدِّهْلَوِيُّ؛ فَطَافَ فِي هَذِهِ القِطْعَةِ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا، وأَوْغَلَ فِي أَوْدِيَتِهَا وسُهُولِهَا وجِبَالِهَا، وتَحَمَّلَ فِي ذَلِكَ مَشَاقَّ السَّفَرِ والجُوعِ والسَّهَرِ، وتَعَرَّضَ لِلخَطَرِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً وجِهَاداً فِي سَبِيلِ الدِّينِ، وشَاهَدَ مَا عَلَيهِ النَّاسُ مِنْ جَهَالَةٍ وغَفْلَةٍ عَنِ الدِّينِ، فَلَمْ يَرَ بُدّاً مِنْ نَشْرِ الدِّينِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ، وتَأْسِيسِ الْمَدَارِسِ والْمَكَاتِبِ لِذَلِكَ.

حَثَّ الشَّيخُ أَهْلَ البِلَادِ عَلَى تَأْسِيسِ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ، وكَانَتْ لَهُ مَعَهُم أَوَاصِرُ دِينِيَّةٌ قَدِيمَةٌ، وأَلَحَّ عَلَيهِم فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَرَ فِيهِم رَغْبَةً وإِقْبَالاً عَلَيهِ، ورَأَى مِنهُم إِحْجَاماً وفِرَاراً، ولَمْ يَزَلْ يَفْتِلُ فِي غَارِبِهِم حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ تَأْسِيسِ عِدَّةِ مَكَاتِبَ بَعْدَ جُهْدٍ طَوِيلٍ وسُؤَالٍ مُلِحٍّ، وتَوَلَّى نَفَقَاتِهَا وتَكَالِيفَهَا .

تَأَسَّسَتِ الْمَكَاتِبُ وجَرَتْ مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيَّ، ولَكِنْ تَأَسَّفَ الشَّيخُ جِدّاً لَمَّا رَأَى أَنَّ أَهْلَ مِيوَاتَ لَا يَتَعَاوَنُونَ عَلَى ذَلِكَ، وحَتَّى النَّاسُ لَا يَسْمَحُونَ لِأَوْلَادِهِم بِالتَّعَلُّمِ فِيهَا، ويَعُدُّونَ ذَلِكَ ضَيَاعاً لِلْعُمُرِ، لِأَنَّهُم لَا يَعْرِفُونَ قِيمَةَ العِلْمِ والدِّينِ، ولَا يَعُدُّونَهُمَا حَاجَةً مِنْ حَاجَاتِهِم،

www.saida-islam.weebly.com

فَأَصْبَحَتِ الْمَدَارِسُ الدِّينِيَّةُ فِي بِلَادِهِم كَالقُنْصُلِيَّةِ الأَجْنَبِيَّةِ فِي بِلَادٍ لَا دَخْلَ لَهَا فِي حَيَاةِ البِلَادِ، ولَا رَغْبَةَ لِلأُمَّةِ فِي شُؤُونِهَا، وإِنَّمَا تَلْجَأُ إِلَيهَا فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ؛ ورَأَى أَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِسَ كَجَزِيرَةٍ فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ، يُحِيطُ بِهَا الْمَاءُ مِنْ أَرْبَعَةِ جَوَانِبَ، فَالَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ فِيهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْ سُلْطَانِ البِيْئَةِ ونُفُوذِ الْمُجْتَمَعِ، وإِذَا خَرَجُوا مِنهَا ودَخَلُوا فِي مُعْتَرَكِ الحَيَاةِ وهِيَ ثَائِرَةٌ عَلَى الدِّينِ أَضَاعُوا عِلْمَهُم، وضَاعَتْ فِيهِم تِلْكَ الجُهُودُ الَّتِي صُرِفَتْ فِي تَعْلِيمِهِم وتَربِيَتِهِم الدِّينِيَّةِ، وضَاعَتْ فِيهِم تِلْكَ الأَمْوَالُ الَّتِي أُنْفِقَتْ عَلَيهِم طُولَ الْمُدَّةِ .

فَعَرَفَ بَعدَ هَذَا الِاخْتِبَارِ أَنَّ الجُهُودَ التَّعْلِيمِيَّةَ لَا تُثْمِرُ ولَا تُنْتِجُ مَا دَامَ الْمُحِيطُ ثَائِراً عَلَيهَا مُزَاحِماً لَهَا، وأَنَّ الْمَدَارِسَ والْمَكَاتِبَ والإِصْلَاحَ لَا يُؤَثِّرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلأُمَّةِ رَغْبَةٌ عَامَّةٌ والْتِمَاسٌ لِلدِّينِ وشُعُورٌ بِنَقْصِهَا الدِّينِيِّ، وأَنَّ الْمُتَخَرِّجِينَ مِنهَا لَا يُؤَثِّرُونَ فِي الحَيَاةِ، ولَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى دِينِهِم وخُلُقِهِم مَا دَامُوا فِي الأُمَّةِ وفِي أُسَرِهِم ومُجْتَمَعِهِم كَالأَجَانِبِ والغُرَبَاءِ. ثُمَّ رَأَى أَنَّ الَّذِينَ يَتَلَقَّونَ العِلْمَ فِي الْمَدَارِسِ هُمْ عَدَدٌ قَلِيلٌ جِدّاً يُعَدُّونَ عَلَى الأَصَابِعِ، وأَنَّ هَذَا العَدَدَ القَلِيلَ لَا يُقْتَنَعُ بِهِ فِي إِصْلَاحِ أُمَّةٍ، وأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِسَ إِنَّمَا تَنْقُلُ العِلْمَ إِلَى أَفْرَادٍ – والأُمَّةُ عَلَى حَالِهَا – ولَكِنْ تَحْتَاجُ إِلَى مَشْرُوعٍ يَنْقُلُ الأُمَّةَ فَضْلاً عَنِ الأَفْرَادِ إِلَى الدِّينِ والعِلْمِ، وذَلِكَ هُوَ الفَرْقُ بَينَ الْمُعَلِّمِينَ والْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّ الْمُعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَنْقُلُونَ العِلْمَ إِلَى الأَفْرَادِ، والأَنْبِيَاءُ يَنْقُلُونَ الأُمَمَ إِلَى غَايَاتِ العِلْمِ ولُبَابِهِ، وأَنَّ الْمَشَارِيعَ التَّعْلِيمِيَّةَ تُقَسِّمُ العِلْمَ بَينَ الأُمَّةِ قِسْمَةً ضِيزَى، فَتَجْتَمِعُ كَمِّيَّاتٌ كَبِيرَةٌ مِنَ العِلْمِ عِندَ أَفْرَادٍ، ويَبْقَى سَائِرُ النَّاسِ كَالهَمَجِ الرِّعَاءِ، فَلَو قُسِّمَ هَذَا العِلْمُ عَلَى الأُمَّةِ لَوَسِعَهُم، وإِنَّهَا كَالرِّبَا يُصْبِحُ بِهِ أَفْرَادٌ مِنَ النَّاسِ أَصْحَابَ ثَرَوَاتٍ كَبِيرَةٍ، وسَائِرُ النَّاسِ لَا يَجِدُونَ كَفَافاً .

ثُمَّ رَأَى أَنَّ الَّذِينَ قَدْ خَرَجُوا مِنْ سِنِّ الدِّرَاسَةِ والتَّعْلِيمِ وتَقَدَّمَ بِهِمُ العُمُرُ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَذِهِ الْمَدَارِسِ، ولَا يَفْسَحُ وَقْتُهُم لِلتَّعَلُّمِ فِيهَا، فَلَا بُدَّ إِذاً مِنْ دَعْوَةٍ عَامَّةٍ إِلَى تَعْلِيمِ الدِّينِ بِطَرِيقَةٍ وَجِيزَةٍ سَهْلَةٍ طَبِيعِيَّةٍ، لَا تَشُقُّ عَلَيهِم ولَا تَطُولُ، وتَشْمَلُ جَمِيعَ طَبَقَاتِ الأُمَّةِ؛ ولَكِنْ كَيفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ وقَدِ اسْتَولَتِ الحَيَاةُ الدُّنْيَوِيَّةُ وتَكَالِيفُهَا عَلَى ابْنِ القَرْنِ العِشْرِينَ، وأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ القُلُوبِ، وأَسَرَتِ الرُّوحَ، وغَلَّتِ الأَيْدِي، وصَفَّدَتِ الأَقْدَامَ، فَأَصْبَحَ الإِنْسَانُ فِي القَرْيَةِ

www.saida-islam.weebly.com

والْمَدِينَةِ رَهِينَ بَطْنِهِ، أَسِيرَ شُغْلِهِ، جَلِيسَ بَيتِهِ أَوْ حَانُوتِهِ أَوْ وَظِيفَتِهِ، ومَاتَتْ فِي النَّاسِ العَاطِفَةُ الدِّينِيَّةُ، ورَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا، اهْتَدَى الشَّيخُ بِفِرَاسَتِهِ الإِيْمَانِيَّةِ ونَظَرِهِ الثَّاقِبِ، وبِمُجَاهَدَتِهِ فِي سَبِيلِ الدِّينِ، لِقَولِ اللهِ ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾، وبِدِرَاسَتِهِ العَمِيقَةِ النَّادِرَةِ لِأُصُولِ الدِّينِ إِلَى مَرْكَزِ العِلَّةِ فِي جِسْمِ هَذِهِ الحَيَاةِ، وهُوَ الاِسْتِغْنَاءُ فِي أَمْرِ الدِّينِ، والإِخْلَادُ إِلَى الحَيَاةِ، فَضَرَبَ عَلَى الوَتَرِ الحَسَّاسِ، ودَعَا النَّاسَ فِي مِيْوَاتَ أَوّلاً، وفِي الْمُدُنِ الهِنْدِيَّةِ آخِراً إِلَى تَفْرِيغِ أَوْقَاتِهِم أَرْبَعِينَ يوماً أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مَثَلاً لِلدِّينِ، وَانْقِطَاعٍ إِلَى تَعَلُّمِهِ لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ، فَكَانَتْ دَعْوَةً غَرِيبَةً طَارِئَةً، ولَكِنَّ الشَّيخَ لَمْ يَفْشَلْ، ولَمْ يَيْئَسْ، وَاسْتَمَرَّ فِي دَعْوَتِهِ ودُعَائِهِ، حَتَّى لَبَّى النَّاسُ دَعْوَتَهُ، وخَرَجَتْ عَصَائِبُ إِلَى مَرَاكِزِ العِلْمِ والدِّينِ، وعَلَيهَا أَمْيرٌ مِنهُم يَرْأَسُهُم، ومُعَلِّمٌ يُعَلِّمُهُم مَبَادِئَ الدِّينِ وأَحْكَامَهُ، والقُرْآنَ وقَصَصَ الصَّحَابَةِ، وأَخْبَارَ جِهَادِهِم وجُهْدِهِم فِي سَبِيلِ الدِّينِ، وحُبِّهُم لِلرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتِهَانَتِهِم بِهَذِهِ الحَيَاةِ، وحَنِينِهِم لِلآخِرَةِ، وتَوْقِهِم إِلَى الجَنَّةِ، وإِيْثَارِهِم عَلَى النَّفْسِ، وزُهْدِهِم فِي الدُّنْيَا، ومُسَارَعَتِهِم فِي سَبِيلِ الخَيرِ، وخَشْيَتِهِم للهِ ﷻ، إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ السَّاكِنَ مِنْ قُلُوبِهِم، ويُنِيرُ الكَامِنَ مِنْ عَوَاطِفِهِم، ويُذْرِفُ الجَامِدَ مِنْ عُيُونِهِم، ويُشْعِلُ فِيهِم الحَيَاةَ الإِسْلَامِيَّةَ؛ ثُمَّ يَخْرُجُونَ فِي أَوْقَاتٍ مُنَاسِبَةٍ، فَيَطُوفُونَ فِي القُرَى، ويَمُرُّونَ عَلَى البُيُوتِ، ويُحَادِثُونَ النَّاسَ فِي أَمْكِنَتِهِم، ويَغْشَونَهُم فِي أَنْدِيَتِهِم، فَيَجْلِسُونَ إِلَيهِم، ويُحَرِّضُونَهُم عَلَى الإِقْبَالِ عَلَى الدِّينِ، ويُفَهِّمُونَهُم الغَرَضَ الَّذِي خُلِقُوا لِأَجْلِهِ، والغَايَةَ الَّتِي بُعِثُوا لَهَا، وأَنَّهُم لَمْ يُخْلَقُوا عَبَثاً، ولَمْ يُتْرَكُوا سُدىً، ويُرَهِّبُونَهُم مِنَ النَّارِ، ويُشَوِّقُونَهُم إِلَى الجَنَّةِ، ويُرَغِّبُونَهُم فِي تَعَلُّمِ الدِّينِ، والْمُبَادَرَةِ إِلَى ذَلِكَ، ويُخَوِّفُونَهُم مِنَ التَّسْوِيفِ والْمُمَاطَلَةِ، ويَدْعُونَهُم إِلَى مَرْكَزِهِمُ الَّذِي قَدْ أَقَامُوا فِيهِ، لِيُكَلِّمُوهُم فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فِي لُطْفٍ ورِفْقٍ ولِينٍ واحْتِرَامٍ لِإِيْمَانِ الْمُخَاطَبِ، وتَقْدِيرٍ لِإِسْلَامِهِ، فِي غَيرِ ازْدِرَاءٍ ولَا فَظَاظَةٍ، وهُمْ يَغُضُّونَ الطَّرْفَ عَنِ الحَرَامِ، ويَلْهَجُونَ بِالذِّكْرِ أَثْنَاءَ الكَلَامِ.

وهَكَذَا يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُم فِي طَلَبِ العِلْمِ والدِّينِ، وفِي العِبَادَةِ والجُهْدِ لِلدِّينِ، وفِي الاِخْتِلَاطِ بِجَمَاهِيرِ الأُمَّةِ، والاِتِّصَالِ بِهَا فِي سَبِيلِ الدِّينِ، تَحْتَ نِظَامٍ مُحْكَمٍ مُتْقَنٍ، لَا يَتَسَرَّبُ فِيهِ الفَسَادُ، ولَا تَتَطَرَّقُ إِلَيهِ الفِتَنُ، لِأَنَّ حَولَ العَامِلِينَ والْمُتَطَوِّعِينَ حِصْناً حَصِيناً مِنَ الذِّكْرِ

www.saida-islam.weebly.com

والدُّعَاءِ، وحَارِساً مِنْ إِكْرَامِ الْمُسْلِمِينَ والتَّذَلُّلِ لَهُم كَافَّةً، والتَّجَنُّبِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَعْنِيهِم فِي الدِّينِ والدُّنْيَا، وكَانَ لِذَلِكَ نَفْعٌ مَلْمُوسٌ، قَدْ تَجَلَّى فِي نَاحِيَتَينِ :

الأُوْلَى : أَنَّ الْمُتَطَوِّعِينَ الَّذِينَ قَضَوا قِسْطاً صَالِحاً مِنْ أَوْقَاتِهِم تَغَيَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم، عَرَفُوا مَبَادِئَ الدِّينِ وأَحْكَامَهُ الأَوَّلِيَّةَ، واسْتَيْقَظَتْ فِيهِمُ العَاطِفَةُ الدِّينِيَّةُ، وهَبَّتْ عَلَيهِم نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ الحَيَاةِ الإِسْلَامِيَّةِ. وقَدْ رَأَينَا طَلَائِعَ هَذِهِ الحَيَاةِ، وآيَاتِ النَّهْضَةِ الدِّينِيَّةِ فِي مِيوَاتَ، فَرَأَينَا تَغَيُّراً مُشَاهَداً فِي الْمُعْتَقَدِ والأَعْمَالِ والأَخْلَاقِ، رَأَيْنَا مَدَارِسَ تُشَيَّدُ، ومَسَاجِدَ تُبْنَى وتُعْمَرُ، وجِنَايَاتٍ تَقِلُّ وتَنْدُرُ، وفِتَناً تَضْمَحِلُّ، وبِدَعاً تَمُوتُ، وتَقَالِيدَ جَاهِلِيَّةً تَرْتَفِعُ، ودَعَوَاتٍ دِينِيَّةً وتَعْلِيمِيَّةً تُثْمِرُ وتَزْدَهِرُ، ونُفُوساً جَامِحَةً تَلِينُ، وقُلُوباً جَانِيَةً تَرِقُّ، وعُيُوناً تَذْرِفُ، وهِمَماً تَعْلُوْ فِي سَبِيلِ الدِّينِ، وإِجْلَالاً لِأَهْلِ العِلْمِ والدِّينِ، وخُضُوعاً لِلْحَقِّ مِمَّا لَوْ جَاهَدَ الإِنْسَانُ الوَاحِدُ مِنهَا بِالاِسْتِقْلَالِ لَاسْتَغْرَقَ وَقْتاً طَوِيلاً وجُهْداً كَبِيراً . ورَأَينَا كَذَلِكَ فِي أَوْسَاطِ الْمُتَّصِلِينَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ والحَرَكَةِ والْمُتَطَوِّعِينَ لَهَا مِنَ النَّاشِئَةِ الجَدِيدَةِ والطَّبَقَةِ الْمُثَقَّفَةِ والْمُوَظَّفِينَ والتُّجَّارِ آثَارَ الاِنْقِلَابِ الدِّينِيِّ، رَأَينَا وَحْشَةً عَنِ الدِّينِ تَزُولُ وتَتَبَدَّلُ بِالأُنْسِ، وتَنَافُراً بَينَ طَبَقَتَيِ الْمُتَدَيِّنِينَ والْمُتَمَدِّنِينَ أَوِ الْمُتَنَوِّرِينَ - كَمَا يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُم - يَرْتَفِعُ، وإِجْلَالاً لِشَعَائِرِ الإِسْلَامِ وتَعْظِيمَهَا يَحِلُّ مَحَلَّ الاِسْتِهْزَاءِ والسُّخْرِيَةِ مِنهَا، ورَغْبَةً فِي تَعَلُّمِ الدِّينِ ومَعْرِفَةِ أَحْكَامِهِ تَشْتَدُّ وتُلِحُّ، إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا يَمْتَازُونَ بِهِ عَنْ أَقْرَانِهِم وأَتْرَابِهِم وزُمَلَائِهِم .

الثَّانِيَةُ : أَنَّ الجَمَاهِيرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَزَالُوا يَبْتَعِدُونَ عَنِ الدِّينِ بِالتَّدْرِيجِ، حَتَّى أَصْبَحُوا فِي وَادٍ والدِّينُ فِي وَادٍ، وتَشَاغَلَ عَنهُمُ العُلَمَاءُ وأَصْحَابُ الإِصْلَاحِ والتَّعْلِيمِ، حَتَّى انْفَصَلُوا عَنهُم فِي كُلِّ شَيءٍ، وأَصْبَحَ هَؤُلَاءِ أُمَّةً، وأُولَئِكَ أُمَّةً تَخْتَلِفُ الأُوْلَى عَنِ الثَّانِيَةِ فِي العَادَاتِ واللِّبَاسِ ومَظَاهِرِ الحَيَاةِ واللُّغَاتِ واللَّهَجَاتِ، وأَصْبَحَ هَؤُلَاءِ العَامَّةُ بِجَهْلِهِم فَرِيسَةً لِكُلِّ صَائِدٍ، وأَتْبَاعَ كُلِّ نَاعِقٍ، تَنْهَشُهُم سِبَاعُ الْمَادِّيَّةِ، وتُغِيرُ عَلَيهِم لُصُوصُ الدِّينِ، وأَخِيراً فَشَتْ فِيهِم دَعْوَةُ الشُّيُوعِيَّةِ، ووَجَدَتْ أَنْصَارُهَا فِي عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَرْتَعاً خَصْباً، ولَكِنَّا نَتَوَقَّعُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الدِّينِيَّةَ، والحَرَكَةَ الصَّحِيحَةَ، والاِتِّصَالَ بِالجَمَاهِيرِ والطَّبَقَاتِ الْمُنْحَطَّةِ فِي العِلْمِ والدِّينِ

www.saida-islam.weebly.com

والْمَعَاشِ مُبَاشَرَةً، وبَذْلَ النُّصْحِ لَهَا يَصُدُّ هَذَا التَّيَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ ﷻ، ويَكُونُ سَدّاً مَنِيعاً فِي وَجْهِ الحَرَكَاتِ اللَّادِينِيَّةِ .

عَرَفْنَا كَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَزْدَهِرُ مَشْرُوعٌ إِصْلَاحِيٌّ أَوْ تَكْمِيلِيٌّ إِلَّا بِالدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ الأُوْلَى، عَنْ طَرِيقِ التَّحْرِيضِ والدِّعَايَةِ، لَا عَلَى طَرِيقِ النِّظَامِ والسِّيَاسَةِ فِي البِدَايَةِ، فَالحَيَاةُ الْمَدَنِيَّةُ فِي الإِسْلَامِ مَبْنِيَّةٌ دَائِماً عَلَى أَسَاسِ الحَيَاةِ الْمَكِّيَّةِ، وكُلُّ مُؤَسَّسَةٍ لَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الدَّعْوَةِ والتَّحْرِيضِ الدِّينِيِّ، ولَا تَسْبِقُهَا جُهُودٌ فِي تَمْهِيدِ الأَرْضِ، إِلَى انْهِيَارٍ فِي العَاجِلِ أَوِ الآجِلِ، اقْتَنَعْنَا بِهَذِهِ الْمَبَادِئِ وجَرَّبْنَاهَا فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ عَنْ مَرْكَزِ الإِسْلَامِ، فِي أَرْضٍ وَعِرَةٍ قَدْ أُهْمِلَتْ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، فَرَأَيْنَا الغِرَاسَ يُثْمِرُ، والجُهْدَ القَلِيلَ يَأْتِي بِحَاصِلٍ كَبِيرٍ .

وخِتَامًا : وهَا نَحْنُ أُوْلَاءِ نُتْحِفُ إِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ فِي البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ عَامَّةً، وفِي الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ خَاصَّةً بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ ومَبَادِئِهَا، وقَدْ تَلَقَّيْنَاهَا مِنْهُم، فَلْيَتَلَقَّوهَا اليَومَ مِنْ إِخْوَانِهِم، ويَقُولُوا بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَينَا، ويُجَرِّبُوهَا فِي تُرْبَتِهِمُ الذَّكِيَّةِ النَّدِيَّةِ، وفِي أُمَمِهِمُ النَّجِيبَةِ الذَّكِيَّةِ، بِجُهُودِهِم الْمُتَوَاصِلَةِ القَوِيَّةِ، ويُشَاهِدُوا سُنَّةَ اللهِ ﷻ الأَبَدِيَّةَ، فِي نَصْرِ الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وخَوَارِقَ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ [١] .

(١) «محاضرة ألقاها الشيخ أبو الحسن الندوي في إحدى اجتماعات التبليغ والدعوة، عام ١٣٦٦هـ». من كتاب «روائع أبي الحسن الندوي لمحمد علي محمد إمام». ص (٣٩-٥١) .

www.saida-islam.weebly.com

الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ :

وقَالَ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : إِنَّ جَمَاعَةَ الدَّعْوَةِ والتَّبلِيغِ الَّتِي أَنْشَأَهَا العَلَّامَةُ الدَّاعِيَةُ الجَلِيلُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ الكَانْدَهْلَوِيُّ[(١)] فِي الأَرْبَعِينَاتِ مِنْ هَذَا القَرْنِ العِشْرِينَ،

---

(١) قال العلَّامة أبو الحسن النَّدويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يَصِفُ الشَّيخَ الْمُجدِّدَ محمد إلياسَ رَحِمَهُ اللَّهُ : هو رجلٌ مُتواضِعٌ في دِهلِي، قَدْ بَثَّ الرُّوحَ في هَذِهِ الأُمَّةِ المنحَطَّةِ – يعني أهلَ مِيوات –، وهَذَّبَ النُّفُوسَ، ونَشَرَ الدِّينَ والعِلمَ، وحَدَا بي الشَّوقُ إلى زِيَارَتِهِ، فإذا هو رجلٌ نَحيفٌ، أَسمَرُ اللَّونِ، قَصيرُ القَامَةِ، كَثيفُ اللِّحيَةِ، تَشفُّ عَينَاهُ عن ذَكاءٍ مُفْرِطٍ وهِمَّةٍ عَالِيةٍ، على وَجْهِهِ مَخَايِلُ الهَمِّ والتَّفكِيرِ والجَهدِ الشَّدِيدِ، لَيسَ بِمُفَوَّهٍ ولا خَطِيبٍ، بل يَتَلَعثَمُ في بَعضِ الأَحيانِ، ويَضيقُ صدرُهُ ولا ينطلقُ لِسانُهُ، ولَكنْ كُلُّهُ رُوحٌ ونَشَاطٌ وحَمَاسَةٌ ويقينٌ، لا يَسأَمُ ولا يَمَلُّ عن العمل، ولا يَعْتَرِيهِ الفُتُورُ والكسلُ. وقَال: صَحِبتُ مولانا محمد إلياسَ مَركَزَ هذا النَّشاطِ الَّذي صَحِبتُهُ مدَّةً طَويلَةً، ورَافقتُهُ في السَّفرِ والحَضَر، فَرأيتُ نَوَاحيَ من الحياةِ لم تَنْكَشِفْ لي من قَبلُ، فَمن أَغْرَبِ ما رَأيتُ : **أَوَّلاً** : يقينُهُ الَّذِي اسْتَطَعتُ به أَنْ أَفْهَمَ يقينَ الصَّحَابَةِ، فكان يؤمنُ بما جَاءتْ به الرُّسُلُ إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافًا واضِحًا، كاختلاف الصُّورةِ والحقيقة، إيماناً بحقائق الإسلامِ أَشَدَّ وأَرسَخَ من إيمانِنَا بالمادِّيَّات والمحسُوسَاتِ، وبخواصِّ الأَشْيَاء والأَدويَةِ ومَضَارِّها ومَنَافِعِهَا وبِتَجَارِبِ حَيَاتِنَا، فكان كُلُّ شَيءٍ صَحَّ في الشَّرَائِعِ وثَبَتَ من الكتاب والسُّنَّةِ حَقِيقَةً لا يَشُكُّ فيها، وكأَنَّهُ يَرَى الجنَّة والنَّارَ رَأيَ عَينٍ؛ **ثانياً** : رَأيتُهُ في حالةٍ عجيبةٍ من التَّأَلُّمِ والتَّوجُّعِ لحالِ الأمَّةِ، والقَلَقِ الدَّائمِ، كَأَنَّهُ على حَسَكِ السَّعْدَانِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلمُلَ السَّلِيمِ، ويتنفَّسُ الصُّعَداءَ، لِمَا يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة، وعن غاية هذا السفر العظيم، وعن خالق هذا الكون، ومن الاستهانةِ بقيمَةِ الحياةِ وتضييعها في غير محلٍّ، ولا أَجِدُ له مثلاً إلَّا كالَّذِي يَرَى الحَرِيقَ في بيته وقد أَحَاطَتْ النِّيرانُ بأَولادِهِ وأُسرتِهِ ونفائِسِهِ، فيَصرخُ ويضطربُ ولا يَقَرُّ له قَرارٌ، وعرفت برؤيته معنى الحبِّ، وفَهِمتُ ما رُوِيَ عن العُشَّاقِ الْمُتَيَّمِينَ، ومن استولى عليه الحبُّ، وصَدَّقْتُ ما نُقِلَ عن الأَنبِيَاءِ مِنَ الحُزنِ والقَلَقِ والحِرصِ على الهِدَايَةِ. **ثَالِثاً** : رَأيتُ في هذا= =الجِسمِ النَّحِيلِ رُوحًا قَوِيَّةً جِدًّا، وقُوَّةً وإِرَادَةً وقَلباً لم أَجِدْ مِثلَهُم في الشُّبَّانِ الأَقوِيَاءِ والأَبطَالِ الأَشِدَّاءِ، .. وأَخِيرًا أَعْجَبُ ما رَأيتُ منه أَنَّهُ كان في مَرضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فيه لا يستطيع القيامَ والقُعُودَ، ولكنَّه يَأتي إلى الصَّفِّ يَتَهادَى بَينَ رَجُلينِ، ويَقُومُ للصَّلاةِ، ولا يستقلُّ بنفسه، فإذا كَبَّرَ الإمامُ تَرَكَهُ الرَّجُلانِ وقَامَ بِنَفسِهِ، كَأَنَّهُ غَيرُ الرَّجُلِ، ويَقُومُ ويركعُ ويسجُدُ من دُونِ مُسَاعَدَةٍ، حتَّى إذا سَلَّمَ الإِمَامُ خَارَتْ قُوَّتُهُ، وعَادَ ضَعِيفًا لا يستطيع النُّهُوضَ، وبَقِيَ هكذا شُهُوراً، وما فَاتَتْهُ في مَرَضِهِ صَلاةٌ إلى اللَّيلَةِ الَّتِي تُوُفِّيَ فيها. «الدعوة الإسلامية وتطوراتها» لأبي الحسن الندوي . ص (٣٥) .

www.saida-islam.weebly.com

والَّتِي عُرِفَتْ فِي العَالَمِ كُلِّهِ بِنَشَاطَاتِهَا الدَّعَوِيَّةِ والإِصْلَاحِيَّةِ العَظِيمَةِ، وَاعْتَرَفَتِ الأَوْسَاطُ العِلْمِيَّةُ فِي شِبْهِ القَارَّةِ الهِنْدِيَّةِ بِإِخْلَاصِهَا وتَفَانِيهَا وَاسْتِقَامَتِهَا عَلَى الجَادَّةِ، وجُهُودِهَا الجَبَّارَةِ الْمُحَيِّرَةِ لِلْعُقُولِ، والْمُغَيِّرَةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ، مِنْ حَيَاةِ الغَفْلَةِ والفِسْقِ والْمَعَاصِي، إِلَى حَيَاةِ التَّذَكُّرِ والصَّلَاحِ والتَّقْوَى، ولَمْ يُحْرَمْ أَيُّ بَلَدٍ لَا فِي العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ ولَا فِي البُلْدَانِ الأُوْرُوبِّيَّةِ وبُلْدَانِ القَارَّاتِ فِي العَالَمِ مِنْ وُفُودِهَا الدَّعَوِيَّةِ، وإِرْسَالِيَّاتِهَا الْمُبَشِّرَةِ بِالدِّينِ الحَنِيفِ، إِنَّ هَذِهِ الجَمَاعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ الصَّالِحَةَ هِيَ — مِنْ دُونِ شَكٍّ — مِنْ أَكْبَرِ الجَمَاعَاتِ، بَلْ كُبْرَى الجَمَاعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الإِطْلَاق فِي العَالَمِ، أَثَّرَتْ عَلَى حَيَاتِ مِئَاتِ الآلَافِ مِنَ النَّاسِ، فَأَصْبَحَ عُبَّادُ الدُّنْيَا العَاكِفُونَ عَلَى الْمَلَذَّاتِ والشَّهَوَاتِ، والغَارِقُونَ فِي حَمْأَةِ الْمَعَاصِي والانْتِهَاكِ لِلْحُرُمَاتِ والاسْتِهْتَارِ، مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلِصِينَ، والْمُسْلِمِينَ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ .

إِنَّ هَذَا التَّغْيِيرَ قَلَّمَا شَهِدَتْهُ الْمُجْتَمَعَاتُ، وقَدْ كَانَ هَذَا التَّأْثِيرُ لِكِبَارِ الْمُجَدِّدِينَ والْمُصْلِحِينَ، مِنْ أَمْثَالِ الحَسَنِ البِصْرِيِّ، إِلَى الشَّيخِ عَبدِ القَادِرِ الجِيلَانِيِّ، إِلَى الدُّعَاةِ الأَجِلَّةِ فِي مُخْتَلَفِ البُلْدَانِ الإِسْلَامِيَّةِ، وعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ الإِمَامَ وَلِيَّ اللهِ الدِّهْلَوِيَّ، وأَحْمَدَ بْنَ عِرْفَانَ الشَّهِيدَ، وأَصْحَابَهُ وخُلَفَائَهُ، الَّذِينَ تَرَكُوا فِي الهِنْدِ أَمْثِلَةً رَائِعَةً مِنْ مَآثِرِ التَّجْدِيدِ والإِصْلَاحِ العَظِيمَةِ، فَأَصْلَحُوا العَقَائِدَ، وقَاوَمُوا الشِّرْكَ والبِدَعَ والتَّقَالِيدَ الهِنْدُوسِيَّةَ، والطُّقُوسَ الشِّرْكِيَّةَ، وجَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمُحْدَثَاتِ، حَتَّى كَانَتْ حَرَكَتُهُم أَكْبَرَ وأَقْوَى وأَنْشَطَ حَرَكَةٍ فِي سَبِيلِ إِرْسَاءِ دَعَائِمِ التَّوحِيدِ فِي شِبْهِ القَارَّةِ الهِنْدِيَّةِ، والقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ والبِدَعِ والضَّلَالَاتِ، وإِظْهَارِ شَعَائِرِ الدِّينِ، وإِقَامَةِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الغَرَّاءِ، ورَفْعِ رَايَةِ الجِهَادِ ضِدَّ قُوَى البَاطِلِ والطَّاغُوتِ، حَتَّى سَمَّاهُمُ الإِنْجِلِيزُ الْمُسْتَعْمِرُونَ بِالوَهَّابِيَّةِ، وأَثَارُوا الضَّجَّةَ ضِدَّهُم، ومَلَؤُوا بِهِمُ الزِّنْزَانَاتِ والسُّجُونَ .

لَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ الكَانَدَهْلَوِيُّ خَلِيفَةَ هَؤُلَاءِ العُظَمَاءِ الأَبْطَالِ مِنَ الْمُصْلِحِينَ والْمُجَدِّدِينَ، الَّذِي قَامَ أَيَّامَ كَانَتِ الهِنْدُ تَمُوجُ بِالاضْطِرَابَاتِ الطَّائِفِيَّةِ، الَّتِي كَانَ يُثِيرُهَا الإِنْجِلِيزُ الْمُسْتَعْمِرُونَ، وكَانَ مُثَلَّثُ الْمَسِيحِيَّةِ والهِنْدُوسِيَّةِ والْمَادِّيَّةِ يُسَيْطِرُ عَلَى الهِنْدِ، ويَأْخُذُ بِخِنَاقِ الْمُسْلِمِينَ، ويُذِيبُ شَخْصِيَّتَهُم، ويُفْقِدُهُم دِينَهُم وعَقِيدَتَهُم وثَقَافَتَهُم، قَامَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ

www.saida-islam.weebly.com

إِلْيَاسَ فِي ضِمْنِ مَنْ قَامَ مِنَ العُلَمَاءِ الأَجِلَّةِ الْمُثَابِرِينَ الْمُنَاضِلِينَ بِحَرَكَتِهِ الإِصْلَاحِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَهَا عَلَى العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ الصَّرِيحَةِ الثَّابِتَةِ بِالكِتَابِ والسُّنَّةِ، ومَا عَلَيهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ(١)، مِنْ دُونِ مُوَارَبَةٍ ولَا مُجَامَلَةٍ، ولَا خَوفٍ مِنَ الْمُشَغِّبِينَ الْمُثِيرِينَ لِلْفِتَنِ، ولَا مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، الَّذِينَ كَانُوا فَتَنُوا النَّاسَ بِالإِشْرَاكِ، وعِبَادَةِ الأَضْرِحَةِ والقُبُورِ والبِدَعِ والخُرَافَاتِ، وضَلَالَاتِ الفِرَقِ البَاطِلَةِ، ولَا مِنَ السَّاكِتِينَ الْمُسَالِمِينَ لِلانْحِرَافَاتِ، قَامَ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ تَنُوءُ بِالأَقْوِيَاءِ الشُّجْعَانِ، ولَمْ يَنْتَظِرْ مَجِيءَ النَّاسِ إِلَيهِ، بَلْ خَرَجَ إِلَيهِم بِإِخْلَاصٍ وإِيْمَانٍ وَاحْتِسَابٍ وحُرْقَةٍ فِي القَلْبِ، ولَوْعَةٍ فِي النَّفْسِ، يُذَكِّرُهُم بِمَعَانِي التَّوحِيدِ الحَقِيقِيَّةِ والرِّسَالَةِ، بِعَقِيدَةِ التَّوحِيدِ الَّتِي غَشِيَهَا ضَبَابُ الشِّرْكِ والوَثَنِيَّةِ الهِنْدِيَّةِ، ويُذَكِّرُهُم بِالعِبَادَةِ، وعَلَى رَأْسِهَا الصَّلَاةُ الَّتِي تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ، وبِالذِّكْرِ للهِ تَعَالَى، الَّذِي يُطَمْئِنُ القُلُوبَ، ويَشْرَحُ النُّفُوسَ، ويُثَبِّتُ الأَقْدَامَ، وبِالعِلْمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، الَّذِي يَبْقَى الإِنْسَانُ بِدُونِهِ مَيْتاً وإِنْ كَانَ يُدْعَى حَيّاً، وبِالإِخْلَاصِ فِي العَقِيدَةِ والقَولِ والعَمَلِ، ويُذَكِّرُهُم بِأَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ، بِتَرَاحُمِهِم وتَعَاطُفِهِم وتَوَادِّهِمْ، وأَنْ يَعُودُوا إِلَى اجْتِمَاعِيَّتِهِم، ثُمَّ بِأَنْ يَتَحَرَّكُوا ويَنْفِرُوا ويَنْشَطُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعَاةً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، يَخْلُفُونَ الأَنْبِيَاءَ فِي أَعْمَالِهِم ومَهَامِّهِم، فَقَدْ قَالَ ﷺ :" **فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ** ".

لَقَدْ قَامَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي هَذَا الجَوِّ، وبِهَذِهِ الدَّفْعَةِ الإِيْمَانِيَّةِ والشَّرَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وأَنَا عِشْتُهَا وصَحِبْتُهَا، وأَنَا أَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّ هَذِهِ الجَمَاعَةَ – رُغْمَ مَا يُوجَدُ فِي كُلِّ فَرْدٍ وفِي كُلِّ

---

(١) أي ما كان عليه سَلَفُ هذه الأُمَّةِ – مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ والأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ – مِنَ التَّوحِيدِ الخَالِصِ، وَالاِتِّبَاعِ الكَامِلِ لهديه ﷺ؛ والفَهْمِ لِنُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فِي الْمَسائل العِلْمِيَّةِ العقديَّة، سواءٌ كان إجماعاً أو إطباقَ جمهورهم على ذلك الفهم، أو انتشاراً لقول آحادهم وظهوره، مع عدم وجود مخالفٍ منهم لذلك الفهم . وكُلُّ مَا وَرَدَ فِي الآياتِ الكريمةِ والسُّنَّةِ الْمُطهَّرةِ مِمَّا يتعلَّقُ بِصِفَاتِ البَارِي ﷻ فَإِنَّهم يُؤمِنونَ به على مُرَادِ اللهِ ﷻ؛ وأَحْسَنُ مَا يُقَالُ فى ذَلِكَ، مَا قَالَهُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **آمَنْتُ بِكَلَامِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَبِكَلَامِ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ**. «لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد» لابن قدامة المقدسي. ص (٧). وكما قال الإمامُ سُفيَانُ بْنُ عُيَينَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : **كُلُّ مَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ فِي القُرْآنِ، فَقِرَاءَتُهُ تَفْسِيرُهُ، لَا كَيفَ، وَلَا مِثْلَ**. «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي. (٤/٤٧٨) (٧٣٦).

www.saida-islam.weebly.com

جَمَاعَةٍ مِنْ مَآخِذَ أَوْ بَعْضِ مَوَاطِنِ الضَّعْفِ – أَصْلَحُ الجَمَاعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، عَقِيدَةً، وعَمَلاً، وسُلُوكاً، وأَقْوَاهَا تَأْثِيراً، وأَكْثَرُهَا إِخْلَاصاً وتَفَانِياً فِي العَمَلِ .

إِنَّ هَذِهِ الجَمَاعَةَ قَامَتْ عَلَى يَدِ الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ، الَّذِي كَانَ مِنْ جَمَاعَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنِ عِرْفَانَ الشَّهِيدِ، والشَّيخِ إِسْمَاعِيلَ الشَّهِيدِ، وعَلَى مَذْهَبِهِمَا فِي التَّمَسُّكِ بِالتَّوحِيدِ الخَالِصِ، والسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ .

لَقَدْ عُرِفَ الشَّيخُ الإِمَامُ إِسْمَاعِيلُ الشَّهِيدُ – عَدَا جُهُودِهِ الدَّعَوِيَّةِ وجِهَادِهِ – بِكِتَابِهِ العَدِيمِ النَّظِيرِ بِاسْمِ «تَقْوِيَةِ الإِيْمَانِ»، الَّذِي تَرْجَمْتُهُ مَعَ تَعْلِيقَاتٍ بِاسْمِ «رِسَالَةِ التَّوحِيدِ»، وقَدْ طُبِعَ مِرَاراً ونُشِرَ، لَقَدْ كَانَ لِهَذَا الكِتَابِ مِنَ التَّأْثِيرِ البَالِغِ القَوِيِّ، والنُّفُوذِ العَجِيبِ مَا أَطَارَ نَومَ الْمُبْتَدِعَةِ والخُرَافِيِّينِ، فَأَثَارُوا فِتْنَةً تِلْوَ فِتْنَةٍ ضِدَّ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي ضَرَبَ عَلَى الوَتَرِ الحَسَّاسِ، وتَنَاوَلَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الجَلِيِّ وَالخَفِيِّ، والبِدَعِ الدَّوْلِيَّةِ والْمَحَلِّيَّةِ بِالرَّدِّ والتَّفْنِيدِ، والدَّحْضِ بِالحُجَجِ القُرْآنِيَّةِ السَّاطِعَةِ، والأَدِلَّةِ الحَدِيثِيَّةِ البَاهِرَةِ، بِحَيثُ قَطَعَ دَابِرَ الْمُبْتَدِعَةِ الضَّالِّينَ ..

وَيَشْهَدُ اللهُ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ لِلتَّشْنِيعِ عَلَى هَذِهِ الجَمَاعَةِ، وَالِاتِّهَامَاتِ وَالْمُنَاوَشَاتِ لَهُمْ، لَا تَزِيدُ الجَمَاعَةَ إِلَّا صَبْراً وَاسْتِقَامَةً، فَيُجَازِيهِمُ اللهُ تَعَالَى بِقَلْبِ الأَحْوَالِ وتَغْيِيرِ النُّفُوسِ والقُلُوبِ، فَكَمْ مِنْ مُبْتَدِعَةٍ عَادُوا إِلَى حَظِيرَةِ السُّنَّةِ، وكَمْ مِنْ وَاقِعِينَ فِي الشِّرْكِ عَادُوا إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، وكَمْ مِنْ ضُلَّالٍ اهْتَدَوا إِلَى الحَقِّ، يَشْهَدُ بِذَلِكَ ويَرَاهُ رَأْيَ العَيْنِ كُلُّ مَنْ يَجُولُ هَذِهِ الْمَنَاطِقَ والقُرَى والأَحْيَاءَ، وإِنْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ مَآخِذَ عَلَى بَعْضِ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى هَذِهِ الجَمَاعَةِ، فَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى تَقْصِيرِهِمْ، وقِلَّةِ اسْتِيعَابِهِم وفَهْمِهِمْ لِلْأُسُسِ والأَهْدَافِ والْمَنَاهِجِ؛ واللهُ عَلَى مَا أَقُولُ شَهِيدٌ، وصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وسَلَّمَ .

أَبُو الحَسَنِ عَلِيٌّ الحَسَنِيُّ النَّدَوِيُّ [١] .

---

(١) «رسالة لأبي الحسن الندوي جواباً عن سؤال عن جماعة التبليغ بتاريخ ١٩٩٥/٥/٣٠ م» بتصرف واختصار يسيرين.

www.saida-islam.weebly.com

الرِّسَالَةُ الثَّالِثَةُ :

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضاً : الشَّيءُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي جَعَلَ الشَّيخَ إِلْيَاسَ يَعْتَلِي الْمَكَانَ الْمَرْمُوقَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالعَمَلِ الإِسْلَامِيِّ، هُوَ بُعْدُ الهِمَّةِ؛ فَلَمْ تَسْتَقِرَّ طَبِيعَتُهُ القَلِقَةُ عَلَى مَرْحَلَةٍ بِدَائِيَّةٍ لِلْإِصْلَاحِ والدَّعْوَةِ، ولَمْ يَقَرَّ مَا لَمْ يَبْلُغْ بِهِ إِلَى الْمَرْحَلَةِ الأَصْلِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُرِيدُهَا ويَسْمُو إِلَيهَا .

وبَدَأَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ يَدُبُّ إِلَيهِ اليَأْسُ مِمَّا كَانَ يَتِمُّ مِنَ الإِصْلَاحِ الجُزْئِيِّ والتَّعْلِيمِ عَنْ طَرِيقِ الكَتَاتِيبِ، وشَعَرَ بِأَنَّ الجَهْلَ الْمُطْبِقَ والظَّلَامَ الْمُخَيِّمَ عَلَى البِلَادِ، واللَّادِينِيَّةَ السَّارِيَةَ فِي الْمُجْتَمَعِ، كُلُّ ذَلِكَ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي تِلْكَ الكَتَاتِيبِ أَيْضاً، وأَنَّ الطُّلَّابَ لَا يَتِمُّ إِصْلَاحُهُم وتَرْبِيَتُهُمُ الدِّينِيَّةُ عَلَى مَا يَنْبَغِي، ثُمَّ إِنَّ الجَهْلَ الَّذِي يَمُوجُ مِنْ حَولِهِم كَالبَحْرِ إِلَى مِئَاتٍ مِنَ الأَمْيَالِ يَجْرِفُهُم، بِحَيثُ لَا يَعُودُ لَهُم عَينٌ ولَا أَثَرٌ .

ولَا يُوجَدُ عِندَ القَومِ الحِرْصُ عَلَى الدِّينِ حَتَّى يَبْعَثُوا أَوْلَادَهُم لِلتَّحْصِيلِ والتَّعْلِيمِ مُنْدَفِعِينَ رَاغِبِينَ، ويَدَعُوهُم يَجْلِسُونَ فِي الكَتَاتِيبِ، وبِمَا أَنَّهُم لَا يَتَمَتَّعُونَ بِمَعْرِفَةِ الدِّينِ، فَإِنَّهُم لَا يُقَدِّرُونَ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابَ الَّذِينَ يَتَخَرَّجُونَ فِي الكَتَاتِيبِ، ويَنْبُثُّونَ إِلَيهِم بِالهِدَايَةِ والدَّعْوَةِ، ولَا يَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُونَ، ولَا يَخْضَعُونَ لِمَا يَدْعُونَ، إِذًا فَلَا تُؤَثِّرُ تِلْكَ الكَتَاتِيبُ تَأْثِيراً مَا فِي حَيَاتِهِم .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الاِهْتِمَامَاتِ كُلَّهَا مَصْرُوفَةٌ إِلَى هَؤُلَاءِ الأَطْفَالِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ، ولَمْ تُكَلِّفْهُمُ الشَّرِيعَةُ بِشَيءٍ مَا، أَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ هُمْ مَوْضِعُ الخِطَابِ فِي الشَّرِيعَةِ والأَحْكَامِ، والَّذِينَ هُمْ مَوْضِعُ سَخَطِ اللهِ مِنْ أَجْلِ الإِهْمَالِ لِلدِّينِ، والرَّغْبَةِ عَنِ العَمَلِ والتَّطْبِيقِ، فَلَيسَ لَهُم نَصِيبٌ فِي هَذِهِ التَّدَابِيرِ كُلِّهَا.

عَلَى أَنَّ الكَتَاتِيبَ والْمَدَارِسَ مَهْمَا كَانَتْ كَثِيرَةً لَا تُغَطِّي ضَرُورَةَ القَومِ الْمُتَرَامِيَةَ الأَطْرَافِ، ولَا يُمْكِنُ عَنْ طَرِيقِهَا تَعْلِيمُ جَمِيعِ القَومِ وتَرْبِيَتُهُم الإِسْلَامِيَّةُ، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا جَمِيعًا طُلَّاباً فِي الكَتَاتِيبِ، يَلْتَحِقُونَ بِهَا، ويَدْرُسُونَ فِيهَا، مُنْصَرِفِينَ عَنْ أَشْغَالِ الحَيَاةِ وَوَسَائِلِ كَسْبِ الْمَعَاشِ ..

www.saida-islam.weebly.com

وَاسْتَمَرَّ العَمَلُ فِي الْمِيْوَاتِ عَلَى تَحْرِيضِ النَّاسِ لِلْقِيَامِ بِالرِّحْلَةِ ومُغَادَرَةِ الوَطَنِ، والجَوْلَاتِ مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ وتَعْلِيمِهِ وتَعَلُّمِهِ، وكَانَ ذَلِكَ هُوَ هَمَّ الشَّيخِ، والأَمْرَ الوَحِيدَ الَّذِي يَشْغَلُ بَالَهُ لَيلَ نَهَارَ، وكَانَ يَعْرِضُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ عَلَى النَّاسِ قَائِماً وقَاعِداً، ووَاقِفاً وسَائِراً، ومُسَافِراً ومُقِيماً، وعُقِدَتْ حَفَلَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي مِيوَاتَ، وعُرِضَتْ فِيهَا الدَّعْوَةُ وَحْدَهَا بِأَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ وعَنَاوِينَ شَتّىً، يُؤَكِّدُ الشَّيخُ لِلنَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ رَكِيزَةُ رُقِيِّهِم فِي الدِّينِ والدُّنْيَا، حَتَّى قَلَّ تَنَكُّرُهُم لِهَذَا العَمَلِ، وَانْبَعَثَتِ البِعْثَاتُ والجَمَاعَاتُ فِي أَنْحَاءِ مِيوَاتَ .

وكَانَ التَّرْكِيزُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَعُمَّ الدَّعْوَةُ إِلَى ذَلِكَ فِي البَلَدِ كَعُمُومِ التَّقَالِيدِ والأَعْرَافِ، وعُقِدَتْ لِذَلِكَ حَفَلَاتٌ واجْتِمَاعَاتٌ، وتَكَوَّنَتْ جَمَاعَاتٌ قَامَتْ بِجَوْلَاتٍ فِي أَنْحَاءِ مِيوَاتَ والوِلَايَةِ الشَّمَالِيَّةِ، تَبَرَّعَ النَّاسُ لِذَلِكَ بِأَوْقَاتِهِم، وقَدْ عَرَفَ النَّاسُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ هَذَا النَّوعَ مِنَ التَّبَرُّعِ، التَّبَرُّعَ بِالأَوْقَاتِ وَالأَسَابِيعِ والشُّهُورِ، فَقَدْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا التَّبَرُّعَ بِالأَمْوَالِ والنُّقُودِ.

وكَانَ الشَّيخُ يَهْدِفُ إِلَى إِثَارَةِ رُوحِ الإِخْلَاصِ والإِيْثَارِ فِي العَامِلِينَ لِلدَّعْوَةِ ومَجَالِ التَّبْلِيغِ، وتَعْوِيدِهِم عَلَى الخَسَارَةِ فِي التِّجَارَةِ والزِّرَاعَةِ بِجَانِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وفِي مِيوَاتَ عَرَفَ النَّاسُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنْ يَرْضَوْا بِنُقْصَانِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدُنْيَاهُم مِنْ أَجْلِ الدِّينِ، وإِنْ كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَمْ يَبْتَلِهِم بِذَلِكَ، ولَمْ يَرْزَأْهُم فِي دُنْيَاهُم حِينَمَا شُغِلُوا بِنَشْرِ دِينِهِ وتَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ، وقَدْ رَأَى العَائِدُونَ مِنَ الرِّحْلَاتِ والجَوْلَاتِ الدَّعَوِيَّةِ زِيَادَةً فِي كُلِّ مَا كَانُوا يُمَارِسُونَهُ مِنَ التِّجَارَةِ والزِّرَاعَةِ والفِلَاحَةِ، أَوْ أَيِّ نَوعٍ مِنَ التَّعَاطِي فِي الحَيَاةِ، وشَاهَدُوا البَرَكَةَ بِأُمِّ أَعْيُنِهِمْ .

وقَدْ عَمَّ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ – بِفَضْلِ اللهِ ﷻ، ثُمَّ – بِفَضْلِ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ الْمُتَطَوِّعِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَجَوَّلُونَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، ومِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ، حَامِلِينَ عُرُوضَهُم وزَادَهُم ومَتَاعَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ، – عَمَّ – الإِقْبَالُ عَلَى الدِّينِ، وَانْبَعَثَتْ رُوحُ الإِخْلَاصِ والحِرْصِ عَلَى تَعَالِيمِ الإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ الوَاسِعَةِ الْمُتَرَامِيَةِ الأَطْرَافِ، الَّتِي ظَلَّتْ مُظْلِمَةً عَبرَ قُرُونٍ لَمْ يُشْرِقْ فِي رُبُوعِهَا نُورُ الإِيْمَانِ واليَقِينِ، وقَدْ حَظِيَتْ بِانْقِلَابٍ عَجِيبٍ فِي العَقِيدَةِ، وتَقَلُّبٍ فِي القَلْبِ والعَقْلِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، لَمْ يُعْرَفْ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْمَاضِي القَرِيبِ والبَعِيدِ، ولَوْ أَنَّ حُكُومَةً إِسْلَامِيَّةً بَذَلَتْ كُلَّ مَا لَدَيهَا مِنْ وَسَائِلَ وإِمْكَانَاتٍ، ونَصَبَتْ كَثْرَةً كَاثِرَةً مِنَ العُلَمَاءِ والْمُرَبِّينَ مِنْ أَجْلِ

www.saida-islam.weebly.com

تَقْرِيبِ الدِّينِ إِلَى النَّاسِ، أَوْ فَتَحَتْ مِئَاتٍ وآلَافاً مِنَ الكَتَاتِيبِ والْمَدَارِسِ مِنْ أَجْلِ تَعْلِيمِ الدِّينِ، لَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَكْسِبَ النَّجَاحَ فِي نَشْرِ الدِّينِ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا فِي هَذِهِ السُّهُولَةِ واللَّبَاقَةِ والدِّقَّةِ والحِكْمَةِ، حَقًّا إِنَ إِحْدَاثَ التَّحَوُّلِ فِي الحَيَاةِ يَفُوقُ الوَسَائِلَ الْمَادِّيَّةَ، وتَعْجِزُ عَنهُ الإِمْكَانَاتُ الْمَادِّيَّةُ مَهْمَا كَثُرَتْ وعَمَّتْ .

إِنَّ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ النَّاجِحَ لِنَشْرِ الدِّينِ إِنَّمَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَهُ الرَّعِيلُ الأَوَّلُ فِي فَجْرِ الإِسْلَامِ، حِينَمَا كَانَ الجَيشُ الإِسْلَامِيُّ يَحْمِلُ زَادَهُ ومَتَاعَهُ وسِلَاحَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، ويُعِدُّ كُلَّ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ومِنْ عِنْدِهِ، وعَلَى حِسَابِهِ، ويَحْدُوهُ إِلَى مَيدَانِ الْمَعْرَكَةِ وسَاحَةِ الجِهَادِ الحَنِينُ إِلَى الشَّهَادَةِ والفَوزِ بِرِضَا اللهِ تَعَالَى، والرَّغْبَةُ فِي ثَوَابِهِ وأَجْرِهِ، وعِندَمَا كَانَ الدُّعَاةُ إِلَى اللهِ الْمُبَلِّغُونَ بِرِسَالَتِهِ يَقُومُونَ بِمَسْؤُولِيَّتِهِم مُنْطَلِقِينَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وصَادِرِينَ عَنْ حُبِّ اللهِ ورِسُولِهِ، الَّذِي مَلَكَ عَلَيهِم قُلُوبَهُم، وخَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ نُفُوسَهُم، فَيُؤَدُّونَ عَمَلَهُم كَفَرِيضَةٍ شَخْصِيَّةٍ، ومَسْؤُولِيَّةٍ ذَاتِيَّةٍ، وفِي أَمَانَةٍ ونَزَاهَةٍ وإِخْلَاصٍ وإِيْثَارٍ ..

وكَانَتْ هَذِهِ الحَرَكَةُ الدِّينِيَّةُ فِي مِيوَاتَ تُوَاكِبُهَا مَسَّةٌ مِنْ هَذِهِ الرُّوحِ الْمُبَارَكَةِ، ونَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِهَا، ولَوْ رَأَى أَحَدٌ هَؤُلَاءِ الْمُبَلِّغِينَ يَحْمِلُونَ مُسُوحَهُم، ويَسْتَأْبِطُونَ أَجْزَاءَ القُرْآنِ، ويَلُفُّونَ الحِمَّصَ أَوْ أَرْغِفَةً مِنْ رِدَائِهِم، وأَلْسِنَتُهُم رَطْبَةٌ بِذِكْرِ اللهِ، وعُيُونُهُم تَنُمُّ عَنِ السَّهَرِ وإِحْيَاءِ اللَّيَالِي فِي العِبَادَةِ، وسِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وتَشُفُّ أَيْدِيهِم وأَرْجُلُهُم عَنِ الكَدِّ والكَدْحِ، لَتَمَثَّلَتْ أَمَامَهُ قِصَّةُ أَصْحَابِ الوَفَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ الأَبْرَارِ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيهِ لِتَعْلِيمِ القُرْآنِ وتَبْلِيغِ الإِسْلَامِ .

وكَانَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ إِلْيَاسَ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّرْتِيبُ الصَّحِيحُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالقِيَامِ بِنَشرِ الدَّعْوَةِ وتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، أَنْ يَكُونَ العَمَلُ فِي النَّاسِ عَلَى إِثَارَةِ الإِيْمَانِ واليَقِينِ، وإِيْجَادِ الحِرْصِ عَلَى الدِّينِ، وتَخْرِيجِهِم عَلَى اسْتِعْدَادِ خَسَارَةِ مَا إِذَا كَانَتْ تَلْحَقُ بِمَا يَتَعَلَّقُ أُوْلَاهُم مِنْ أَجْلِ أُخْرَاهُم، وإِذَا تَمَّتْ كُلُّ تِلْكَ الْمَرَاحِلِ فَإِنَّهُم – بِدَوْرِهِم – يُقْبِلُونَ عَلَى جَمِيعِ الدِّينِ، ويَحْرِصُونَ عَلَى تَطْبِيقِهِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ فِي وَاقِعِ حَيَاتِهِم وسُلُوكِهِمْ .

www.saida-islam.weebly.com

وفِعْلاً قَدْ آتَتْ تِلْكَ الجُهُودُ أُكُلَهَا في مُدَّةٍ غَيرِ طَوِيلَةٍ، وبَدَأَتْ مَظَاهِرُ الصَّلَاحِ والإِقْبَالِ عَلَى الدِّينِ تَتَجَلَّى في حَيَاةِ الْمِيوَاتِيِّينَ، بِحَيثُ لَوْ أَنَّ أَحَداً عَمِلَ عَلَى تَرْبِيَةِ وَاحِدٍ مِنْهُم طَوَالَ خَمْسِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ عَلَى غَيرِ هَذَا التَّرْتِيبِ لَمَا نَجَحَ هَذَا النَّجَاحَ في تَخْرِيجِهِ عَلَى الدِّينِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ مَعْكُوسَةً سَلْبِيَّةً .

وعَلَى كُلٍّ فَقَدْ حَدَثَ الإِقْبَالُ الشَّامِلُ عَلَى الدِّينِ، وبَدَتْ آثَارُهُ في السُّلُوكِ، حَتَّى إِنَّ الْمَنْطِقَةَ الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الْمَسْجِدَ غَنِيَتْ بِالْمَسَاجِدِ في كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَانْبَثَّتْ شَبَكَةُ الكَتَاتِيبِ والْمَدَارِسِ، وكَثُرَ حُفَّاظُ القُرْآنِ الكَرِيمِ، ووُجِدَ عَدَدٌ وَجِيهٌ لِلعُلَمَاءِ والخَرِّيجِينَ في العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ ..؛ ورَسَخَ في القُلُوبِ الوَضْعُ الإِسْلَامِيُّ، وحَرِصَ النَّاسُ عَلَى إِعْفَاءِ اللِّحَى، وَانْتَهَتِ التَّقَالِيدُ الجَاهِلِيَّةُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّوَاجِ، وقَلَّ الرِّبَا والتَّعَاطِي الرِّبَوِيُّ، وشَذَّ مَنْ يَحْتَسِي الخَمْرَ، وقَلَّ النَّهْبُ والغَارَةُ، وقَطْعُ الطَّرِيقِ، وَانْخَفَضَتْ إِلَى حَدٍّ مُدْهِشٍ نِسْبَةُ الجَرَائِمِ الخُلُقِيَّةِ والإِضْطِرَابَاتِ والصِّرَاعَاتِ والخُصُومَاتِ، وكَذَلِكَ ذَبُلَتِ البِدَعُ والخُرَافَاتُ والتَّقَالِيدُ غَيرُ الإِسْلَامِيَّةِ، وعَادَاتُ الفِسْقِ والفُجُورِ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَجِدِ الجَوَّ الْمُلَائِمَ لَهُ، ولَا التَّرْبِيَةَ الصَّالِحَةَ في حَقِّهِ .

وقَدْ تَحَدَّثَ عَجُوزٌ مِيوَاتِيٌّ عَنْ تِلْكَ الحَقِيقَةِ في بَلَاغَةٍ، وبِكَلِمَاتٍ عَمِيقَةٍ ذَاتِ دَلَالَاتٍ دَقِيقَةٍ لَا مَزِيدَ عَلَيهَا، وذَلِكَ عِندَمَا سَأَلَهُ الشَّيخُ الْمُقْرِئُ دَاوُودُ : مَاذَا يَجْرِي الآنَ في مَنْطِقَتِك؟ قَالَ الْمِيوَاتِيُّ : لَا أَدْرِي إِلَّا شَيئًا وَاحِدًا : أَنَّ الأُمُورَ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَنْفِدُ جُهُودًا جَبَّارَةً ولَا يَتَحَقَّقُ شَيءٌ مِنهَا، عَادَتِ الآنَ تَتِمُّ دُونَ مُحَاوَلَةٍ، وأَنَّ الأُمُورَ الَّتِي مِنْ أَجْلِ القَضَاءِ عَلَيهَا كَانَ يُبْذَلُ أَقْصَى الجُهُودِ، وتُشْعَلُ الحُرُوبُ، وتُخَاضُ الْمَعَارِكُ، وتَكُونُ النَّتِيجَةُ صِفْراً، أَصْبَحَتِ الآنَ تَغِيبُ دُونَ سَعْيٍ [١] .

(١) من كتاب «الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته الدينية» . ص (٢٩-٣٦).

www.saida-islam.weebly.com

الرِّسَالَةُ الرَّابِعَةُ :

وَقَالَ الشَّيخُ أَبُو بَكْرٍ الجَزَائِرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : لَقَدْ عَرَفْتُ هَذِهِ الجَمَاعَةَ – يَعْنِي القَائِمِينَ بِعَمَلِ الدَّعْوَةِ والتَّبلِيغِ –، في شَمَالِ إِفْرِيقْيَا : الْمَغْرِبِ والجَزَائِرِ وتُونُسَ وليبْيَا، كَمَا عَرَفْتُهَا بِفَرَنْسَا وبَلْجِيكَا وهُولَنْدَا وأَلْمَانْيَا وبَرِيطَانْيَا، وسَمِعْتُ عَنْهَا بِأَمْرِيكَا، وفي القَارَّةِ الهِنْدِيَّةِ، وشَاهَدْتُ آثَارَ دَعْوَتِهَا في الشَّرْقِ الأَوْسَطِ؛ ومِنْ آثَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ مَا يَلِيْ :

(١) إِقَامُ الصَّلَاةِ ذَاتِ الخُشُوعِ .

(٢) إِظْهَارُ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ، كَالحِجَابِ لِلنِّسَاءِ، وإِعْفَاءِ اللِّحْيَةِ في الرِّجَالِ، وتَغْطِيَةِ الرَّأْسِ بِالعِمَامَةِ ونَحْوِهَا .

(٣) تَرْكُ الشِّرْكِيَّاتِ والخُرَافَاتِ قَولاً وعَمَلاً واعْتِقَاداً.

(٤) الاِسْتِجَابَةُ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، والعَمَلُ بِالكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ .. هَذَا في شَمَالِ إِفْرِيقْيَا؛ وأَمَّا في أُوْرُوبَّا، فَإِنَّ آثَارَ دَعْوَةِ التَّبْلِيغِ مَحْمُودَةٌ جِدّاً، إِذْ ظَهَرَ بِهَا الإِسْلَامُ، وَانْتَشَرَ بَينَ العُمَّالِ الْمُسْلِمِينَ، فَبُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ، وأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، وظَهَرَ الزِّيُّ الإِسْلَامِيُّ : لِحْيَةً وعِمَامَةً وثَوباً وقَمِيصاً، ودُعِيَ إِلَى الإِسْلَامِ، ودَخَلَ العَدِيدُ مِنَ النَّصَارَى في الإِسْلَامِ، فَكَانُوا عَشَرَاتِ الآلَافِ، الأَمْرُ الَّذِي مَا كَانَ يَتِمُّ إِلَّا بِفَتْحٍ إِسْلَامِيٍّ، قِوَامُهُ السِّلَاحُ والجِهَادُ والاِسْتِشْهَادُ؛ هَذِهِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، ولَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَاهِلٌ بِهَا أَوْ مُتَجَاهِلٌ لَهَا لِأَغْرَاضٍ شَخْصِيَّةٍ أَوْ حِزْبِيَّةٍ .

لَقَدْ مَضَتْ عَشَرَاتُ السِّنِينَ، والْمُسْلِمُ لَا يَسْتَطِيعُ في أُوْرُوبَّا أَنْ يُظْهِرَ إِسْلَامَهُ فَضْلاً عَنْ أَمْرِيكَا، فَأَكْثَرُ العُمَّالِ سِكِّيرُونَ تَارِكُونَ لِلصَّلَاةِ، مُتَفَرْنِجُونَ لُغَةً وزِيًّا وخُلُقاً وسُلُوكاً، حَتَّى جَاءَ الحَقُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى بِجَمَاعَةِ التَّبْلِيغِ، تَحْمِلُ هِدَايَةَ الإِسْلَامِ، عَقِيدَةً وعِبَادَةً وسُلُوكاً، وذَلِكَ في صَمْتٍ ويُسْرٍ وسُهُولَةٍ، فَوُجِدَ الإِسْلَامُ في أَمْرِيكَا وأُوْرُوبَّا بِصُورَةٍ مَا كَانَ يُتَصَوَّرُ وُجُودُهَا، فَضْلاً عَنْ رُؤْيَتِهَا، بِغَيرِ جِهَادٍ بِالسَّيْفِ .

www.saida-islam.weebly.com

وَآثَارُ دَعْوَةِ التَّبْلِيغِ فِي القَارَّةِ الهِنْدِيَّةِ لَا تَقِلُّ عَنهَا فِي غَيرِهَا، فَقَدْ رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الإِسْلَامِ بَعدَ التَّنَكُّرِ لَهُ، والخُرُوجِ عَنْ تَعَالِيمِهِ، والضَّيَاعِ فِي مَتَاهَاتِ البِدَعِ والخُرَافَاتِ، وصُنُوفِ الشِّرْكِيَّاتِ، وحَسْبُكَ أَنَّ مُؤْتَمَرَاتٍ تُعْقَدُ سَنَوِيًّا تَضُمُّ مِئَاتِ الآلَافِ فِي تَجَمُّعَاتٍ تُبْهِرُ العُقُولَ فِي نِظَامِهَا، ودِقَّةِ تَرْتِيبِهَا، وهِيَ تَنْتَشِرُ فِي أَنْحَاءِ العَالَمِ، تُبَشِّرُ بِالإِسْلَامِ، وتَدْعُو إِلَيهِ بِالحَالِ والقَالِ مَعاً .

وَفِي الشَّرْقِ الأَوْسَطِ، آثَارُ جَمَاعَةِ التَّبْلِيغِ فِي مِصْرَ وَالأُرْدُنِّ وسُورِيَّا ولُبْنَانَ واليَمَنِ الشَّمَالِيِّ، وفِي كُلِّ دُوَلِ الخَلِيجِ ظَاهِرَةٌ، فَكَمْ مِنْ مُنْحَرِفٍ اسْتَقَامَ، وكَمْ مِنْ غَافِلٍ سَاهٍ لَاهٍ اسْتَفَاقَ، وكَمْ مِنْ مُعْرِضٍ عَنِ اللهِ ودِينِهِ رَجَعَ إِلَى اللهِ وآبَ؛ وَلَا إِخَالُ مِثْلَ هَذَا يَخْفَى عَلَى الْمُصْلِحِينَ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ [١] .

❖❖❖❖❖

(١) «القول البليغ في جماعة التبليغ لأبي بكر الجزائري».

www.saida-islam.weebly.com

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ

رِسَالَةٌ إِلَى عُمُومِ الأُمَّةِ : شُعُوبِهَا وَحُكُومَاتِهَا، وَعُلَمَاءِهَا وَعَامَّتِهَا، لِلْعَوْدَةِ إِلَى مُهِمَّتِهَا الأَسَاسِيَّةِ، بِخِدْمَةِ دِينِهَا وَالقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَيهِ حَقَّ القِيَامِ، وَتَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ الجُهْدِ لإِقَامَةِ الدِّينِ :

إِنَّ أَكْبَرَ مُهِمَّةٍ دِينِيَّةٍ فِي هَذَا العَصْرِ وَأَعْظَمَ خِدْمَةٍ وَأَجَلَّهَا لِلأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ هِيَ دَعْوَةُ السَّوَادِ الأَعْظَمِ لِلأُمَّةِ وَأَغْلَبِيَّتِهَا السَّاحِقَةِ إِلَى الِانْتِقَالِ مِنْ صُورَةِ الإِسْلَامِ إِلَى حَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، وَيَبْذُلُوا جُهُودَهُم وَمَسَاعِيَهُم فِي بَثِّ رُوحِ الإِسْلَامِ فِي جِسْمِ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، وَلَا يَدَّخِرُوا فِي ذَلِكَ وُسْعاً؛ فَلِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ؛ فَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ شَأْنُ الأُمَّةِ، وفِي نَتِيجَتِهِ شَأْنُ العَالَمِ بِأَسْرِهِ، فَإِنَّ شَأْنَ العَالَمِ تَبَعٌ لِشَأْنِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَشَأْنَ الأُمَّةِ تَبَعٌ لِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، فَإِذَا زَالَتْ حَقِيقَةُ الإِسْلَامِ مِنَ الأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، فَمَنْ يَدْعُو العَالَمَ إِلَى حَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، وَمَنْ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ؟ قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى عليه السلام لِأَصْحَابِهِ : **أَنْتُم مِلْحُ الأَرْضِ، فَإِذَا زَالَتْ مُلُوحَةُ الْمِلْحِ فَمَاذَا يُمَلِّحُ الطَّعَامَ** ؟. قَدْ أَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا اليَومَ جَسَداً بِلَا رُوحٍ، لِأَنَّ السَّوَادَ الأَعْظَمَ لِلأُمَّةِ مُجَرَّدٌ عَنِ الرُّوحِ، فَارِغٌ عَنِ الحَقِيقَةِ، فَكَيفَ تَعُودُ الرُّوحُ وَالحَقِيقَةُ فِي الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى؟

إِنَّ قَضِيَّةَ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ الكُبْرَى اليَومَ، هِيَ رِدَّةٌ اكْتَسَحَتْهُ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ، وَغَزَتِ الأُسَرَ وَالبُيُوتَاتِ، وَالْمَدَارِسَ وَالكُلِّيَّاتِ، وَالجَامِعَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ؛ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَلْفِتِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ تَشْغَلْ خَاطِرَهُم، لِأَنَّ صَاحِبَهَا لَا يَدْخُلُ كَنِيسَةً أَوْ هَيكَلاً، وَلَا يُعْلِنُ رِدَّتَهُ وَانْتِقَالَهُ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ، وَلَا تَنْتَبِهُ لَهُ الأُسْرَةُ فَتُقَاطِعُهُ، بَلْ يَظَلُّ يَعِيشُ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُ بِحُقُوقِهَا، وَقَدْ يُسَيْطِرُ عَلَيهَا؛ وَلَا يَتَنَبَّهُ لَهُ الْمُجْتَمَعُ، فَلَا يُحَاسِبُهُ، وَلَا يُعَاتِبُهُ، بَلْ يَظَلُّ يَعِيشُ فِيهِ وَيَتَمَتَّعُ بِحُقُوقِهِ، وَقَدْ يُسَيْطِرُ عَلَيهِ .

إِنَّهَا قَضِيَّةٌ لَا تَتَطَلَّبُ حَرْباً، وَلَا ثَوْرَةً، وَلَا عُنْفاً، بَلْ إِنَّ العُنْفَ يَضُرُّهَا وَيُهَيِّجُهَا؛ وَإِنَّمَا تَتَطَلَّبُ رِجَالاً يَنْقَطِعُونَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَيُكَرِّسُونَ عَلَيهَا عِلْمَهُم وَمَوَاهِبَهُم وَكِفَايَتَهُم، وَلَا

www.saida-islam.weebly.com

يَطْمَعُونَ فِي مَنْصِبٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ وَظِيفَةٍ أَوْ حُكُومَةٍ، وَلَا يَحْمِلُونَ لِأَحَدٍ حِقْداً، يَنْفَعُونَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ، وَيُعْطُونَ وَلَا يَأْخُذُونَ، وَلَا يُزَاحِمُونَ طَبَقَةً فِي شَيْءٍ تَحْرِصُ عَلَيهِ وَتَتَهَالَكُ، حَتَّى لَا تَكُونَ لَهَا حُجَّةٌ عَلَيهِم، وَلَا لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ إِلَيهِم، شِعَارُهُمُ الإِخْلَاصُ وَالتَّجَرُّدُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالأَنَانِيَّاتِ وَالعَصَبِيَّاتِ، فَيَتَجَرَّدُونَ عَنِ الْمَطَامِعِ، وَيُخْلِصُونَ لِلدَّعْوَةِ، مُتَمَثِلِينَ أَخْلَاقَ الأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِهِمْ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَيَاةَ الأُمَمِ بِالرِّسَالَةِ وَالدَّعْوَةِ، وَأَنَّ الأُمَّةَ الَّتِي لَا تَحْمِلُ رِسَالَةً وَلَا تَسْتَصْحِبُ دَعْوَةً، حَيَاتُهَا مُصْطَنَعَةٌ غَيرُ طَبْعِيَّةٍ، وَأَنَّهَا كَوَرَقَةٍ انْفَصَلَتْ عَنْ شَجَرَتِهَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا بِسَقْيٍ أَوْ رِيٍّ؛ إِنَّنَا أُمَّةُ الحَاضِرِ وَأُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ، قَدْ كَتَبَ اللهُ لَنَا الخُلُودَ وَالنَّصْرَ، لِأَنَّنَا أَصْحَابُ دَعْوَةٍ وَرِسَالَةٍ نَبَوِيَّةٍ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ الأَبَدِيَّةُ الَّتِي قَضَى اللهُ بِخُلُودِهَا وَظُهُورِهَا؛ فَلَسْنَا تَحتَ سَيْطَرَةِ الْمَادَّةِ وَحُكْمِ الزَّمَانِ، بِشَرْطِ أَنْ نَقُومَ بِدَعْوَتِنَا، وَنَسْتَقِلَّ بِرِسَالَتِنَا، وَنَعُودَ أُمَّةَ دَعْوَةٍ نَبَوِيَّةٍ كَمَا بَدَأْنَا : دَعْوَةٍ فِيمَا بَيْنَنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَدَعْوَةٍ فِي غَيرِنَا مِنَ الأَجَانِبِ فِي الدِّينِ .

لَقَدْ تَخَلَّفْنَا عَنِ الأُمَمِ الْمُعَاصِرَةِ فِي العُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالأَسْبَابِ الحَرْبِيَّةِ، وَفِي الأَخْذِ بِأَسْبَابِ الرُّقِيِّ الْمَادِّيِّ بِعِدَّةِ قُرُونٍ؛ فَلَوْ حَارَبْنَا هَذِهِ الأُمَمَ اليَومَ لَاسْتَغْرَقَ ذَلِكَ قُرُوناً، ثُمَّ كَانَتِ الْمُقَارَنَةُ بِحِسَابٍ دَقِيقٍ؛ فَإِذَا أَفَاقَ العَدُوُّ، وَسَبَقَنَا بِشَعْرَةٍ فِي القُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ وَالعُدَدِ الحَرْبِيَّةِ رَجَحَتْ كِفَّتُهُ، لِأَنَّ الْمَادَّةَ عَمْيَاءُ، وَهِيَ مِنَ القَسَاوَةِ وَالحِيَادِ بِمَكَانٍ لَا تُفَرِّقُ فِيهِ بَينَ الْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ، وَالشَّرِيفِ وَالوَضِيعِ؛ بَلْ حَتَّى وَلَوْ تَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيهِم فِي العَدَدِ وَالعُدَدِ، دُونَ تَقْدِيمِ الدَّعْوَةِ، وَإِرَادَةِ الهِدَايَةِ لِلنَّاسِ، لَمَا كَانَ لِهَذِهِ الأَسْبَابِ أَثَرٌ فِي تَحْقِيقِ الغَلَبَةِ .

وَلَكِنَّ الدَّعْوَةَ وَالرِّسَالَةَ – وَهِيَ الرُّوحُ الَّتِي تَقْهَرُ الْمَادَّةَ، وَتُسَخِّرُ الأَسْبَابَ، وَتَسْتَنْزِلُ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللهِ – تَأْتِي بِخَوَارِقَ وَمُعْجِزَاتٍ، فَلَطَالَمَا قَهَرَتِ القَاهِرَ، وَفَتَحَتِ الغَالِبَ؛ وَطَالَمَا خَضَعَتِ الحُكُومَاتُ القَاهِرَةُ، وَدَانَتِ الْمُلُوكُ الجَبَابِرَةُ بِقُوَّةِ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ لِلْمَمَالِيكِ وَالصَّعَالِيكِ؛ وَالتَّارِيخُ يَشْهَدُ بِهَذَا بِوُضُوحٍ، مِنْ خِلَالِ خُرُوجِ الصَّحَابَةِ لِبِلَادِ الفُرْسِ وَالرُّومِ، دُعَاةً مُبَشِّرِينَ؛ فَكَانَ الِانْتِصَارُ لِأَصْحَابِ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ عَلَى أَصْحَابِ القُوَّةِ وَالأَسْبَابِ

www.saida-islam.weebly.com

الْمَادِّيَّةِ؛ فَالرِّسَالَةُ الإِسْلَامِيَّةُ تَأْتِي بِالْمُعْجِزَاتِ، وَتَقْهَرُ الأُمَمَ طَوعًا - لَا كَرْهاً - بِسُلْطَانِهَا الرُّوْحِيِّ، وَنُفُوذِهَا العَجِيبِ .

إِنَّ الأُمَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ لَا تَزَالُ - عَلَى عِلَّاتِهَا وَضَعْفِهَا - مُسْتَمْسِكَةً اسْتِمْسَاكاً مَا بِعُرْوَةِ الدِّينِ، وَهِيَ الإِيْمَانُ بِاللهِ وَالرَّسُولِ ﷺ، وَاليَقِينُ بِالدَّارِ الآخِرَةِ وَالحِسَابِ، لَمْ تَتْرُكْهَا أَلْبَتَّةَ؛ وَلَا يَزَالُ كِتَابُ رَبِّهَا فِي يَدِهَا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ التَّحْرِيفُ، وَلَا تَزَالُ سِيرَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَأُسْوَتُهُ الحَسَنَةُ بِمُتَنَاوَلِ يَدِهَا؛ فَالدَّعْوَةُ إِلَى الدِّينِ مَيْسُورَةٌ، وَالتَّجْدِيدُ مُمْكِنٌ، وَالقُلُوبُ مُتَهَيِّئَةٌ، وَجَمْرَةُ الإِيمَانِ سَرِيعَةُ الِاتِّقَادِ، وَالشُّقَّةُ بَينَ الصُّورَةِ وَالحَقِيقَةِ قَصِيرَةٌ، **وَالقَنْطَرَةُ بَينَهُمَا : الدَّعْوَةُ إِلَى تَجْدِيدِ الإِيْمَانِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الدِّينِ، وَالتَّشَبُّعِ بِرُوحِهِ، وَالتَّحَلِّي بِحَقِيقَتِهِ** .

إِنَّ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ لَمْ تَزَلْ تَطْفُو كُلَّمَا رَسَبَتْ، وَتَظْهَرُ كُلَّمَا اخْتَفَتْ؛ وَكُلَّمَا ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ الإِسْلَامِ وَتَجَلَّتْ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ أَوْ عَصْرٍ مِنْ عُصُورِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، غَلَبَتْ وَانْتَصَرَتْ، وَكَذَّبَتْ تَجَارِبَ النَّاسِ وَقِيَاسَهُمْ وَتَقْدِيرَهُمْ؛ وَهَبَّتْ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ نَفَحَاتُ القَرْنِ الأَوَّلِ؛ وَإِنَّ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ فِي هَذَا العَصْرِ إِذَا ظَهَرَتْ وَتَمَثَّلَتْ فِي جَمَاعَةٍ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تُذَلِّلَ كُلَّ عَقَبَةٍ، وَتَهْزِمَ كُلَّ قُوَّةٍ، وَتَأْتِي بِعَجَائِبَ وَآيَاتٍ مِنَ الإِيْمَانِ وَالشَّجَاعَةِ وَالإِيْثَارِ، يَعْجِزُ النَّاسُ عَنْ تَعْلِيلِهَا، كَمَا عَجَزُوا مِنْ قَبْلُ عَنْ تَعْلِيلِ حَوَادِثِ الفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ، وَأَخْبَارِ القَرْنِ الأَوَّلِ .

إِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ قَدِ انْتَشَرُوا فِي عَوَاصِمِ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى وَمَرَاكِزِهَا الكُبْرَى، يَقُولُونَ : **اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَورِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ** . وَخَلَّصُوا الأُمَّةَ الرُّوْمِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَسِيحِ وَالصَّلِيبِ وَالأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَالْمُلُوكِ؛ وَخَلَّصُوا الأُمَّةَ الفَارِسِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ النَّارِ، وَالأُمَّةَ الهِنْدِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ البَقَرِ؛ وَأَخْرَجُوهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا فِعْلاً، وَمِنْ جَورِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ؛ وَالعَالَمُ يَنْتَظِرُ مُنْذُ زَمَانٍ رُسُلَ الْمُسْلِمِينَ، يَنْتَشِرُونَ فِي عَوَاصِمِ الجَاهِلِيَّةِ الثَّانِيَةِ، يَهْتِفُونَ : اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ العِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَادَّةِ وَالشَّهَوَاتِ، إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،

www.saida-islam.weebly.com

وَمِنْ ضِيقِ عَالَمِ التَّنَافُسِ وَالأَثَرَةِ وَالجَشَعِ الْمَادِّيِّ، إِلَى سَعَةِ عَالَمِ القَنَاعَةِ وَالإِيْثَارِ وَالزُّهْدِ، وَنَعِيمِ الرُّوحِ وَطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ، وَمِنْ جَورِ النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ .

فَالبَشَرِيَّةُ البَائِسَةُ تَسْتَصْرِخُ هَذِهِ الأُمَّةَ وَتَسْتَغِيثُهَا، وَلَيسَ العَالَمُ اليَومَ بِأَقَلَّ ظَمَأً وَفَاقَةً إِلَى الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنْهُ بِالأَمْسِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ، لَيسَ لَهُمْ دَعْوَةٌ إِلَى اللهِ، وَلَا رِسَالَةٌ لِلإِنْسَانِيَّةِ الْمُحْتَضَرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُم هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَبُطُونَهُم وَشَهَوَاتِهِمْ، لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ مَا يُبَرِّرُ تَارِيخَهُمُ الْمَاضِي، الَّذِي افْتُتِحَ بِالدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا، وَلَا مَا يُبَرِّرُ وُجُودَهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ، فَإِنَّمَا نُصِرُوا وَاسْتُبْقُوا بِشَرِيطَةِ القِيَامِ بِالعِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيهَا .

وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ هِيَ النَّاجِيَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي لَا تَزَالُ فَارِغَةً فِي خَارِطَةِ العَالَمِ، لَا تَشْغَلُهَا أُمَّةٌ وَلَا دَعْوَةٌ، فَإِذَا عَمَرَهَا الْمُسْلِمُونَ أَحْسَنُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَأَمْسَكُوا هَذَا العَالَمَ الْمُتَمَدِّنَ، الَّذِي كَادَ يَهْوِي إِلَى الهَاوِيَةِ .

إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ فَرِيضَةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْخِيرَ، وَلَا تَأْخِيرَ يَومٍ وَاحِدٍ، فَالعَالَمُ الإِسْلَامِيُّ يُوَاجِهُ اليَومَ رِدَّةً عَنِيفَةً مُنْتَشِرَةً فِي أَعَزِّ أَبْنَائِهِ وَأَقْوَى أَجْزَائِهِ؛ إِنَّهَا ثَورَةٌ عَلَى أَعَزِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ عَقِيدَةٍ وَخُلُقٍ وَقِيَمٍ، وَلَا بَقَاءَ لِلعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ بَعدَ ضَيَاعِ هَذِهِ الثَّرْوَةِ الَّتِي خَلَّفَهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَتَوَارَثَهَا الأَجْيَالُ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهَا أَبْطَالُ الإِسْلَامِ؛ فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِنَا العَظِيمِ هِيَ القُوَّةُ الكُبْرَى بِأَيْدِينَا، فَهِيَ حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَفِيهَا إِنْقَاذُ العَالَمِ مِنْ نِهَايَتِهِ الأَلِيمَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ وَتَدْنُو إِلَيهِ، وَبِهَا تُسْتَنْزَلُ نُصْرَةُ اللهِ وَحِفَاظَتُهُ لَنَا .

فَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى أُوْرُوبَّا الحَائِرَةِ التَّائِهَةِ، بِإِخْلَاصٍ وَنَزَاهَةٍ، وَتَوَجُّعٍ وَشَفَقَةٍ، وَبِقُوَّةِ وَثِقَةٍ وَإِيْمَانٍ؛ وَلْنَنْظُرْ إِلَى أَنْفُسِنَا كَدُعَاةٍ وَمُنْقِذِينَ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَنَسْتَخْدِمْ هَذِهِ القُوَّةَ الجَبَّارَةَ فِي تَغْيِيرِ مَصِيرِنَا وَمَصِيرِ العَالَمِ؛ وَلْنَحْتَلَّ بِفَضْلِهَا مَكَانَةَ الزَّعَامَةِ وَالقِيَادَةِ فِي رَكْبِ الإِنْسَانِيَّةِ وَمَصَافِّ الأُمَمِ، بَعْدَمَا عِشْنَا زَمَناً طَوِيلاً فِي مُؤَخَّرِ الرَّكْبِ، وَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي : **إِمَّا تُقْبَلُ، فَتَرْفَعُ وَتُؤَمِّنُ؛ وَإِمَّا تُرْفَضُ، فَتُهْلِكُ وَتَقْهَرُ** .

www.saida-islam.weebly.com

وَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي أَوْجَبَ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ نَصْرَهَا وَنَصْرَ رِجَالِهَا إِلَى مَجَالَاتٍ مَهْجُورَةٍ وَكُنُوزٍ مَطْمُورَةٍ، فِي آسْيَا وَإِفْرِيقْيَا، إِلَى الشُّعُوبِ الَّتِي مَلَكَتِ الوَسَائِلَ وَالعِلْمَ وَالصِّنَاعَةَ، وَالبِلَادَ الوَاسِعَةَ، وَالعُقُولَ الخَصْبَةَ، وَالسَّوَاعِدَ القَوِيَّةَ، وَجَهِلَتِ الدِّينَ وَالغَايَاتِ الصَّالِحَةَ، وَالْمَبَادِئَ الفَاضِلَةَ، وَهِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبُولِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَإِذَا قَبِلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ وَفَقِهَتْهَا وَأَخْلَصَتْ لَهَا، تَغَيَّرَ مَجْرَى التَّارِيخِ مِنْ جَدِيدٍ، كَمَا تَغَيَّرَ فِي العَهْدِ الأَوَّلِ، بِإِسْلَامِ الفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ، وَفِي العَهْدِ الأَوْسَطِ بِإِسْلَامِ التَّتَارِ وَالْمَغُولِ [١] .

❖❖❖❖❖

(١) من كتاب «إلى الإسلام من جديد» لأبي الحسن الندوي. من صفحة (١٩) وما بعدها، وصفحة (٨٩) وما بعدها إلى آخر الكتاب، بتصرف واختصار .

www.saida-islam.weebly.com

خاتمة

بَعدَ هَذِهِ الجَوْلَةِ الْمُبَارَكَةِ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى –، والَّتِي طُفْتُ مِنْ خِلَالِهَا بِبَيَانٍ تَأْصِيلِيٍّ لِعَمَلِ «الخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ» لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ، بَيَّنْتُ مِنْ خِلَالِهَا أَصْلَ هَذَا العَمَلِ ومَرْجِعِيَّتَهُ الشَّرْعِيَّةَ، وأَنَّهُ يَنْدَرِجُ تَحتَ بَابِ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، الَّتِي جَاءَ الشَّرْعُ الحَنِيفُ بِاعْتِبَارِهَا، وحَثَّ عَلَيهَا في غَيرِ مَا مَوضِعٍ، وذَكَرْتُ أَنَّ «الخُرُوجَ في سَبِيلِ اللهِ» لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ يَدْخُلُ في قِسْمِ الأَحْكَامِ الَّتِي يُتَّبَعُ فِيهَا تَحْقِيقُ مَصَالِحِ العِبَادِ الْمُتَوَافِقَةِ مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ في الْمَعَاشِ والْمَعَادِ، وذَكَرْتُ أَهَمِّيَّةَ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلَامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ، وأَنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، ويَسْعَونَ لِتَحْقِيقِهَا بِالوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ، دُونَ تَقَيُّدٍ بِالوَسَائِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَيهَا، وأَنَّ تَرْتِيبَ الأَوْقَاتِ لِهَذَا الْخُرُوجِ هُوَ أَفْضَلُ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ بِعَيْنِهِ في السَّابِقِ، لِكَونِهِ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، وأَنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَ مَقَاصِدِهِ . كَمَا ذَكَرْتُ كَلَامَ عَدَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ في بَيَانِ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَانْقِسَامِهَا إِلَى لُغَوِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ، وَبَيَانِ الْمَذْمُومِ مِنْهَا، مَعَ بَيَانِ الفَرْقِ بَينَ البِدْعَةِ الْمَذْمُومَةِ والْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ؛ وغَيرِ ذَلِكَ .

بَعْدَ هَذِهِ الجَوْلَةِ أَقُولُ : إِنَّ عَمَلَ الدَّعْوَةِ والتَّبلِيغِ في الحَقِيقَةِ : هُوَ خِلافَةُ النَّبِيِّ ﷺ ونِيَابَتُهُ في أُمَّتِهِ؛ وإِنَّ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ ﷻ بَعْدَ مَنْزِلَةِ الرِّسَالَةِ والنُّبُوَّةِ وَأَشْرَفَهَا، هِيَ مَنْزِلَةُ خِلافَتِهِ ﷺ ونِيَابَتِهِ في أُمَّتِهِ؛ فَخُلَفَاؤُهُ ﷺ ونُوَّابُهُ هُمُ الْوَسَائِطُ بَينَهُ وبين أُمَّتِهِ؛ وهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وحِزْبُهُ وخَاصَّتُهُ وحَمَلَةُ دِينِهِ؛ يَخْلُفُونَهُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وطَرِيقِهِ : مِنْ نَصِيحَتِهِ لِلأُمَّةِ، وإِرْشَادِهِ الضَّالَّ، وتَعْلِيمِهِ الجَاهِلَ، وأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ وفِعْلِهِ، ونَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وتَرْكِهِ، وَالدَّعوةِ إلى اللهِ بالحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ؛ فَهَذِهِ حَالُ أَتْبَاعِهِ ﷺ وَوَرَثَتِهِ؛ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ .. فَلَا يَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقّاً إِلاَّ مَنْ دَعَا إِلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، كَمَا كَانَ مَتْبُوعُهُ يَفْعَلُ ﷺ [(١)] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» باختصار وتصرف (١/٧٨) .

www.saida-islam.weebly.com

وخُلَفَاؤُهُ ﷺ ونُوَّابُهُ فِي أُمَّتِهِ : هُمُ الدُّعَاةُ الْمَخْصُوصُونَ بِهِ، الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى دِينِ اللهِ وعِبَادَتِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ؛ وَهُمُ الْمَضْمُونُ لَهُمْ أَنَّهُم لا يَزَالُونَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ وهُمْ خُوَاصُّ خَلْقِ اللهِ، وأَفْضَلُهُمْ عِندَ اللهِ مَنْزِلَةً، وأَعْلاهُمْ قَدْراً، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَولُهُ ﷻ : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت: ٣٣]، قَالَ الحَسَنُ – يعني البِصْرِيَّ – رَحِمَهُ اللهُ : **هُوَ الْمُؤْمِنُ أَجَابَ اللهَ فِيْ دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللهَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وعَمِلَ صَالِحاً فِي إِجَابَتِهِ، فَهَذَا حَبِيْبُ اللهِ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ** [(١)] .

وهُمُ الْمُبَارَكُونَ أَيْنَمَا كَانُوا؛ فَإِنَّ بَرَكَةَ الرَّجُلِ تَعْلِيْمُهُ لِلْخَيْرِ حَيْثُ حَلَّ، ونُصْحُهُ لِكُلِّ مَنِ اجْتَمَعَ بِهِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ إِخْبَاراً عَنِ الْمَسِيحِ عليه السلام : ﴿ **وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ** ﴾ [مريم: ٣١]، أَيْ مُعَلِّماً وداعِياً إِلَى اللهِ، مُذَكِّراً بِهِ، مُرَغِّباً فِي طَاعَتِهِ؛ فَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الرَّجُلِ؛ ومَنْ خَلا مِنْ هَذَا فَقَدْ خَلَا مِنَ الْبَرَكَةِ، وحُقِّقَتْ بَرَكَةُ لِقَائِهِ وَالاِجْتِمَاعِ بِهِ، بَلْ حُقِّقَتْ بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ [(٢)] .

وَدَرَجَتُهُمْ هِيَ أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الأُمَّةِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِهَا وشَرَفِهَا إِلاَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلِمَ بِتَعْلِيمِهِمْ وإِرْشَادِهِمْ وعَلَّمَ غَيْرَهُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، – ولَوْ قَلَّ –، كَانَ لَهُمْ مِثْلُ أَجْرِهِ، مَا دَامَ ذَلِكَ جَارِياً فِي الأُمَّةِ عَلَى آبَادِ الدُّهُورِ، وقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه :" **فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** "[(٣)]؛ وصَحَّ عَنهُ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٥٣) . قلت : وهذه الفضائلُ والمناقب يحوزُها كلُّ مَنْ قام بدعوة النَّاس إلى الله ﷻ وإلى دينه، مهما كانت الوسيلةُ الْمَدْعُوُّ بها، ما دامت لا تخالف الضَّوَابِطَ الشَّرعِيَّةَ؛ ولكنْ لا يُقَاسُ مَنْ جعل هذه الدَّعوَةَ المبَارَكَةَ أكبرَ همِّهِ، وبَذَلَ في سبيلها نفسَهُ ومالَهُ، وتَرَكَ لأجلها أهلَهُ وعيالَهُ، ووَطنَهُ وأحبَابَهُ، وعَرَّضَ نفسَهُ لصُنُوفِ الأَذَى الْمَادِّيَّةِ والمعنَوِيَّةِ، مُحتسِباً الأجرَ منَ الله ﷻ، راغِباً فيمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الأَجرِ العظيمِ، والعَطَاءِ الجَزِيلِ، والدَّرجاتِ العُلَى في الجَنَّةِ، لا يُرِيدُ علَيهَا جَزَاءً ولا شُكُوراً، لا يُقَاسُ هَذَا بغيره؛ واللهُ أعلمُ، وعِلمُهُ أتمُّ وأحكمُ .

(٢) من «رسالة ابن القيم لأحد الإخوان» ص (٥) .

(٣) رواه البخاري عن سهل بن سعد برقم (٢٧٤٢) ومسلم برقم (٢٤٠٦) .

www.saida-islam.weebly.com

ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ** " [(١)]. وأَصْحَابُ هَذِهِ الْدرجة يُدْعَوْنَ عُظَمَاءَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : **مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيْماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ** [(٢)].

فَيَا لَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ مَا أَعْلاهَا ! ومَنْقَبَةٍ مَا أَجَلَّهَا وأَسْنَاهَا ! أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي حَيَاتِهِ مَشْغُولاً بِبَعْضِ أَشْغَالِهِ، أَوْ فِي قَبْرِهِ قَدْ صَارَ أَشْلاءً مُمَزَّقَةً وأَوْصَالاً مُتَفَرِّقَةً، وصُحُفُ حَسَنَاتِهِ مُتَزَايِدَةٌ تُمْلَى فِيهَا الْحَسَنَاتُ بِكُلِّ وَقْتٍ، وأَعْمَالُ الخَيْرِ مُهْدَاةٌ إِلَيهِ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، تِلْكَ واللهِ الْمَكَارِمُ والْمَغَانِمُ ! وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ! وعَلَيْهِ يَحْسُدُ الْحَاسِدُونَ ! وذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ، واللهُ ذُوْ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . وَحَقِيقٌ بِمَرْتَبَةٍ هَذَا شَأْنُهَا أَنْ تُنْفَقَ نَفَائِسُ الأَنْفَاسِ عَلَيْهَا، ويَسْتَبِقَ السَّابِقُونَ إِلَيْهَا، وتُوَفَّرَ عَلَيهَا الأَوْقَاتُ، وتَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا الطَّلَبَاتُ، فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَلَينَا خَزَائِنَ رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ [(٣)] .

فَبَادِرْ أَخِيْ الحَبِيبُ بِالرُّكُوبِ فِي سَفِينَةِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَارْكَبْ مَعَ أَهْلِهَا، ولَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَوَانِينَ؛ وحَذَارِ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَبَاطِئِينَ أَوِ الْمُبَطِّئِينَ، أَوِ الْمُتَثَاقِلِينَ أَوِ الْمُثَقِّلِينَ، أَوِ الْمُتَخَاذِلِينَ أَوِ الْمُخَذِّلِينَ؛ بَلْ سَارِعْ وَسَابِقْ ونَافِسِ الْمُجْتَهِدِينَ الْمُضَحِّينِ، فَإِنَّ هَذَا مَيدَانًا حُقَّ أَنْ يَتَنَافَسَ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ، ويَتَسَابَقَ فِيهِ الْمُخْلِصُونَ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ عَظَّمَ شَأْنَ السَّابِقِينَ، فَقَالَ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠ -١١].

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سَوْدَةَ، وَقَدْ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : فَقَالَ : **هُمْ أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﷻ [(٤)] .

---

(١) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله برقم (١٠١٧) .

(٢) حكاه ثور بن يزيد وبشر بن الحارث من كلام المسيح عليه السلام، «حلية الأولياء» (٦/٩٧) و(٨/٣٨٠) .

(٣) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٢/٧٦٤-٧٧١) .

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٩٣٣٩) .

www.saida-islam.weebly.com

وَخِتَاماً أَقُولُ : هَذَا مَا مَنَّ اللهُ بِهِ، ثُمَّ مَا وَسِعَهُ الجُهْدُ، وسَمَحَ بِهِ الوَقْتُ، وتَوَصَّلَ إِلَيهِ الفَهْمُ الْمُتَوَاضِعُ؛ فَيَا أَيُّهَا الْقَارِئُ لَهُ، لَكَ غُنْمُهُ وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ، لَكَ ثَمَرَتُهُ وَعَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، فَمَا وَجَدْتَ فِيْهِ مِنْ صَوَابٍ وَحَقٍّ فَاقْبَلْهُ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلى قَائِلِهِ، بَلِ انْظُرْ إِلَى مَا قَالَ لَا إِلَى مَنْ قَالَ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ ﷻ مَنْ يَرُدُّ الْحَقَّ إِذَا جَاءَ بِهِ مَنْ يُبْغِضُهُ، وَيَقْبَلُهُ إِذَا قَالَهُ مَنْ يُحِبُّهُ، فَهَذَا خُلُقُ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ؛ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : **اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ بَغِيْضاً، وَرُدَّ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ حَبِيْباً** [(١)] .

وَالصَّوَابُ مِنَ اللهِ ﷻ وَحْدَهُ، وَهُوَ الْمَانُّ بِهِ؛ وَمَا كَانَ فِيْهِ مِنْ خَطَإٍ فَمِنْ نَفْسِيْ وَالشَّيْطَانِ، وَاللهُ بَرِيْءٌ مِنْهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ آلُ جُهْدَ الإِصَابَةِ، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَنْفَرِدَ بِالْكَمَالِ، وَكَيْفَ يُعْصَمُ مِنَ الْخَطَإِ مَنْ خُلِقَ ظَلُوماً جَهُولاً ؟! وَلَكِنْ مَنْ عُدَّتْ غَلَطَاتُهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِمَّنْ عُدَّتْ إِصَابَاتُهُ [(٢)] .

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ بِأَسْمَاءِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقّاً وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، ويُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلاً وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وَأَلَّا يَجْعَلَهُ مُلْتَبِساً عَلَيْنَا فَنَضِلَّ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم الكتاب بحمد الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٣٧) عَنْ مَعْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللهِ – يعني ابن مَسعُودٍ –: أَوْصِنِي بِكَلِمَاتٍ جَوَامِعَ نَوَافِعَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ : **اعْبُدِ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَزُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُ زَالَ، وَمَنْ أَتَاكَ بِحَقٍّ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، وَمَنْ أَتَاكَ بِبَاطِلٍ فَارْدُدْهُ، وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا**. قال الهيثمي : رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ مَعْنًا لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ مَسْعُودٍ.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٤١٠) .

www.saida-islam.weebly.com

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة ..... (٥)

الفَصْلُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وَأَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ؛ وَضَرُورَةِ الاجْتِهَادِ فِي الأَحْكَامِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ والْمَكَانِ وَالأَحْوَالِ ..... (١٣)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الْمَعَاشِ والْمَعَادِ (١٤)

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لِسَلَامَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الخَطَأِ ..... (١٨)

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : تَقْسِيمُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ : أَحْكَامٍ تَعَبُّدِيَّةٍ تَوْقِيفِيَّةٍ، لَا يُلْتَفَتُ فِيهَا إِلَى الْمَعَانِي، ولَا تَتَغَيَّرُ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وأَحْكَامٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ، وهَذِهِ تَتَغَيَّرُ بِحَسْبِ اقْتِضَاءِ الْمَصْلَحَةِ لَهَا زَمَاناً ومَكَاناً وحالاً ..... (٢٢)

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ ضَرُورَةِ الِاجْتِهَادِ فِي «الحَوَادِثِ الَّتِي لَا نَصَّ عَلَيهَا»، وأَنَّ هَذَا الِاجْتِهَادَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ كَمَالِ الدِّينِ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى كَمَالِهِ وشُمُولِيَّتِهِ وصَلَاحِيَّتِهِ لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وحَالٍ؛ وبَيَانُ اعْتِمَادِ هَذَا الِاجْتِهَادِ عَلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ونُصُوصِهَا العَامَّةِ الكُلِّيَّةِ؛ وأَنَّ كُلَّ حَادِثَةٍ لَيسَ فِيهَا نَصٌّ يَشْمَلُهَا حُكْمُهُ الخَاصُّ، فَحُكْمُهَا إِلَى القِيَاسِ والْمِيزَانِ الْمَصْلَحِيَّيْنِ ..... (٢٤)

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : بَيَانُ أَنَّ الخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، ويَسْعَونَ لِتَحْقِيقِهَا بِالوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ، دُونَ تَقَيُّدٍ بِالوَسَائِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَيهَا، لِأَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مِنَ الوَسَائِلِ مَا يُنَاسِبُهُ دُونَ غَيرِهِ ..... (٣١)

www.saida-islam.weebly.com

الفَصْلُ الثَّانِي : بَيَانُ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَأَقْسَامِهَا، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمَذْمُومِ مِنْهَا وَبَيْنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ ..... (٤٣)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : كَلَامُ الأَئِمَّةِ فِي بَيَانِ مَفْهُومِ البِدْعَةِ وَانْقِسَامِهَا إِلَى لُغَوِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ، وَبَيَانُ الْمَذْمُومِ مِنْهَا ..... (٤٤)

- **تَتِمَّةٌ** فِي تَقْسِيمِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ لِلبِدْعَةِ الشَّرعِيَّةِ، إِلَى حَقِيقِيَّةٍ وإِضَافِيَّةٍ ..... (٥٨)

الْمَبْحَثُ الثَّانِي : بَيَانُ الفَرْقِ بَيْنَ البِدْعَةِ الْمَذْمُومَةِ والْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ ..... (٦١)

الفَصْلُ الثَّالِثُ : بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ فِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ أَعْظَمُ وَسِيلَةٍ تُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ الْمَنْشُودَةَ مِنْ هَذَا النِّظَامِ ..... (٦٧)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ نَشْأَةِ نِظَامِ الحِسْبَةِ، وحُكْمِ اسْتِحْدَاثِهِ، ودَوْرِهِ فِي إِقَامَةِ وَاجِبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ومَاذَا عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَفْعَلَ فِي ظِلِّ غِيَابِهِ ..... (٦٩)

الْمَبْحَثُ الثَّانِي : بَيَانُ أَنَّ تَرْتِيبَ الأَوْقَاتِ لِلْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ هُوَ أَفْضَلُ الوَسَائِلِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ بِعَيْنِهِ فِي السَّابِقِ، لِكَونِهِ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، وأَنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَ مَقَاصِدِهِ ..... (٧٦)

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : سُنَّتُهُ ﷺ وَسَبِيلُهُ فِي تَجْوَالِهِ لِدَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، وَتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَاتِّخَاذُهُ دَلِيلاً فِي جَولاتِهِ عِندَ الحَاجَةِ ..... (٨٧)

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ أَنَّ أَفْضَلَ الأَوْقَاتِ الَّتِي تُرَتَّبُ لِلْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ هِيَ مَا كَانَ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ، وإِنْ كَانَ غَيْرُهُ جَائِزاً ..... (٩٦)

أَوَّلاً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِعَدَدِ الثَّلاثَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ وَالعَادِيَّةِ ..... (٩٨)

ثَانِياً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِعَدَدِ الأَرْبَعِينَ فِي عِدَّةٍ مِنَ الأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ وَالعَادِيَّةِ ..... (١٠٤)

www.saida-islam.weebly.com

ثَالِثاً : اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لِلأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي عِدَّةٍ مِنَ الأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ وَالعَادِيَّةِ ..... (١٠٧)

الفَصْلُ الرَّابِعُ : بَيَانُ الْمَقْصُودِ الأَعْلَى مِنْ تَشْرِيعِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَمَدَى مَسْؤُولِيَّةِ الأُمَّةِ عَنهُ، وَحُكْمِ هَذَا الخُرُوجِ ..... (١١١)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ أَنَّ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَالبُغَاةِ وَنَحْوِهِم كَذَلِكَ يَكُونُ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ وَإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ..... (١١٢)

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : كَلَامُ الإِمَامَينِ الرَّازِيِّ والغَزَالِيِّ فِي وُجُوبِ الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِلدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ، خَاصَّةً عِنْدَ انْتِشَارِ الجَهْلِ، وإِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ تَعَلُّماً وعَمَلاً، وأَنَّهُ لَا يَسْقُطُ الحَرَجُ عَنِ الأُمَّةِ مَا دَامَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ جَاهِلٌ بِفَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ دِينِهِ .... (١٢٢)

الفَصْلُ الخَامِسُ : بَيَانُ سُنَّةِ اللهِ ﷻ فِي تَجْدِيدِ مَا انْدَرَسَ مِنَ الدِّينِ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ جَدَّدَ القُطْبَ الأَعْظَمَ فِي الدِّينِ، بِعَمَلِ «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ»، عَلَى يَدِ الشَّيخِ مُحَمَّد إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ؛ وَبَيَانُ شَيْءٍ مِنْ مَعَالِمِ هَذَا التَّجْدِيدِ وَآثَارِهِ .... (١٢٥)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : فَضْلُ اللهِ ﷻ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِحِفْظِ دِينِهَا مِنَ الضَّيَاعِ، وبَعْثُهُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا ..... (١٢٦)

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : الوَسِيلَةُ الَّتِي فَتَحَ اللهُ بِهَا عَلَى الشَّيخِ مُحَمَّدَ إِلْيَاسَ رَحِمَهُ اللهُ فِي إِحْيَاءِ جُهْدِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَتَجْدِيدِهِ..... (١٣١)

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : الصِّفَاتُ السِّتُّ الَّتِي قَرَّرَهَا الشَّيخُ إِلْيَاسُ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَنهَجِ الجَمَاعَاتِ الخَارِجَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِلتَّمَرُّنِ عَلَيهَا، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيهَا، وَمَوْقِعُهَا مِنَ الدِّينِ ..... (١٤١)

www.saida-islam.weebly.com

- رِسَالَةُ الدُّكْتُورِ مُحَمَّد بَكْرِ إِسْمَاعِيلَ فِي بَيَانِ أُصُولِ عَمَلِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبلِيغِ، وَثَنَاؤُهُ عَلَى العَمَلِ وَأَهْلِهِ ..... (١٥٣)

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : أَمْثِلَةٌ وَاقِعِيَّةٌ تُبَيِّنُ أَثَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي إِعَادَةِ الرُّوحِ الإِيْمَانِيَّةِ وصِفَاتِهَا إِلَى حَيَاةِ الأُمَّةِ، وإِعَادَةِ الأُمَّةِ إِلَى إِيْمَانِهَا وَوَظِيفَتِهَا الدَّعَوِيَّةِ ..... (١٥٩)

الرِّسَالَةُ الأُوْلَى : رِسَالَةٌ لِلعَلَّامَةِ أَبِي الحَسَنِ النَّدَوِيِّ فِي ذَلِكَ ..... (١٦٠)

الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ : جَوَابٌ عَلَى سُؤَالٍ حولَ عَمَلِ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، لِلعَلَّامَةِ أَبِي الحَسَنِ النَّدَوِيِّ ..... (١٦٦)

الرِّسَالَةُ الثَّالِثَةُ : رِسَالَةٌ أُخْرَى لِلعَلَّامَةِ أَبِي الحَسَنِ النَّدَوِيِّ فِي ذَلِكَ ..... (١٧٠)

الرِّسَالَةُ الرَّابِعَةُ : رِسَالَةٌ لِلعَلَّامَةِ أَبِي بَكْرٍ الجَزَائِرِيِّ فِي ذَلِكَ ..... (١٧٤)

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : رِسَالَةٌ إِلَى عُمُومِ الأُمَّةِ : شُعُوبِهَا وَحُكُومَاتِهَا، وَعُلَمَاءِهَا وَعَوَامِّهَا، لِلْعَوْدَةِ إِلَى مُهِمَّتِهَا الأَسَاسِيَّةِ، بِخِدْمَةِ دِينِهَا وَالقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَيهِ حَقَّ القِيَامِ، وَتَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ الجُهْدِ لإِقَامَةِ الدِّينِ ..... (١٧٦)

خاتمة ..... (١٨١)

فهرس المحتويات ..... (815)

www.saida-islam.weebly.com